

الجمعيات السرية

فى العالم

البروتوكولات • الماسونية • البهائية

د . عبد الوهاب المسيرى

الجمعيات السرية

فى العالم

- البروتوكولات
- البهائية
- الماسونية

بقلم

د. عبد الوهاب المسيرى

دار الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
NO- 515 - no - 1993
العدد ٥١٥ - جماد أول - نوفمبر ١٩٩٣
FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشاً :

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٥٥٠٠ ليره - الأردن ٢ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية
١,١ دينار - الدوحة ١٢ ريالا -
ضفة والقدس ٢ دولار - لندن

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

مجموعة من اليهود يتناولون مأدبة عيد الفصح (من مخطوطة مصورة للهاجاداه ، أى الكتاب الذى يضم شعائر وصلوات هذا العيد ، وتعود المخطوطة إلي القرن الخامس عشر) .

الغلاف للفنان :
محمد أبو طالب

مقدمة

من القضايا المنهجية المهمة والتى تحتاج إلى مزيد من الدراسة والفحص قضية تراكم المعلومات وصياغة النماذج التفسيرية .

وهذا الكتاب هو محاولة للاسهام فى هذا المجال من خلال مايسمى «دراسة الحالة » ، وقد أُخذت كل الحالات من تجارب أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم. والمقدمة تشكل الجزء المنهجى والنظرى من الكتاب، أما فصول الكتاب ذاته فتضم الدراسات التطبيقية للحالات والأمثلة المختلفة.

ويمكن للقارىء أن يبدأ الكتاب بقراءة المقدمة المنهجية، ولكنه يمكنه أيضا أن يرجىء قراءتها ويذهب مباشرة للنص، ولكل إنسان ذوقه واهتماماته. فهناك من يفضل الانتقال من العام إلى الخاص، وهناك من يفضل العكس، أى الانتقال من الخاص إلى العام . وعلى كلٍ ، يعرف كل من يعمل فى حقل التأليف أن آخر مايكتبه المؤلف هو عادة المقدمة، فهى اللحظة التى يتأمل فيها المؤلف كتابه ، ويحاول أن يستخلص منه

بعض التعميمات التي قد تساهم في تعميق أفكاره وربما أفكار الآخرين .

أولاً : في النماذج الاختزالية

يتصور كثير من الناس أن عقل الإنسان إن هو إلا صفحة بسيطة بيضاء أو سطح شمعي يسجل بأمانة كل ما ينطبع عليه من معطيات مادية ومحسوسة، وأنه يتسم بثلاث سمات أساسية :

١) أنه لا متناه في قدرته الاستيعابية والامتصاصية والتسجيلية.

٢) أنه سلبي وبسيط، فهو يسجل ويمتص ويستوعب بحياد شديد دون أن يشوه أو يغير أويعدل مايصله من معطيات حسية وحقائق صلبة .

٣) أن الحقائق والمعطيات الحسية التي تنطبع على العقل تترابط من تلقاء نفسها حسب قوانين طبيعية/ مادية عامة (نشير عادة إلى «الطبيعة/ المادة» بدلا من «الطبيعة» وحسب، كما هو شائع، لتأكيد البعد المعرفي للمفهوم) .

٤) هذا العقل الذي يسجل كل ما ينطبع عليه ويتحرك حسب قوانين مادية عامة لا يتمتع بأي استقلال عن قوانين الطبيعة / المادة، ومن ثم فهو لا هوية له ولا شخصية، فهو دماغ أو مخ أكثر منه عقل (فكلمة «عقل» تعني قدراً من الاستقلالية والحرية) .

وتعود جذور هذا المفهوم للعقل إلى عصر الاستنارة في الغرب (القرن الثامن عشر) حين حققت العلوم الميكانيكية انتصاراتها المذهلة. ويتفرع عن هذه الرؤية للعقل رؤية للواقع ولعلاقة العقل به :

٥) فالواقع هو مجموعة من الحقائق الصلبة والوقائع المحددة والتى ترتبط من خلال حلقات السببية الواضحة، وهذه السببية كامنة في الأشياء أو لصيقة بها تماماً.

٦) عملية الإدراك هى عملية تلقى موضوعية تراكمية إذ يقوم العقل بتسجيل الحقائق الصلبة والوقائع المحددة المتناثرة التى تتراكم فوق عقل الإنسان (اللامتناهى السلبى الذى لا هوية له) .

٧) بما أن الأشياء مرتبطة فى الواقع ذاته برباط السببية الواضح فإن الوقائع والمعطيات الحسية ترتبط فى عقل الإنسان من تلقاء نفسها، بشكل آلى حسب قوانين الترابط المادية الآلية العامة . إذ تترابط الأحاسيس الجزئية وتتحول إلى أفكار بسيطة، ثم تترابط الأفكار البسيطة لتتحول إلى أفكار مركبة، التى تترابط بدورها لتصبح أفكارا أكثر تركيبا وهكذا، حتى نصل إلى الأفكار الكلية .

ولكن هناك رؤية أخرى للعقل البشرى (نتاج التمرد على مفاهيم عصر الاستنارة وثمرة مايسميه البعض الثورة التوليدية)، تذهب إلى أن عقل الإنسان يتسم بما يلى :

١) العقل قاصر وله حدوده الخاصة ولا يمكنه تسجيل كل المعطيات المادية المحيطة به ولا الإحاطة بكل جوانب الواقع.

٢) الواقع ليس بسيطا، ولا ترتبط معطياته الحسية برباط السببية الصلبة الواضحة، إذ ثمة عناصر مبهمة فيه، وثمة احتمالات وامكانيات كثيرة، يمكن أن يتحقق بعضها وحسب، ولا يتحقق البعض الآخر.

٣) ولكن العقل على الرغم من هذا، بل وبسبب هذا، أبعد ما يكون عن السلبية والبساطة، فهو فعال مبدع ومن ثم حر.

٤) لكل هذا نجد أن العقل يتمتع بقدر من الاستقلال عن المعطيات المادية المحيطة به وعن قوانين الطبيعة/ المادة، وهو لهذا له هوية محددة .

٥) حينما يقوم العقل بأى عملية إدراكية مهما كانت بساطتها يظل فاعلاً وفعالاً إذ يجرى عملية تجريدية تفكيكية تركيبية تتضمن استبعاد بعض العناصر وإبقاء البعض الآخر، ثم يقوم بترتيب ما تم إبقاؤه من معطيات فيبرز بعضها باعتباره مركزياً ويهمش البعض الآخر باعتباره ثانوياً بحيث تصبح العلاقات بين المعطيات التى أدركها العقل تشاكل، ولا تتطابق بالضرورة مع، مايتصوره الإنسان العلاقات الجوهرية فى الواقع. وعملية الإبقاء والاستبعاد هذه، ثم الترتيب والتنظيم، لا تتم بشكل عشوائى وآلى وطبيعى مادى تلقائى، وإنما على

أساس مجموعة من المسلمات النهائية التى استبطنها المدرِك بحيث أصبحت تشكل الإطار لكل العمليات الإدراكية الواعية وغير الواعية (وهذا ما نسميه النموذج المعرفى أو الإطار الكلى أو الرؤية العامة أو رؤية الكون ... إلخ). وبعد أن يصوغ العقل النموذج المعرفى فإنه يقوم باختباره بالعودة للواقع.

العقل الإنسانى إذن قاصر ولكنه فعال مبدع قادر على التجريد المركب من خلال التفكيك والتركيب وإعادة صياغة المعطيات التى تصله، وهو يفعل ذلك حتى يجعل العالم مفهوماً لديه، فهو لا يمكنه أن يعيش فى الجزئيات المتناثرة. ولذا فعملية التفسير حتمية، وكذلك عملية التفكيك والتركيب (وصياغة النماذج المعرفية أو الإدراكية) التى تسبقها. أما مسألة التلقى الموضوعى المحايد فهى مسألة أسطورية غيبية غبية تليق بالسلوكيين وهؤلاء المغرمين بمراقبة كلب بافلوف والتعميم من سلوك الكلب على سلوك الإنسان. فهم يخلطون بين الكلب المسكين الذى وقع فى يد العالم الروسى المادى، الذى حبسه فى المعمل ووضعه فى ظروف معملية مضبوطة من جهة، ومن جهة أخرى الإنسان الحر الذى يحب ويكره ويفرح ويحزن ويتذكر وينسى والذى يواجه عشرات القضايا المركبة التى تتطلب منه اختيارات معرفية وأخلاقية وجمالية

واجتماعية فى غاية التركيب، والذى يتطلع فى معظم الأحيان إلى السماء والنجوم والقمر، ولكنه يخفض بصره أحياناً إلى الأرض والطين والبنات الراقصات فى إعلانات التليفزيون والسلع المتراكمة خلفهن وسلاحف النينجا.

إن الإدراك هو فى جوهره عملية صياغة نماذج تفسيرية يتصور الإنسان أنها تشاكل الواقع ، وقد تكون النماذج مركبة وقد تكون بسيطة اختزالية:

١ - فإذا كان النموذج مركباً فإنه سيحوى عناصر متداخلة مركبة وسيدور فى إطار السببية والاحتمالية بحيث يعطى الإنسان صورة مركبة عن الواقع وعن مستوياته المتعددة وتناقضاته وعن حيويته والعوامل المادية والروحية والمحدودة واللا محدودة والمعلومة والمجهولة التى تعتمل فيه .

٢ - أما إذا كان النموذج بسيطاً ساذجاً اختزاليًا واحديًا فإنه سيختزل الواقع الإنسانى المركب ويرده إلى سبب أو اثنين. فالأحداث - حسب هذا التصور أو الرؤية أو النموذج - ليست نتيجة تفاعل بين مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة، وإرادة إنسانية حرة وعقل مبدع من جهة أخرى، وإنما هى نتاج سبب واحد بسيط عام (قد يكون قانوناً طبيعيًا واحداً، أو دافعاً ماديًا واحداً ، أو قوة واحدة مدبرة خارقة)، تنطبع على

عقل متلقٍ لهذا القانون أو الدافع أو القوة. وأحداث التاريخ هي نتاج بطولة بطل أو بطلين ، أو نتاج عقل واحد متآمر وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه، أو نتاج نظرية ثورية فورية أو فكرة انقلابية جذرية أو العنصر الاقتصادى أو الدافع الجنسي. ومهما كان أساس التفسير أو طبيعة التوجه السياسي للنموذج الاختزالي، فإن البنية واحدة، تستند عادة إلى الافتراضات التالية :

أ) إن عقل الإنسان كيان سلبي مادى يسجل كل ما ينطبع عليه بشكل آلي، لا فعالية ولا إبداع فيه.

ب) إن الواقع بسيط مكون من عنصر واحد (أو اثنين). قد يكون هذا العنصر مادياً مغاليا في المادية، أو روحياً مغاليا في الروحانية، أو فردياً مغاليا في الفردية، أو جماعيا مغاليا في الجماعية، لكن المهم أنه عنصر واحد. إن علاقة العقل بالواقع بسيطة ومن ثم تظهر الواحدية السببية التي تؤدى إلى واحدية تفسيرية.

ثانياً : الرؤية الاختزالية التآمرية

والايمان بوجود مؤامرة يهودية عالمية منذ بدء التاريخ حتى الوقت الحالي هو ثمرة استخدام نموذج اختزالي واحدى لادراك الواقع ورصده. فالمؤمنون بوجود مؤامرة يهودية عالمية يعتقدون أن أعضاء الجماعات اليهودية يكونون كلاً واحداً

متكاملاً متجانساً، وأن لهم طبيعة واحدة، وأن اليهودى شخص فريد لا يخضع للحركيات الاجتماعية التى يوجد فيها، ولا ينتمى إلى الأمة التى يعيش بين ظهرانيها . وهو يقف دائماً فى مقابل الأغيار (غير اليهود)، إذ إن ثمة خاصية ما فى اليهود، ثمة خصوصية كامنة فيهم، تجعل من العسير على كل المجتمعات الإنسانية دمجهم، أو استيعابهم، وتجعل من العسير عليهم الاندماج فيها.

ويتسم اليهود بالشر والمكر والرغبة فى التدمير، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودى الذى يخطط ويدير منذ بداية التاريخ والذى وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة، وذلك بهدف السيطرة على العالم (وربما لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشليم القدس). والتاريخ اليهودى بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة، واليهود من ثم هم المسئولون فى كل زمان ومكان عن كل الشرور والمنكرات. فعلى سبيل المثال، هم الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية)، وهم الذين وضعوا السم للرسول عليه الصلاة والسلام، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبأ (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام، وهم الذين

قاموا بدس الإسرائيليات دساً على الدين الحنيف. بل وقد عُرف عنهم قيامهم بذبح الأطفال واستخدام دمهم فى صنع خبز الفطير الذى يأكلونه فى عيد الفصح.

وفى العصر الحديث يرى التآمريون أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعلنية (وغير المعروفة والخفية) فى العالم الغربى والعربى، بل وفى كل أرجاء العالم. فهم وراء المحافل الماسونية التى أسسوها أداة لمؤامراتهم، وهم وراء البهائية التى تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد، وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها، والبلشفية بكل إرهابها، والإباحية بكل تدميريتها، وهم يسيطرون على الرأسمال العالمى والحركة الشيوعية ويتحكمون فى الصحافة ووسائل الإعلام. وهم الذين استفزوا هتلر، فاضطروه اضطراراً إلى تدميرهم (ومن ثم، فهتلر هو أحد أبطال التاريخ التآمرى). وهم الذين استغلوا الإمبراطورية الإنجليزية وجعلوها تصدر وعد بالفور. وهم الذين يحركون الآن اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكى ويجندون الصوت اليهودى، وذلك حتى يسخِّروا الولايات المتحدة ويرغموها بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم.

والصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر

الغربي، وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وبهيمنتها على العالم، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الكامن في النفس اليهودية الذى يتبدى، في الغزو الصهيوني لفلسطين، وضرب المفاعل الذرى العراقي وغزو لبنان وقمع الانتفاضة والهجرة اليهودية السوفييتية إلى فلسطين والسوق الشرق أوسطية... إلخ. ومن أهم إفرازات هذا التصور التآمرى الاختزالي الوثيقة المسماة «بروتوكولات حكماء صهيون» .

ويقوم كثير من المفكرين وأعضاء النخبة الحاكمة أو غيرهم في العالم العربي والإسلامي بتبني هذا النموذج التفسيرى الاختزالي في حربهم ضد الصهيونية وإدراكهم لها لأسباب معرفية وعملية. أما من الناحية المعرفية فإن هذا النموذج التآمرى يفسر كل شيء ببساطة بالغة وبسرعة فائقة، ويمنح الإنسان إحساساً بالمقدرة على التنبوء بسلوك اليهود بكفاءة عالية. أما من الناحية العملية فالمدافعون عن النموذج الاختزالي يعتقدون أن تقديم اليهود في هذه الصورة القاتمة هو خير وسيلة لاستنفار الجماهير لشحذ الهمم. ولذا يصر هؤلاء ألا نميز بين اليهودى والصهيوني والإسرائيلي، وألا نرى فرقاً بين اليهود والصهاينة، ولا بين الصهاينة والاسرائيليين، ولا بين اليمين واليسار في إسرائيل، ولا بين المؤمن والملحد، ولا بين الأخيار والأشرار، ولا بين الأشكناز

والسفارد، ولا بين الأثرياء والفقراء، ولا بين المولود فى فلسطين والمهاجر إليها، إذ يصبح اليهود، فى هذا الإطار، سواء، وكل ما علينا هو الحرب ضدهم. ويجد بعض هؤلاء المفكرين سنداً لرؤيتهم فى الدين الحنيف بحيث تصبح هذه الرؤية أمراً إلهياً.

ثالثا: الرؤية الاختزالية الصهيونية

ولكن الباحث المدقق سيكتشف شيئاً قد غاب عن هؤلاء المتحمسين الطيبين، فالرؤية الاختزالية التآمرية لليهود لا تختلف قط فى أساسياتها عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود. فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية واحدية بسيطة ساذجة، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم فى التاريخ إذ إنها تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم . فبدلاً من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً يتحرك داخل تاريخه اليهودى الخاص بمعزل عن المجتمعات التى يعيشون فيها. وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلاً من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودى عبر التاريخ» وعن « الشخصية اليهودية فى كل العصور» وعن «العبقرية اليهودية فى كل زمان ومكان» وهكذا.

ويقدم كلا الفريقين تصوراً لليهود باعتبارهم كيانات بسيطة دوافعها بسيطة وغاياتها بسيطة. فأعضاء الشعب اليهودي هذا - حسب رؤية التآمريين والصهاينة - لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم، إذ إنهم أينما وجدوا يحنون لصهيون ويدينون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية بالولاء، ومن ثم فاليهودي عادةً يعاني من ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار في وطنه ، ونتيجة لهذا يصبح شخصية مريضة وكلا الفريقين يرى هذا الكيان البسيط باعتباره كياناً فريداً لا يخضع للقوانين الإنسانية العامة، يقاوم الاندماج في الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم .

والخلاف بين التآمريين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل، وإنما في آليات الحل وحسب، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كليًا وشاملا. فكلا الفريقين يطرح حلا بسيطا لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة «خروج» اليهود من أوطانهم. ولكن بينما يرى التآمريون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة، بحيث

لا يوجد أى مبرر للعنف. (ومع هذا لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم، كما حدث عام ١٩٥١، حينما ألقى عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمع أعضاء الجماعة اليهودية فى العراق حتى يضطروهم للهجرة منها إلى الدولة الصهيونية الناشئة، وكما يحدث الآن حينما تضغط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة لتغلق أبوابها أمام اليهود السوفييت حتى يضطروا إلى الهجرة إلى إسرائيل).

والدارس لتاريخ الصهيونية يعرف تماماً أن الصهيونية والعداء لليهود (معاداة السامية) وجهان للعملة ذاتها. وقد حاول كل من بالفور وهتلر إخراج اليهود من بلده ليخلصها منهم، فقام بالفور بتصديرهم إلى فلسطين ونجح فى ذلك، أما هتلر فلم تكن لديه مستعمرات فأرسل بهم، فى بادىء الأمر، إلى بولندا التى أرجعتهم من حيث أتوا. فقام بإرسالهم لمعسكرات السخرة والإبادة (هم وغيرهم من الملايين الأخرى). فالفرق بين بالفور وهتلر فرق سطحى للغاية، فهتلر، هو بالفور بدون مستعمرات، وبالفور ما هو إلا هتلر يملك مستعمرات (مجال حيوى يصدر له مشاكله). ولعل هذا ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن العرب الذين يهيجون ضد يهود العالم ويتبنون الرؤية الاختزالية التآمرية يتبنون دون وعى

الرؤية الاختزالية الصهيونية ويساهمون في تحويل يهود العالم من مواطنين ينتمون إلى أوطانهم إلى مستوطنين مسلحين ينضمون إلى الكتلة البشرية الصهيونية الغازية لفلسطين، أي أن التآمريين لايختلفون عن الصهاينة في افتراضاتهم ومسلماتهم ورؤيتهم الاختزالية. ودعوتهم المستمرة إلى طرد اليهود من ديارهم وأوطانهم أينما كانوا ، هي في واقع الأمر دعوة صهيونية حتى النخاع.

رابعاً: صياغة النموذج

ويمكننا أن نسأل: كيف يعمل النموذج الاختزالي الواحدي؟ وسنكتشف أن طريقة وخطوات صياغة النموذج الاختزالي لا تختلف عن طريقة وخطوات صياغة أي نماذج إدراكية أخرى ، فهي عملية تفكيكية وتركيبية :

١) يحدد صاحب النموذج الاختزالي الواحدي أطروحته الأولية، وهي عادةً أطروحة بسيطة بساطة بالغة، وعامة عمومية فائقة بحيث يمكنها أن تغطي رقعة ضخمة من الواقع.

٢) مهما بلغت سذاجة وبساطة الأطروحة الأولية فلا بد أنه توجد بعض المعطيات والحقائق في الواقع التي يمكنها أن تعطيها قدراً من المصداقية، وهي عادة حقائق صلبة وصادقة تماماً من الناحية الإخبارية المباشرة، أي أنها موجودة بالفعل في الواقع، ولذا يمكن استخدامها في توثيق النموذج

الاختزالى وتحويلها إلى مؤشر إمبريقى دقيق ودليل مادى قاطع على صدق الأطروحة أو الفرضية الأولية. ومن الآليات الأساسية في النموذج الاختزالى اقتباس الأقوال وكأنها حقائق. فإن «ضُبطت» وثيقة تؤيد الأطروحة الأولية فإن هذه الأقوال تصبح مخططاً ويصبح المخطط حقيقة، مع أن الأقوال يمكن أن تكون أمنيات أو أكاذيب، والمخطط يمكن أن يفشل، والحقائق يمكن أن تكون جزئية تماماً لا تمثل الواقع الكلى.

٣) تُنزع الوقائع والتفاصيل من سياقها التاريخى والإنسانى بحيث تصبح لا تاريخ لها ولا أصول اجتماعية.

٤) تُعزل الوقائع والتفاصيل عن كل أو معظم الحقائق الأخرى، وعن أى نماذج أو أنماط أخرى، أى يُسقط المنظور المقارن تماماً.

٥) تمنح الأطروحة البسيطة مركزية تفسيرية كبرى وتصبح الوقائع التى تم اختيارها واجتزاؤها وعزلها وكأنها أهم أحداث فى التاريخ.

٦) تتم مراكمة المعلومات فى ضوء هذه الأطروحة البسيطة بنفس الطريقة : أى اجتزاء الحقائق ثم عزلها عن الحقائق الأخرى وتوظيفها كمؤشر على صدق الأطروحة البسيطة.

بعد أن تتم صياغة النموذج البسيط وتوثيقه لابد أن يتسم المتلقى لهذه "الأطروحة الموثقة" بمقدرة فائقة على تقبل

الحقائق الصلبة دون مساءلة، فهو متلقى موضوعى محايد، إن رأى أرقاماً آمن بها على التو، وإن سمع عن واقعة "حدثت بالفعل" عليه أن يصدقها بكل ما أوتى من عنف وموضوعية دون تفكيك أو تركيب ودون استدعاء لحقائق وأنماط أخرى ودون إدراك للسياق الاجتماعى والتاريخى للتفاصيل والوقائع التى تعرض عليه. ولنضرب بعض الأمثلة :

١ - يهاجر بضعة آلاف من اليهود إلى إسرائيل، فيتلقف الاختزاليون هذه الواقعة، ويجعلون منها دليلاً قاطعاً على أطروحتهم البسيطة : عدم انتماء اليهود إلى أوطانهم وارتباطهم الشديد بصهيون.

ويتم عزل هذه الواقعة عن حقائق أخرى مثل ملايين اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة (٨٥٪ من كل المهاجرين اليهود عبر تاريخ هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث اتجهوا إلى الولايات المتحدة) والملايين التى نزحت عن إسرائيل (يصل عددهم حوالى مليون، أى حوالى ربع السكان). ولا يرد ذكر للرشاوى التى تدفع للمهاجرين اليهود حتى يتجهوا إلى إسرائيل. أما بخصوص المنظور المقارن فلا يرد ذكر للأيرلنديين الذين هاجروا ويهاجرون من بلادهم بأعداد تفوق اليهود، أو الألمان الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتى فى الفترة ١٩٧٠ - ١٩٩٠ بنسبة تفوق نسبة اليهود.

٢ - تكتشف عصابة مخدرات ودعارة فى كاليفورنيا يديرها مهاجرون سوفييت ويعلن عن وجود مافيا من اليهود السوفييت والإسرائيليين. تتحول هذه الواقعة فى ذهن التآمريين من أعداء اليهود إلى مؤشر على انحلال الشخصية اليهودية. ويوافق بعض الصهاينة على هذا، ويحولون هذ الانحلال إلى مؤشر صلب وأكيد على أن اليهود إن عاشوا خارج أرض الميعاد فإنهم يصابون بالإنحلال الخلقى والتفسخ الاجتماعى بسبب اغترابهم، ولا صلاح لهم إلا بالعودة لوطنهم القومى.

ولا يرد أى شىء عن معدلات الجريمة فى كاليفورنيا، ونسبة اشتراك الجماعات المهاجرة الأخرى فيها. ولا يُسأل عن نسبة اشتراك الأمريكيين من أصل إيطالى، وهل هى أعلى أم أقل من نسبة اشتراك المهاجرين السوفييت، ولا عن نسبة اشتراك اليهود الأمريكيين (أى الذين استقروا فى الولايات المتحدة منذ أمد طويل) فى الجريمة.

٣ - إن هاجم أحد العنصريين اليهود، فهذا من منظور التآمريين دليل قاطع على أن اليهود يستفزون الأغيار دائماً، ومن منظور الصهاينة هو دليل قاطع على عداء الأغيار الأزلى لليهود، دون ذكر لفترات الهدوء والاستقرار التى تمتع بها اليهود ومعدلات الاندماج العالية التى يتمتعون بها فى الغرب،

ولايرد أى ذكر لمعدلات الهجوم العنصرى على المسلمين مثلاً (وقد استخدمت الإبادة النازية ليهود أوربا وسيلة لتغطية عنف الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين).

٤ - إن ظهر مجرم يهودى فهذا تعبير عن العبقرية اليهودية والإجرام المتأصل فى الطبيعة اليهودية (بالنسبة للتآمريين). ولا تتم الإشارة إلى عتاة المجرمين الآخرين ولا نسبة عباقرة اليهود المجرمين إليهم. وإن حصل يهودى على جائزة نوبل فإن الصهاينة يشيرون إلى أن اليهود عباقرة بطبيعتهم، ويشيرون إلى أن اليهود يشكلون ٣٪ من الشعب الأمريكى، بينما بلغ عدد اليهود من الحاصلين على جائزة نوبل ٣٠٪ (على سبيل المثال) دون الإشارة إلى أن العلماء اليهود الذين يكسبون جائزة نوبل يوجدون دائماً داخل التشكيل الحضارى الغربى، ولم يظهر عباقرة بين يهود الهند أو إثيوبيا، مما يدل على أن العنصر الثابت ليس يهودية العبقرى وإنما وجوده فى الحضارة الغربية بما تتيحه من إمكانيات وإعلام.

٥ - يصر جميع الناس على أن اليهود يوجدون فى كل مكان فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ولذا نتحدث عن «اليهودية العالمية» وعن «المؤامرة اليهودية العالمية». وبالفعل يوجد يهود فى الهند وإثيوبيا وموزمبيق وجنوب أفريقيا

والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية والصين، وعادةً ما تقدم الجداول الطويلة التي تحمل أرقاماً كثيرة توثق هذه المقولة.

ولكننا لو دققنا النظر قليلاً ومن خلال المقارنة والقراءة المتعمقة للأرقام فسنجد أن غالبية يهود العالم توجد في العالم الغربي، وهذه حقيقة منذ القرن الثامن عشر. ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت غالبيتهم الساحقة (حوالى ٩٠٪) توجد في أوربا التي، انتشر اليهود منها إلى أرجاء العالم.

ولكن هذا الانتشار قد أخذ شكلاً محدداً، فهو انتشار تم داخل نمط واضح وهو التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي . وإن دققنا النظر أكثر اكتشفنا أن الانتشار كان يتم داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلوسكسوني بالدرجة الأولى (الولايات المتحدة - كندا - جنوب أفريقيا - أستراليا - نيوزيلندا - إسرائيل). ولذا نجد أن الغالبية الساحقة ليهود العالم توجد في بلاد تتحدث الإنجليزية ، وأن لغة اليهود الأساسية ليست العبرية وإنما الإنجليزية، لغة الاستعمار الإنجليزي والإمبريالية الأمريكية، وسنكتشف أن إسرائيل ليست في آسيا وأن جنوب أفريقيا ليست في أفريقيا إلا من الناحية الجغرافية وحسب، أما من الناحية التاريخية والوظيفية فهما جزء من التشكيل الاستعماري الغربي خاصة

الانجلوسكسوني، مرتبطتان به ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً وتاريخياً. ولذا هل يمكن الحديث بعد هذا عن إرادة وحركية يهودية عالمية مستقلة؟ أم أن من الأجدر النظر لأعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم اساسا جزءا من الحضارة الغربية وأن نمط انتشارهمانما هو جزء من إنتشار المادة البشرية الاستعمارية البيضاء التي صدرتها أوربا إلى العالم، ومن ثم لا فرق بين المستوطن الإنجليزي الذي ذبح السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، والمستوطن الأسباني الذي ذبحهم في أمريكا الجنوبية، والمستوطن الهولندي الذي ذبح الأفريقي في جنوب أفريقيا، والمستوطن الفرنسي الذي ذبح العربي في الجزائر ، والمستوطن الصهيوني (من روسيا أو بروسيا أو بولندا أوهولندا) الذي ذبح ولايزال يذبح العرب في فلسطين؟

٦ - من أطرف الأمثلة على سذاجة النموذج الاختزالي وبساطته وطريقة عمله ماورد في إحدى رسائل الدكتوراه (التي أرسلت لي لفحصها) والتي قام كاتبها بحشد عدد هائل من الحقائق الصلبة المتناثرة، وكان من ضمنها حقيقة طريفة: وجود صديقة يهودية لليدي بيرد (زوجة الرئيس الأمريكي جونسون) في البيت الأبيض أثناء حرب ١٩٦٧. وقد قدمت هذه الحقيقة الصلبة على أنها دليل قاطع على قوة النفوذ الصهيوني واليهودي وكيف يحرك اليهود الولايات المتحدة،

المتحدة بالسماح لقاعدتها العسكرية فى الشرق الأوسط بالهجوم على مصر عام ١٩٦٧ (لضرب القومية العربية) هو قرار تساهم صديقة ليدى بيرد فى صياغته ولا تحدده المصالح الاستراتيجية الأمريكية كما يراها أصحابها .

وما يجدر ذكــره أن التحليل الذى يقال إنه علمي كثيرا مايسقط فى الواحدية السببية والتفسيرية، تماما مثل التفسيرات التآمرية. فيصل الباحث إلى أطروحة بسيطة (اسرائيل أن هى إلا قاعدة للإمبريالية الغربية ـ الطبقة الحاكمة فى اسرائيل طبقة بورجوازية تقف ضد العمال العرب واليهود) ويسقط كل الأبعاد الأخرى للظاهرة ، والتى تمنحها خصوصيتها، ثم يبدأ فى مراكمة المعلومات داخل اطار الأطروحة الأولية البسيطة.

(وقد سمينا هذا فى كتابنا: **الاستعمار الصهيونى وتطبيع الشخصية اليهودية**، (بيروت، ١٩٩٠ مؤسسة الأبحاث العربية) تطبيع النموذج السياسى الإسرائيلى، وتناولناه بشىء من التفصيل) .

خامساً: لماذا النماذج الاختزالية ؟

ويمكننا أن نسأل : لماذا يلجأ الإنسان لتفسير الواقع من خلال النماذج الاختزالية، فيقوم البعض بصياغتها، ويقوم البعض الآخر بتلقفها واستخدامها بشراهة بالغة للإجابة على هذا السؤال يمكن أن نذكر الأسباب التالية :

١ - غنى عن القول أن عملية نحت النماذج المركبة بما تتضمنه من عملية التجريد والتفكيك والتركيب المركبة عملية صعبة للغاية وتتطلب جهداً إبداعياً خاصاً، ولذا فإن ما يحدث فى كثير من الأحيان أن الناس يقومون بعملية تجريد تفكيكية اختزالية أبعد ما تكون عن التركيب، وتتسم بالتبسيط والوضوح والتحرك فى إطار السببية البسيطة واليقينية المطلقة أو شبه المطلقة.

٢ - التعامل مع الواقع من خلال نماذج اختزالية أمر مغرٍ للغاية فهو يبسط الأمور ويخلق لدى الإنسان وهم التحكم الكامل فى واقعه. والعقل الإنسانى منذ أن وُجد الإنسان دائم البحث عن صيغة بسيطة يمكنه عن طريقها تفسير كل شىء والتحكم فى كل شىء وحل كل مشاكله: خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين أو جملة سحرية أو معادلة رياضية أو قانون علمى واحد يفك به كل الشفرات ويحل به كل الألغاز ويفتح به كل الكنوز، فثمة رغبة طفولية رحمية (نسبة إلى الرحم) كامنة فى النفس البشرية تدفع الإنسان إلى محاولة الوصول الى عالم فردوسى لا صراع فيه ولا تدافع ولا اختيارات أخلاقية، كل الأمور واضحة فيه لا لبس فيها ولا إبهام (تماماً مثلما كان الوضع حينما كان الانسان جنينا فى

رحم أمه، جزء لا يتجزأ منها يطعم ويشرب دون أن يطلب، وحتى بعد أن يولد فهو يظل لصيقاً بثديها - إن طلب يستجاب لطلبه على الفور). هذا العالم البسيط يمكن التحكم فيه تماماً. والواحدية السببية والاختزالية تحقق هذا للإنسان الحديث (تترجم الرغبة الطفولية الرحمية نفسها فى الفكر الغربي الحديث إلى مفهوم الإنسان الطبيعى الذى يعيش فى حالة الطبيعة الرحمية حيث لا صراع ولا اختيارات أيضاً فهو يعيش بالطبيعة وعلى الطبيعة ، خاضعاًتماماً لها ولقوانينها).

٣ - شيوع وهم الموضوعية الكاملة المتلقية والواقع الخام. فنحن كثيراً ما نتصور أن الحقائق هى الحقيقة وأن الواقع الخام هو مستقرها، ولذا فنحن نحاول أن نكون موضوعيين تماما فى رصد الحقائق. ولكن الحقائق التى يأتى بها الاختزاليون من التآمريين والصهاينة - كما أسلفنا - كلها حقائق موضوعية ووقائع ثابتة حدثت تحت سمع الناس وبصرهم. فهم لا يختلقون الحقائق (فى أغلب الأحيان) وإنما يجتزئونها (وعلى كلٍ فاختيار الحقائق أمر حتمى). ولذا فأساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاتها، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها. فالصدق والكذب ليسا كامنين فى الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هى صادقة أم كاذبة ؟) وإنما فى طريقة تناولها، وفى القرار الخاص بما يضم ويستبعد منها. ومن هنا

قولى إن الحقائق شيء والحقيقة شيء آخر، (والحق شيء ثالث). فالحقائق شيء مادى صرف يوجد فى الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة منعزلة عن ماضيها التاريخى وسياقها الحاضر وعن الحقائق الأخرى، أما الحقيقة فهى لا توجد فى الواقع وإنما يقوم العقل بتجريدها واستخلاصها من خلال عمليات عقلية تجرى على الحقائق المتناثرة فيقوم العقل بربط الوقائع والحقائق والتفاصيل بعضها بالبعض، كما يربطها بماضيها التاريخى وواقعها الاجتماعى ثم يربطها بحقائق وأنماط مماثلة حتى يصل إلى النموذج الإدراكى أو المعرفى أو الفكرة الكلية التى تفسر أكبر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة. (أما الحق فهو ينتمى إلى عالم المثل والإيمان وهو يشكل المنظور الأخلاقى [المطلق] الذى يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

والعقل العربى لا يزال مشغولاً بحشد الحقائق دون الانشغال بطريقة التوصل للحقيقة من خلال تناول الحقائق - بل وأصبح كل ما ينشر حقيقة. ولذا يقوم الإعلام العربى بحشد الحقائق والأخبار التى توردها وكالات الأنباء العالمية دون تحليل أو اختبار. ولايختلف الأمر كثيرا بالنسبة للنظام التعليمى العربى فهو لا يزال مشغولاً بحشد الحقائق فى الكتب المدرسية دون تدريب الطلبة على كيفية الحصول على

الحقائق وكيفية ربطها بغيرها من الحقائق، وصياغة النماذج التفسيرية واختبارها.

وقد أصبح كثير من البحوث الأكاديمية التي يقال لها علمية، والتي يتقدم أصحابها من أساتذة الجامعة للترقية، ويحصلون عليها في معظم الأحيان، هي عبارة عن إعادة ترتيب لبعض الحقائق التي وردت في دراسات سابقة أو ربما اكتشاف حقيقة جديدة لا علاقة لها بنموذج أو نمط (وكأن الباحث مخبر أو شرلوك هولمز)، بحيث أصبح البحث العلمي مسألة طفيلية، وأصبحت معايير الترقية مسألة كمية مثل: عدد المراجع - تاريخ نشرها - عدد اللغات التي كتبت بها - هل هي من آخر المراجع ... إلخ، وهي كلها تنم عن أن كثيرا من أساتذة الجامعة (من المتقدمين للترقيات وممن يقومون بمنحها) يدورون في نفس هذا الإطار العقيم. بل إن كثيراً من رسائل الدكتوراه التي تكتب الآن هي عبارة عن محاولة لتوثيق شيء معروف مسبقاً أو تطبيق لنظرية ثبت صدقها تماماً على جزئية ما دون أن تثمر عملية التطبيق أي تعديل للنظرية، وهو ما أسميه التوثيق الأفقي: أن يأخذ الباحث مقولة معروفة مستقرة ويوثقها من كتب أخرى دون إبداع أو تساؤل كأن يثبت الباحث بما لا يقبل الشك أن الصهيونية حركة عنصرية، وأن الرومانتيكية هي عودة للطبيعة والعواطف، وأن مصر هي

هبة النيل! ولعلنا بطرح هذه القضية نفتح حواراً بشأنها لأن هذا الموقف يتهدد العقل العربي وعقول الأجيال القادمة، خصوصاً في عصر انفجار المعلومات والحقائق التي قد تكون وقد لا تكون لها علاقة بالحقيقة أو المعرفة.

٤ - ولكن الأمر ليس مقصوراً على النزوع الإنساني العام نحو الاختزال والتبسيط أو على حالة العقل العربي، إذ توجد عناصر تكمن في واقع أعضاء الجماعات اليهودية ساعدت على انتشار النماذج الإدراكية الاختزالية التبسيطية لهم:

أ) مما لا شك فيه أن ظاهرة اليهود ظاهرة في غاية التركيب وعدم التجانس. بل إنني أذهب إلى أن الخلل الإدراكي والبحثي الأساسي في الشرق والغرب يكمن في تصورنا أن أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون ظاهرة واحدة ينتظمها إطار واحد، بينما هم في واقع الأمر عدة ظواهر مختلفة أطلق عليها «الجماعات اليهودية» لا ينتظمها تاريخ يهودي واحد وإنما تواريخ إنسانية متعددة، وأن عناصر عدم التجانس بين هذه الجماعات من الناحية التفسيرية أكثر أهمية من العناصر المشتركة بينها، وأن كون الجماعات اليهودية «جماعات» أكثر أهمية من كونها «يهودية». ولكن التوصل إلى هذا التعميم يتطلب جهداً بحثياً وإبداعياً شاقاً،

عادة مايستغرق وقتا طويلا، إذ يجب أن يقوم الباحث بمقارنة يهود الصين بيهود إثيوبيا بيهود الولايات المتحدة بيهود العالم الإسلامي، في الماضي والحاضر، وعلى المستويات الدينية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية والديموجرافية ... إلخ، حتى يكون بوسعه أن يقرر ما هي العناصر المشتركة بينهم، وما هي الثوابت وما هي المتغيرات، وماهي علاقة الواحد بالآخر، وهكذا.

ولعل الإصرار على أن اليهود ظاهرة واحدة وكلٌ واحد لا يتجزأ هو نتيجة الكسل الفكري والإحجام عن استثمار الجهد والوقت في اختبار الأطروحات البسيطة، وهو كسل أدى إلى أن عملية التراكم المعرفي عن اعضاء الجماعات اليهودية في العالم تتم في إطار افتراض وجود وحدة وهمية بين كل يهود العالم، الأمر الذي أدى إلى دعم الرؤية التآمرية أو الصهيونية إذا أصبح اليهود قادرين علي فعل أي شيء وكل شيء. وقد وضعنا هذا في دور المتلقي المحايد المندهش ! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ب) مما ساعد على شيوع النماذج الاختزالية شعائر اليهود المركبة التي لا يستطيع كثير من غير اليهود فهمها. وقد أسلفنا القول أنه حينما لا يفهم الإنسان شيئاً فإنه في كثير من الأحيان لا يكِد ولا يتعب ليصل إلى التفسير

الصحيح، بل يلجأ إلى تفسيرات اختزالية (تآمرية أو صهيونية) تريحه من عناء التفكير.

جـ) ساهمت النزعة الانعزالية (الحلولية الواحدية) في الدين اليهودي، والتصورات الدينية اليهودية الخاصة بالشعب المختار والمركزية الكونية والتاريخية التي يضفيها اليهود على أنفسهم في تعميق شكوك غير اليهود فيهم. ومع هذا يجب التنبيه إلى أن ثمة نزعة توحيدية قوية في العقيدة اليهودية على الرغم من هيمنة النزعة الحلولية الواحدية ابتداءً من القرن السادس عشر.

د) يلاحظ أن اليهود يلعبون دوراً مركزيًا في الدراما التاريخية المسيحية (نزول المسيح - صلبه على يد اليهود - هداية اليهود تمهيداً للعصر المشيحاني ... إلخ). وقد ارتبطت فكرة الخروج في الوجدان الغربي باليهود، فهم دائماً في حالة خروج (ودخول) من فلسطين (أرض كنعان) إلى مصر ثم من مصر إلى فلسطين ثم من فلسطين إلى بابل ومن بابل إلى فلسطين ومن فلسطين إلى أرض الشتات وهكذا. وقد ساهم كل هذا في تحويل اليهود إلى مقولة غير زمنية وفي اختزالهم إلى بُعد واحد.

هـ) لا يلعب اليهود دوراً متميزاً في الإسلام، فهم أهل كتاب وأهل ذمة، ومع هذا فمن خلال تفسير حرفي يطابق

بشكل هندسي بين ما جاء في القرآن ووقائع التاريخ المتناثرة تم الربط بين ما جاء في القرآن والسنة من جهة ويهود العالم في العصر الحديث من جهة أخرى، ومن ثم تحول اليهود إلى مقولة غير زمنية ثابتة واختزلوا مرة أخرى إلى بعد واحد على الرغم من المفاهيم الإسلامية الحاكمة الخاصة بالفطرة والتدافع وقبول الآخر .

٥ - ساهمت عدة عناصر في خلق صورة إدراكية سلبية لليهودي في عقل الإنسان الغربي، وهي صورة انتقلت لنا وسيطرت على إدراكنا، على الرغم من أنها لاأساس لها في واقعنا .

أ - تضرب صورة اليهود السلبية بجذورها في الدور الذي لعبه اعضاء الجماعات اليهودية في الغرب كجماعات وظيفية. والجماعات الوظيفية هم جماعة من البشر تجلبهم المجتمعات الإنسانية (عادة التقليدية) من خارج المجتمع، أو تجندهم من داخله، وتوكل لهم بوظائف لايمكن لأعضاء المجتمع القيام بها إما لأنها مشينة (مثل البغاء والربا) أو متميزة وتتطلب خبرة معينة غير متوافرة لأعضاء المجتمع المضيف (التجارة المحلية والدولية - الطب - القتال بأسلحة تتطلب مرانا طويلا) أو تتطلب ارتياد مناطق نشاط جديدة (الاستثمار في المناطق النائية أو المجالات الجديدة) أو حساسة للغاية (الأمن -

الوظائف القريبة من النخبة الحاكمة مثل المستشارين والخصيان الوزراء والجوارى وكبار الموظفين وعبيد القصر).
ويعيش اعضاء الجماعة الوظيفية داخل مجتمعهم ولكن فى حالة عزلة ويحتفظون بهويتهم (الحقيقية أو الوهمية المستقلة).
وهم يتسمون بالحركية والحياد والموضوعية والتعاقدية. وعادة مايرتبطون إما بوطن أصلى (وهمى أو حقيقى) أو بجماعتهم الوظيفية ولايدينون بالولاء للوطن الذى يعيشون فيه، فهو بالنسبة لهم مصدر للربح وحسب. رؤيتهم للكون عادة رؤية حلولية واحدية تضفى عليهم مركزية كونية وعندهم مايسمى بعقدة الشعب المختار.. والجماعة الوظيفية وسيلة لاغاية، يحتفظ المجتمع باعضائهامادام لهم نفع (ويتم التخلص منهم حينما لاتكون لهم وظيفة أو نفع) . وهم عادة مايكونون أداة فى يد الحاكم ولذا فهم محط بغض الجماهير. ومن أهم الجماعات الوظيفية: المماليك فى العالم العربى، والأرمن فى الدولة العثمانية، والحرس السويسرى فى فرنسا الخ..

ومما لاشك فيه أن وجود اليهود بوصفهم جماعات وظيفية متفرقة، داخل عديد من المجتمعات الغربية، تنتظمها شبكة من العلاقات التجارية الوثيقة التى تحقق من خلالها قدراً كبيراً من النجاح التجارى والمالى، قد عمق من الرؤية الاختزالية

التآمرية لليهود. وقد بلغت هذه الشبكة قمة تماسكها وقوتها في القرن السابع عشر حين كانت تنتظم يهود الأرندا في شرق أوربا (في بولندا وأوكرانيا)، ويهود البلاط في وسطها وغربها، ويهود السفارد في البحر الأبيض والدولة العثمانية وشبه جزيرة أيبيريا والعالم الجديد. وقد خلق هذا الوجود إحساسا عميقا لدى الكثير من الدارسين أن ثمة تنسيقا تآمريا بين اليهود في كل أنحاء العالم (وقد انحلت هذه الشبكة تماماً بقيام النظام المصرفي الحديث والدول القومية العلمانية الحديثة).

ب) أدى تعثر التحديث في الإمبراطورية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر وتزايد عدد اليهود نتيجة لانفجاره ديموجرافية صغيرة (ومركب آخر من الأسباب) إلى خلق مشكلة تأقلم عند عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية مع النظام الاقتصادي الجديد، الأمر الذي اضطر أعدادا كبيرة منهم للهجرة، وقد وصف هذا على أنه علامة على الرغبة الأزلية لليهود في الخروج من أوطانهم وعلى تطلعهم الدائم لصهيون.

جـ) ومع ضعف المجتمعات الغربية وبنائها القيمي، بسبب انتشار قيم النفعية واللذة، ومع تركز أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من الحركات الفوضوية وفي قطاع اللذة

(الكباريهات - السينما - السياحة)، تعمق الإحساس بأن ثمة مؤامرة يهودية لا تهدف إلى السيطرة على العالم وحسب بل تهدف أيضاً إلى إفساده (مع العلم بأن الجماعات اليهودية فى أوربا كانت من أكثر القطاعات البشرية محافظة من الناحيتين الأخلاقية والسياسية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ولم تكن ظاهرة الأطفال غير الشرعيين معروفة بينهم).

سادساً: مشاكل النموذج الاختزالى

وغنى عن القول أن النموذج الاختزالى مريح للغاية إذ إنه يفسر كل شىء بشكل آلى ومباشر ومقنع عن طريق استبعاد كم هائل من العناصر والظواهر التى قد تُولد الشك فى النفوس وتثير الأسئلة فى العقول. ولكن مشاكل هذا النموذج التفسيرى كثيرة ونقائصه واضحة من الناحيتين المعرفية والعملية، ولنبدأ بالناحية المعرفية:

١ - يسقط هذا النموذج فى نوع من السببية الاختزالية البسيطة السهلة بحيث تصبح كل النتائج لها سبب واحد، مما يجعله عاجزاً عن تقديم تفسير معقول لتنوع الواقع ولحشد هائل من التفاصيل تم استبعاده. فإذا كان اليهود أشراراً متآمرين، فكيف نفسر ظهور بعض الخيرين بينهم، مثل هؤلاء اليهود المعادين للصهيونية أمثال الحاخام إلمر برجر وأعضاء الناطورى كارتا (المؤمنين بالإله الواحد والمعادين للصهيونية

أكثر من عداء معظم العرب لها) ؟ وكيف نفسر نجاح الجماعة اليهودية في الأندلس (إسبانيا الإسلامية) فى الانتماء الكامل للحضارة العربية الإسلامية والتفاعل معها والإسهام فيها؟ بل وتذهب كثير من المراجع إلى أنهم قاموا بمساعدة الفاتحين الإسلاميين لشبه جزيرة أيبريا، تماماً كما فعل اليهود السامريون أثناء الفتح الإسلامي لبيت المقدس، كما يقال إن يهود العالم الغربى ساعدوا العرب أثناء حروب الفرنجة بتسريب الأخبار لهم عن استعدادات أوربا العسكرية وعن الحملات التى كانت تجردها (ولذا ربط الوجدان الوسيط الغربى بين اليهودى والمسلم). وإذا كان اليهود دائمى التطلع لصهيون، فلماذا لم يهاجر الملايين من اليهود إلى فلسطين بعد أن وقعت فى يد الصهاينة وبعد أن فتحت أبوابها للهجرة الاستيطانية، بل وبعد تقديم الرشاوى المالية والعينية لمن يوافق منهم على الاستيطان؟ ولماذا كان من الضرورى أن توصد أبواب الولايات المتحدة أمام المهاجرين اليهود السوفييت حتى يضطروا للهجرة إلى إسرائيل ؟ وهذا النمط (انصراف اليهود عن فلسطين بدافع البحث عن الرزق أو لأسباب أخرى، لا تدفقهم عليها بفعل الجاذبية الروحية لأرض الميعاد) ليس مقصوراً على العصر الحديث. ففى القرن الأول قبل الميلاد كان عدد يهود العالم حوالى ٧ ملايين (أو ربما

أكثر من ذلك)، ولم يكن يوجد سوى مليون ونصف يهودى فى فلسطين وذلك قبل سقوط الهيكل عام ٦٦ ميلادية، أى أن الملايين من اليهود هاجروا من فلسطين بملء إرادتهم دون قسر خارجى (على عكس ما تدعى المراجع الصهيونية التى تفسر هجرة اليهود بنموذج اختزالى بسيط، يجعل اليهود ملتصقين دائماً بالأرض المقدسة لا يتركونها إلا مضطرين كارهين!).

٢ - أطروحات النموذج الاختزالى تتسم بالعمومية المفرطة لانفصالها عن الزمان أو المكان، ولذا فهى لا تفسر خصوصية الظواهر ولا يمكنها أن تفسر لنا لماذا ظهرت الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر ولم تظهر، على سبيل المثال ، فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بعد حروب الفرنجة (التى يقال لها صليبية)، وهى الحروب التى ارتكبت أثناءها المذابح ضد تجمعات الجماعات اليهودية فى غرب ووسط أوربا واجتثتها من جذورها فى بعض الأحيان، ومع هذا لم يحمل اليهود عصاهم واتجهوا إلى أرض الميعاد كما هو متوقع منهم حسب النظرية الاختزالية التآمرية الصهيونية، وإنما كانوا ينتقلون من بلد أوربية إلى أخرى، ثم اتجه سيل الهجرة اليهودية بعد ذلك إلى بولندا. كما أن النموذج الاختزالى يفشل فى أن يفسر لنا لمَ ظهرت الصهيونية فى شرق أوربا

وليس في غربها أو حتى في الولايات المتحدة، مع أن عدد يهود الولايات المتحدة مع بداية القرن كان آخذاً في التزايد حتى بلغ عدة ملايين قبيل الحرب العالمية الأولى؟ ولماذا ظلت الصهيونية حركة أقلية يهودية من أعضاء الطبقة الوسطى فاشلة في إحراز أية انتصارات على مستوى الاستيطان في فلسطين أو على مستوى التحرك الدبلوماسي في العالم حتى عام ١٩١٧، عام صدور وعد بالفور؟

٣ - تبني النماذج الاختزالية هو تعبير عن كسل عقلي، ولكنها في الوقت ذاته تزيد من هذا الكسل إذ إنها تزود العقل بالإجابات الواحدية الجاهزة إلى أن يصاب العقل بالشلل ونصبح موضوعيين متلقين لكل ما يأتينا من حقائق صلبة دون تساؤل أو إبداع. وقد أشرت في كتابي هجرة اليهود السوفييت (كتاب الهلال، ديسمبر ١٩٩٠) لهذا الوضع الشائن حين كان الإعلام العربي يتحدث عن "جريمة العصر" ويتسابق المحللون في اقتباس الإحصائيات التي تقول إن ملايين اليهود سيهاجرون من الاتحاد السوفييتي (سابقا) إلى فلسطين (بينما كان لايزيد عدد يهود الاتحاد السوفييتي آنذاك على مليون وربع!). وقد بيّنت أن الهجرة لن تزيد بأية حال على ٤٠٠ ألف ثم تعود إلى معدلها الطبيعي بعد ذلك (وهو ما حدث بالفعل) وأن المهاجرين سيسببون مشاكل اجتماعية

واقتصادية فى إسرائيل (وهو ما وقع)، كما نبهت إلى ضرورة دراسة معدلات النزوح وتنبأت بأنها سترتفع (وقد تم الكشف عن أن عدد النازحين آخذ فى التصاعد). وكانت الأطروحة التى صدر عنها الإعلام العربى والباحثون العرب أطروحة اختزالية جامدة : أن اليهود مرتبطون بأرض الميعاد، يتوجهون لها حينما تسنح لهم الفرصة وأنهم حينما يصلون إلى فلسطين فإنهم عادة مايصبحون روادا صهاينة وإضافة بشرية للمستوطن الصهيونى .أما الأبعاد الأخرى والمركبة للظاهرة، مثل أن اليهود فى الاتحاد السوفييتى مواطنون تعرضوا للدعاية الإلحادية لمدة سبعين عاماً ففقدوا علاقتهم بأى عقيدة أو مثُل وتحولوا إلى مرتزقة يأكلون الأخضر واليابس، يذهبون إلى إسرائيل فتعمل نسبة عالية من النساء بالبغاء ، أما الرجال فكثير من المؤهلين منهم لايجد عملا مناسب وتعمل نسبة منهم فى السوق السوداء والحرف الطفيلية، وحينما يحملون السلاح فانهم يحملونه بأجر، ويجلسون على حقائبهم حتى تحين لهم الفرصة للهروب إلى أرض الميعاد الأمريكية، فمثل هذه الأبعاد أكثر تركيباً مما يحتمل العقل الاختزالي، كما أن التوصل لها يتطلب جهداً ووقتاً.

ونقائص النموذج الاختزالي من الناحية العملية عديدة، ولعل أهمها مايلى :

١ - ينسب هذا النموذج إلى اليهود قوة عجائبية ويجعل منهم ظاهرة خرافية من المستحيل ضربها وإلحاق الهزيمة بها. ولذا فالصهاينة يروجون للنموذج التآمرى إذ إن من صالحهم تفخيم دور اليهود عبر التاريخ والمبالغة فى مقدرات الدولة الصهيونية فى كل المجالات، فهذا يكسبهم شرعية غير عادية (فى عالم يؤمن بالنجاح والحلول العملية).

٢ - ويؤدى شيوع هذا النموذج إلى بث الرعب فى قلوب العرب، ويجب أن نتذكر أن كثيراً من الدول الكبرى تبنى أسلحة ولا تستخدمها لمجرد أن تبث الرعب فى قلب أعدائها. بل إنها أحياناً تلوح بمقدرتها على إنتاج سلاح ما دون أن تفعل لتدعم موقفها التفاوضى. واصطلاح « توازن الرعب» يعنى أن توليد الرعب فى قلب العدو هو أحد الأهداف الأساسية فى الحروب ومسألة يُحسب حسابها. والفرضية التآمرية تنجز هذا بالنسبة للصهاينة دون جهد من جانبهم.

٣ - من خصائص النماذج الاختزالية أنه يمكن توظيفها ببساطة فى أى اتجاه، فعملية الاختزال، كما بيّنا، هى عملية فصل الحقائق والوقائع عن سياقها الاجتماعى والتاريخى وفرض أى معنى عليها واستخلاص أى نتائج :

أ) الفرضية التآمرية تفسر، بل وتبرر، الهزيمة العربية إذ إنها تصبح شيئاً مفهوماً تماماً لأنه إذا كان العدو بمثل هذه

المقدرات التى تتجاوز الزمان والمكان، وإذا كان اليهود يحركون العالم فإن هيمنتهم على فلسطين شىء متوقع.

ب) وبعد قليل سيكون بوسع المتلقى الموضوعى أن يستخلص بنفسه النتائج، ويرى أن الواقعية تدعو لقبول العدو وأن الرؤية العلمية تؤيد الاستسلام والإذعان له، فهو عدو لا يقهر، ومن هو هذا الأحمق (المثالى وغير العلمى) الذى يريد أن يضرب برأسه فى الحجر الصلب ؟.

٤ - يبرئ النموذج التآمرى الإمبريالية الغربية والدول الغربية من الجرائم التى ارتكبتها وترتكبها ضد الشعب العربى، فهذه الدول (حسب النموذج التآمرى) إن هى إلا ضحية التآمر اليهودى الأزلى وهى ليست مسئولة عن غرس الجيب الاستيطانى الصهيونى فى المنطقة وتمويله ودعمه وفرضه بقوة السلاح علينا. فالمشروع الصهيونى (حسب النموذج الصهيونى) هو أمر قام به اليهود تعبيراً عن إرادتهم الحرة القومية المستقلة وبجهودهم الذاتية.

٥ - لا تفيد النماذج الاختزالية كثيراً فى عملية الممارسة إذ إن الممارسة تتطلب نموذجاً تحليلياً أكثر تفصيلية وأكثر دقة وتركيبية يزود المجاهد بخريطة للواقع يمكنه من خلالها أن يعرف من هو عدوه ومن هو صديقه، ويفهم بواسطتها العناصر والانقسامات المختلفة فى معسكر العدو ودرجات

العداء ومدى تفاوتها وما هي دوافعه وما هي مواطن ضعفه، وآلاف التفاصيل الأخرى التي تظل بمنأى عن الفرضية التآمرية.

٦ - يتحرك النموذج الاختزالي في إطار تجريبي مادي ضيق فهو يفترض أن المعرفة هي نتاج تراكم براني للمعلومات، وأن دوافع السلوك الإنساني برانية، ولذا تفسر أفكار الإنسان كما يفسر سلوكه في إطار التأثير والتأثر (الخارجي) لا التوليد والإبداع (الداخلي)، ويتم استبعاد احتمال أن تتولد داخل عقل الانسان أنساق ورؤى فكرية تشبه أنساق ورؤى الآخرين دون أن يكون قد تأثر بها أو اطلع عليها (فثمة انسانية مشتركة، وثمة بناء مشترك للعقل البشري يمكن أن يولد أنساقا فكرية متشابهة) . وبما أن النماذج الاختزالية ترى أن الشر واليهود صنوان وأن الواحد لا ينفصل عن الآخر (أي أنها تصبح توليدية ولكنها مع هذا تظل واحدية بسيطة) يتم تفسير الشر باعتباره تأثير اليهود السيىء على شعوب الأرض ويستبعد احتمال وجود الشر في النفس البشرية (وهو ماتؤكده كل الأديان السماوية ولاينكره سوى بعض الحتميين الماديين) ولذا يعجز النموذج الاختزالي عن تفسير ظهور الشر في بلاد لايوجد فيها يهود، فتايلاند عاصمة الاباحية والبغاء في العالم لا يوجد فيها يهود، كما

لا يوجد يهود بين الصرب والكروات الذين يذبحون المسلمين في البوسنة والهرسك .

٧ - وهناك مشكلة أخرى تبين قصور النموذج الاختزالي وهي أنه قد ترتبط ظاهرة ما بوجود اليهود في مكان ما، ولكنها مع هذا تظهر في مكان آخر لا يوجد فيه يهود. ولأضرب مثلاً : يرى البعض أن اليهود يحبون امتصاص دماء الشعوب عن طريق الاشتغال بالربا والتجارة البدائية الطفيلية (التي يشار لها أحياناً «بالتجارة اليهودية») وببعض الحرف التي يحققون منها أرباحاً كثيرة وسريعة، (التي يشار اليها أحيانا «بالحرف اليهودية»). وقد التصق اسم اليهود بهذه الحرف إلى درجة أنه حينما يضطلع الصينيون بدور التاجر والمرابي في جنوب شرق آسيا يطلق عليهم «يهود جنوب شرق آسيا»، والهنود الذين يضطلعون بنفس الدور في أفريقيا (ومن بينهم مسلمون) يسمون «يهود أفريقيا». وفي كتابه المسألة اليهودية يتحدث ماركس عن «تهويد المجتمع»، بمعنى سيادة العلاقات التعاقدية البورجوازية فيه، بمعنى أنه عادل بين اليهودي والبورجوازي. وارتباط اليهودي في عقل الكثيرين بهذا النوع من الحرف هو نتيجة تجربة المجتمعات الغربية، حيث اضطلع اعضاء الجماعات اليهودية فيها وحدهم (تقريبا) بهذه الوظائف. ولكن يلاحظ أنه في بعض المناطق في الدولة

العثمانية كانوا يستخدمون أحياناً كلمة «يونانى» أو «أرمنى» بمعنى شخص يشتغل بالربا والتجارة الطفيلية وبتلك الحرف التى تسمى «يهودية» فى العالم الغربى .

وقد لاحظ د. محمود سمير أحمد فى كتابه **حول العالم** (كتاب الهلال سبتمبر ١٩٩٣) أن كثيراً من المهاجرين العرب فى أمريكا اللاتينية همهم الوحيد هو التجارة وأنهم تعاونوا مع اليهود تعاوناً وثيقاً. ومما يجدر ذكره أن كلاً من اليهود والعرب يسمون لوس توركوس (الأتراك) أى المهاجرون من الدولة العثمانية، أى أنه كما يسمى الصينيون فى جنوب شرق آسيا «يهود» فإن يهود بعض بلاد أمريكا اللاتينية يسمون «أتراك». فهنا أربعة مسميات :(يهودى - أرمنى - يونانى - تركى) تستخدم للإشارة لنفس الوظيفة ولنفس النمط الإنسانى (الإنسان الاقتصادى الهامشى، عضو الجماعة الوظيفية التجارية المالية، الذى لا يكترث بالقيم ويعلى من قيمة الربح المادى). ولذا قد يكون من الأدق والأشمل تحليلياً أن نتحدث عن وظيفة ما، قد يقوم بها اليهودى (فى مكان ما)، وقد يقوم بها شخص آخر (فى مكان آخر). فالوظيفة، لا الجوهر اليهودى، هى التى يجب أن تكون المقولة التحليلية. (وقد طوّرت مفهوم الجماعة الوظيفية والذى طبقته فى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تصنيفى

وتفسيرى جديد - [القاهرة - فبراير ١٩٩٤] لسد هذه الحاجة). وفى هذه الحالة سندرك الواقع بطريقة أكثر تركيبية وحركية. فإن ظهرت ظواهر سلبية في المجتمع تفك نسيجه وتنخر في عظامه (مخدرات - جريمة - تجارة طفيلية - دعارة - عدم انتماء ... إلخ) فلن نبحث عن اليهودى الذى قد يكون غائبا، وإنما سنحلل الظاهرة فى ضوء مفهوم الوظيفة، ثم نرى من يقوم بها، وهو يمكن أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو بوذياً أو شخصاً لا ملة له ولا دين ! أى أن مقدرتنا التحليلية ستتزايد ومقدرتنا على التصدى لمن يحاول تدميرنا ستتحسن.

سابعاً : النماذج المركبة

وهذا الكتاب هو محاولة دراسة كيف يقوم النموذج الاختزالى التآمرى والصهيونى بتجريد أعضاء الجماعات اليهودية واختزالهم إلى عنصر واحد يسمى «اليهود» لا علاقة له بالأنماط أو الوظائف الإنسانية العامة،.عنصر عجائبى قادر على كل شيء تنسج حوله الأساطير فيخافه الإنسان وتخور قواه ويهزم فى المعركة قبل دخول الحرب. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب يتناول أولها النموذج الاختزالى التآمرى (والمعادى لليهود) كما يتبدى فى بعض الأساطير والمفاهيم التآمرية (بروتوكولات حكماء صهيون - البهائية - الماسونية

- تهمة الدم). ويتناول الباب الثانى النموذج الاختزالى الصهيونى (المالى لليهود) كما يتبدى فى بعض الأساطير والمفاهيم الصهيونية (العبقرية اليهودية - حادثة ليوفرانك - حادثة دريفوس - ماساده). أما الباب الثالث فيتناول ما يسمى سيطرة اليهود على الإعلام ونفوذ اللوبى الصهيونى وقوة الصوت اليهودى باعتبارها تجليات حديثة لنفس المفاهيم الاختزالية التبسيطية الأسطورية.

وقد قمنا فى هذه الدراسة بعملية تفكيك وتركيب، كى نصوغ نموذجاً تفسيرياً أكثر تركيبية، واتبعنا الخطوات التالية :

١ - فصل الوقائع والتفاصيل التى تستخدمها النماذج الاختزالية (التآمرية أو الصهيونية) عن هذه النماذج .

٢ - وضع الوقائع والتفاصيل ذاتها فى سياق تاريخى واجتماعى إنسانى واسع، أى استعدنا البعد التاريخى والمنظور المقارن.

٣ - ربط الأجزاء والتفاصيل والحقائق بالكليات التاريخية والاجتماعية.

٤ - ضم وقائع ومعلومات كان قد تم استبعادها من منظور النموذج الأختزالى، وكانت المحصلة النهائية هى

إظهار عجز النموذج الاختزالي عن تفسير كثير من المتغيرات وعناصر الواقع . والبرهنة على مقدرة النموذج المركب على انجاز ماعجز عنه النموذج الاختزالى، إذ اكتسبت الوقائع معنى جديداً وأصبح من الممكن تفسيرها بطريقة أكثر تركيباً وإنسانية . فكثير من الجرائم التى تنسب لليهود لا تنسب لليهود وحدهم، وإنما تنسب لآخرين، وهى لا تنسب لليهود فى كل زمان ومكان وإنما فى زمان محدد ومكان محدد، وهى لا تحدث دون سبب واضح أو لسبب واحد بسيط، وإنما تحدث نتيجة لمركب من الأسباب الاجتماعية والتاريخية والمعنوية. وقد تكشف لنا أن يهودية اليهودى لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة أدت إلى وقوع حدث ما وإلى تشكيل ظاهرة ما. بل وأحياناً نجد انها لم تكن سوى بلورة لعناصر أكثر عمقاً، إذ لا يظهر اليهودى كيهودى وإنما كمرابى أو عميل أو أجنبى أو علمانى أو مهاجر. ولذا فإن الهجوم الذى يتم على اليهود ليس مقصوراً عليهم وإنما هو هجوم موجه ضد كل القوى المماثلة فى المجتمع والتى تضطلع بنفس الوظائف . كما أننا اكتشفنا أن الفساد الذى نسب الى اليهود مرتبط بالوظائف التى يضطلعون بها لا بجوهرهم.

واستخدام النماذج التركيبية له نتائجه العملية والمعرفية والأخلاقية:

١ - تُسقط النماذج التركيبية التفسيرية عن اليهودى عجائبيته وإعجازه وفرادته (التى يصر عليها الصهاينة والمعادون اليهود) وتستعيد له إنسانيته وتركيبيته، ومن ثم نعرفه فى قوته وفى ضعفه الحقيقيين، ونحسن من مقدرتنا على التنبوء بسلوكه .

٢ - أسلفنا القول أن النموذج التركيبى سيساعدنا على التخلص من الربط بين اليهودى وكل الظواهر السلبية فى المجتمع ، الأمر الذى سيوسع من أفقنا ويجعلنا أكثر قدرة على دراسة هذه السلبيات والبحث عن سببها الحقيقى بدلا من البحث الاختزالى عن اليهود. وكثير من الوظائف التى ارتبطت فى أذهاننا باليهود، وباليهود وحدهم (وبسبب الأدبيات العنصرية الغربية) يقوم بها غير اليهود فى أماكن مختلفة وفى فترات أخرى .

٣ - سيساعدنا النموذج التركيبى على إدراك طبيعة العلاقة العميقة والبنيوية بين الدولة الصهيونية والحضارة الغربية والتشكيل الاستعمارى الغربى، ومدى عمق الصراع بيننا وبين العدو الصهيونى ومدى اتساعه.

٤ - إذا استخدمنا النماذج التفسيرية المركبة فإننا نكون قد طبقنا واحدة من أهم تعاليم الإسلام وهو ضرورة الحفاظ

على حقوق الأقليات التى تعيش بيننا (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) إذ ليس من حق أحد إسقاط الحقوق التى أعطاها الله لهم بناء على رؤية حرفية واختزالية حتمية، تهدر حقوقهم حتى قبل أن يولدوا إذ تعتبرهم أشرارا بالوراثة، أى من خلال طبيعتهم المادية لا اختيارهم الأخلاقى، (ونظرية الحقوق الدينية مختلفة فى هذا المضمار عن نظرية الحقوق المدنية التى ترى أن هذه الحقوق ليست مطلقة، فالأمة هى مصدر السلطات وهى التى تمنح وتمنع. وفى حالة الدولة النازية، قررت الدولة الألمانية باعتبارها تجسيداً لإرادة الشعب أن تدمر كل من يقف فى طريق التقدم والتنمية مثل مشوهى الحرب والعجائز وكثير من أعضاء الأقليات مثل الغجر واليهود).

٥ - إذا ما أدركنا المغزى الإنسانى الكامن فى واقعة عنصرية ما يكون الحـزن من أجل الضـحية حزناً إنسـانياً لا يمكن توظيفه فى خدمة عقيدة عنصرية استيطانية كما يحدث فى الوقت الحاضر، إذ إنه إذا سقط اليهودى ضحية العنف والعنصرية فى مجتمعه (الغربى) فإن هذا لا يعنى أن اليهودى هو الضحية الأزلية للعنف، وإنما هو ضحية مجتمعه الغربى العنصرى، والحل الإنسانى الوحيد لهذه المشكلة ليس هو تصدير المشكلة لنا، وإنما أن ينضم اليهودى للجماعات

التى تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية) وأن يناضل من أجل حقوقه داخل مجتمعه. وتصبح القضية هى كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية والدينية (وغيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، مثل الولايات المتحدة واتحاد دول الكومنولث المستقلة (الاتحاد السوفييتى سابقاً) لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل العنصريون من الصهاينة والمتآمرون من بلهاء صهيون.

ويجب أن نتذكر أن اليهودى الذى يفر من بغض أعداء اليهود وحربهم ضده هو ذاته اليهودى الذى يصبح مستوطناً صهيونياً يغتصب الأرض العربية ويتحول، بعد قليل، إلى الجندى الصهيونى الذى نراه على شاشات التليفزيون يقتل الأطفال العرب أو يكسر عظامهم. وقد أدرك الصهاينة ذلك تماماً، ولذا فتاريخهم هو تاريخ التحالف مع أعداء اليهود، بل إن الصهيونية وصفت بأنها تعيش على الكوارث اليهودية. ومن المعروف لدى الدارسين أن الحركة الصهيونية نظمت هجمات (أحياناً مسلحة) على الأفراد والجماعات اليهودية، لترغمهم على الخروج من بلادهم (كما أسلفنا)، ليتحولوا إلى مادة استيطانية وقتالية فى المستوطن الصهيونى. وإشاعات الهجمات على اليهود السوفييت وظاهرة نبش قبور اليهود فى أوربا هى، فى أغلب الظن، من تدبير الحركة الصهيونية. وقد

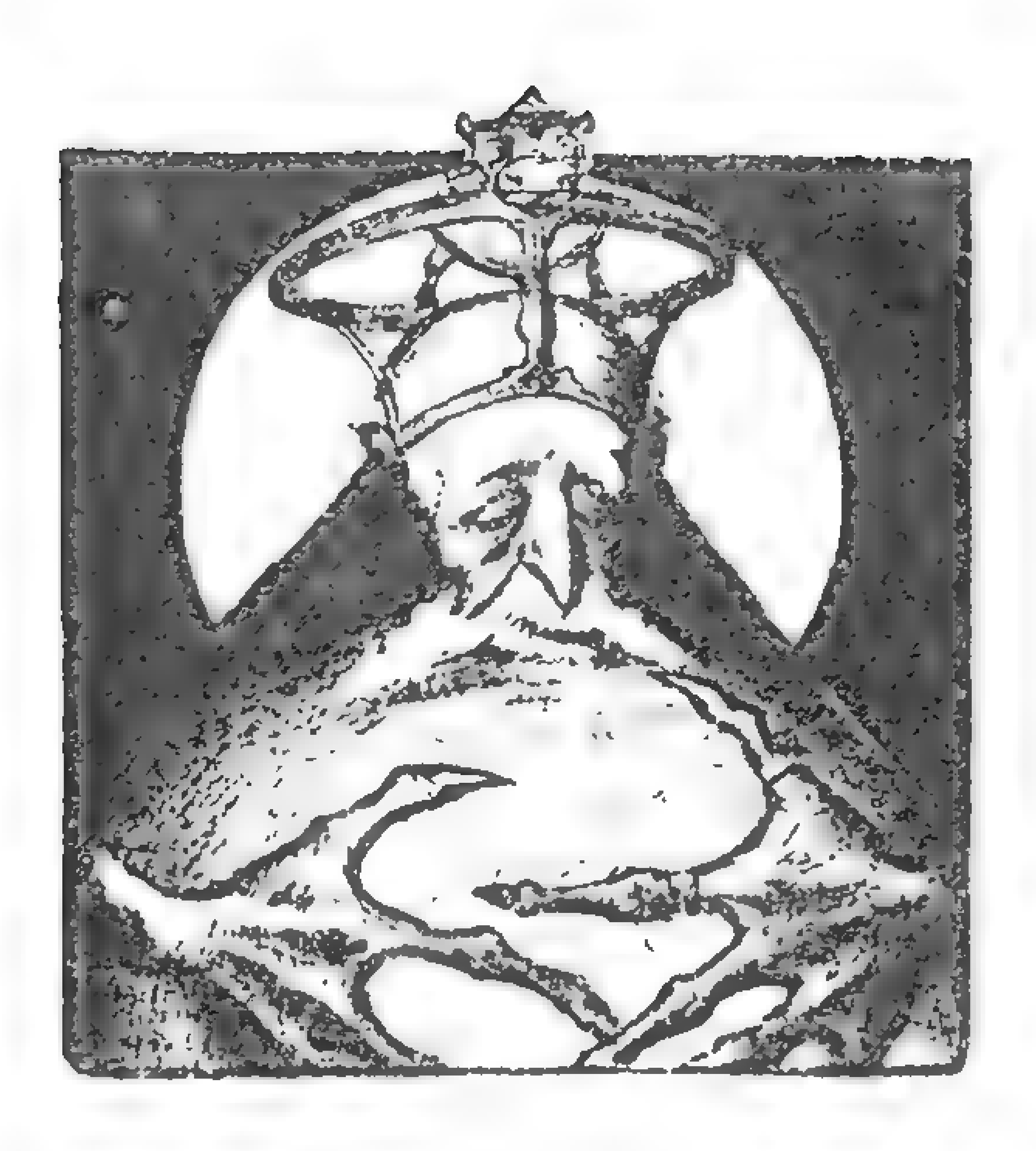
جاء فى أحد تواريخ الصهيونية أنه إذا كان تيودور هرتسل هو ماركس الصهيونية، أى منظرها، فهتلر هو لينين الصهيونية، أى من وضعها موضع التنفيذ، وذلك عن طريق تصعيد اضطهاد اليهود فى أوربا، فهاجرت الآلاف إلى فلسطين، الأمر الذى كانت الحركة الصهيونية قد فشلت تماما فى تحقيقه حتى ذلك التاريخ.

ونحن إذا أدركنا كل هذا، يصبح من الواجب علينا أن نبتعد عن الدهاليز الضيقة المظلمة، وأن نتوقف عن البحث الطفولى الساذج عن اليهودى ذى الأنف المقوس والظهر المحدودب. (الذى لا يوجد إلا فى كتب الكاريكاتير وفى النماذج الاختزالية) ظناً من أننا لو عثرنا عليه وقضينا عليه فإننا سنريح ونستريح. فالصراع مع العدو مركب وطويل، والدولة الصهيونية ليست مؤامرة عالمية بدأت مع بداية الزمان، وإنما هى قاعدة عسكرية واقتصادية وثقافية وسكانية للاستعمار الغربى، والصراع معها إنما هو جزء من المواجهة العامة مع الحضارة الغربية الغازية. والله أعلم .

دمنهور والقاهرة - نوفمبر ١٩٩٣

الباب الأول

النموذج التآمرى



روتشيلد كما تخيله أحد الرسامين
الفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر

الفصل الأول

بروتوكولات حكماء صهيون

من أهم الوثائق التي يتداولها أصحاب النموذج الاختزالي التآمري «بروتوكولات حكماء صهيون». وكلمة «بروتوكول» كلمة إنجليزية تعني «اتفاقية»، و«بروتوكولات حكماء صهيون» وثيقة مشكوك في صحتها، يقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا، أي في نفس العام الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول، بل ويزعم البعض أن تيودور هرتزل تلاها على المؤتمر، وأنها نوقشت فيه، بل وتذهب بعض الآراء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون هذه وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين) لإقامة امبراطورية عالمية

تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس .
وتقع البروتوكولات البالغ عددها أربعة وعشرين في نحو مائة وعشر صفحات ونشرت أول ما نشرت عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو مواطن روسي ادعى أنه تسلم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة (مدام ك) ، ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا . لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرأة أخذتها من رئيس البوليس السرى الروسي في فرنسا ، وأن الأخير هو الذى سرقها من أرشيف المحفل الماسوني . وقد كان لنيلوس اهتمامات صوفية حلولية متطرفة ، كما أنه كان غارقاً في الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية .

وقد لاقت البروتوكولات رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التى أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهودية» إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعية التى اجتاحت كثيراً من البلدان الأوربية إلى اليهود .

وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوربا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس . وبلغت البروتوكولات قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين ، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة من الخلف قام بها اليهود والمشتركون في المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية . وقد أصبحت البروتوكولات من

أكثر الكتب رواجاً في العالم الغربي بعد الإنجيل ، وترجمت إلى معظم لغات العالم الشائعة بما في ذلك العربية حيث ظهرت عدة طبعات منها . وحازت البروتوكولات على اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف والإعلام في العالم العربي ، حيث أشاروا إليها باستحسان كبير وكأنها وثيقة ذات شأن كبير . ولحسن الحظ ، لا يوجد مركز دراسات عربي واحد أعارها أي اهتمام ، ولا يتم نشرها إلا من خلال دور نشر تجارية لا تتمتع بكثير من الاحترام .

والرأى السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة البروتوكولات دراسة علمية متعمقة هو أن البروتوكولات وثيقة مزورة استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان : حوار في الجحيم بين ماكيافيللي ومونتسكيو ، أو السياسة في القرن التاسع عشر ، ونشر في بروكسل عام ١٨٦٤ ، فتحول الحوار إلى مؤتمر وتحول الفيلسوف إلى حكماء صهيون . وقد اكتشفت أوجه الشبه بين الكتيب والبروتوكولات حيث تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور ، وأحياناً تعبيرات مجازية وصوراً منه . والرأى السائد الآن أن نشر البروتوكولات وإشاعتها إنما كان يتم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية، ومن أجل زيادة التفاف الشعب حول القيصر والارستقراطية والكنيسة بتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية .

تحليل الخطاب

وقد قمنا بدراسة سريعة لعناصر الخطاب (الأسلوب والمفردات الخ ..) في البروتوكولات ، فوجدنا أن هناك من الدلائل ما يدعم وجهة النظر القائلة بأنها وثيقة مزيفة :

١ - يلاحظ أن البروتوكولات وثيقة روسية بالدرجة الأولى والأخيرة:

(أ) فكاتب الوثيقة لا يعرف شيئا عن المصطلح الدينى اليهودى ولا يستخدم أى كلمات عبرية أو يديشية . وهناك إشارتان للإله الهندى فشنو ، وإشارة واحدة لأسرة داود . وبطبيعة الحال يمكن إثارة القضية التالية : إذا كانت البروتوكولات وثيقة سرية ، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية أو الآرامية ليضمنوا عدم تسربها ؟

(ب) الموضوعات الأساسية المتواترة فى البروتوكولات موضوعات روسية ، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق وعما يسمى بالارستقراطية الطبيعية الوراثية وهناك هجوم شرس على الليبرالية والاشتراكية ، مما يبين أن اهتمامات الكاتب روسية تماما وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية في السنين الأخيرة من حكم النظام القيصرى .

(جـ) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكية واليسوعية مما

يدل على التربة المسيحية الأرثونكسية السلافية التي كانت تناصب الكاثوليكية العداء.

(د) ثمة هجوم شرس على الماسونية وكانت الماسونية آنذاك جزءا لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية .

(هـ) هناك هجوم شديد على دزرائيلي ، وقد كان شخصية مكروهة تماما من النخبة الحاكمة في روسيا لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل حاجزا منيعا ضد توسع الإمبراطورية الروسية..

٢ – كما أن نبرة البروتوكولات ساذجة للغاية ، فمن الواضح أن كاتبها الذي زيفها لا يجيد التزييف ، فقد حاول أن يبين خطر اليهود على المستوى العالمي . وحتى يعطي وثيقته درجة من المصداقية ، جعل حكماء صهيون (لا أحد سواهم) يتحدثون عن الخطر اليهودي حتى يبدو الأمر كله وكأنه «شهد شاهد من أهلها» ، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء في عملية تزييفه هذه .

(أ) ففي الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ، ينطق حكيم صهيون الأول بالكلمات التالية : «يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددا من ذوي الطبائع النبيلة» ، وهذه ملحوظة تبين الشر المتأصل في صاحبها . ولكن السؤال البديهي الذي يطرح نفس هو : لماذا يصر كبير حكماء صهيون على نقل هذه الآراء إلى حكماء صهيون ؟ أليس كل الحاضرين من الأشرار الذين لا يوجد شبهة في شرهم ؟ ونفس السذاجة تتبدى في

الملاحظة التى ترد بعد عدة صفحات حيث يقول كبير الحكماء : «إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا (ونحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقى بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضرورى ومفيد» . ومرة أخرى لماذا يكلف كبير الحكماء نفسه بتذكير الحاضرين من الحاخامات بمثل هذه البديهيات المتداولة بين الأشرار فى كل زمان ومكان ؟ أم أنه لاحظ بعض علامات الخير بينهم فأراد أن يحذرهم منها ؟ !

(ب) يحاول واضع البروتوكولات أن يضخم اليهود وقوتهم ليخيف الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم فى البروتوكول الثانى كل شر : «نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل». ولكنه ينسى نفسه بعد قليل وتتبدل النبرة إذ يبدأ اليهود فى توجيه الاتهامات لأنفسهم فى نفس البرتوكول الثانى : «من خلال الصحافة اكتسبنا نفوذنا ، وبقينا نحن وراء الستار ، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب ، ولو أن ذلك قد سبب أنهاراً من الدم» . هذه عريضة اتهام موجهة للذات ، فلماذا يكلف كبير الحكماء خاطره ليقدمها لبقية أعضاء المؤتمر الذين يعرفون ذلك مسبقا ؟ ولماذا يصر على أن يخبرهم فى البروتوكول الثالث أن «أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا . ونحن من ذلك الحين نقود الأمم من فشل إلى فشل ، حتى أنهم سوف يتبرأون منا ؟» من يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم

من «فشل إلى فشل» ويصر على أن هذه الحركة ستودى بالبشر أجمعين ؟ ثم يضيف فى البروتوكول التاسع : « إن لنــا طمــوحاً لا يحد ، وشرها لا يشبع ، ونقمة لا ترحم ، وبغضاء لا تحس . إننا مصدر إرهاب بعيد المدى . وإننا نسخر فى خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب » . ثم يتطوع بالتأكيد على ما يلى : لقد خدعنا الجيل الناشىء من الأمميين ، وجعلناه فاسدا متعفنا بما علمناه من مبادىء» . ومن الواضح أنه لم يبق من التزييف سوى ضمير جماعة المتكلمين ، أما الباقى فهى اتهامات موجهة بالتآمر لليهود ، ينسبها كاتبها لهم حتى تبدو كما لو كانت صادقة .

الأفكار الأساسية

ويمكننا الآن أن نعرض للأفكار الأساسية فى البروتوكولات التى تؤكد أن السياسة لا تخضع للأخلاق ، وأن اليهود سينفذون مخططهم الإرهابى عن طريق الغش والخداع فعلى مستوى المجتمع ، سيقومون بتقويض دعائم الأسرة وصلات القرابة ، وبإشاعة الإباحية ، واستغلال الحريات العامة ، وتخريب المؤسسات المسيحية ، وإفساد أخلاق العالم المسيحى الأوربى . أما على مستوى الدولة ، فسيسعون إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تندلع الحروب ، على ألا تؤدى هذه الحروب إلى تعديلات فى حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ، ليتمكن رأس المال

فقط من الخروج بالغنائم . وينبغى التركيز على المنافسة فى المجتمع ، وعلى تصعيد الصراع الطبقى ، ليجرى الجميع نحو الذهب الذى سيحتكره اليهود ، بطبيعة الحال ، وتصاب المؤسسات الدينية والسياسية بالاهتراء ويسود رأس المال كل شىء .

وتهتم البروتوكولات فى المراحل الأولى من المخطط بأن يسيطر اليهود على الصحافة ودور النشر وعلى كافة وسائل الإعلام، حتى لايتسرب إلى الرأى العام العالمى إلا ما يريدونه . كما أنها ترى ضرورة أن يسيطر اليهود على الدول الاستعمارية وأن يسخروها حسب أهوائهم . كما أنهم سيسيطرون أيضا ، بطبيعة الحال ، على الدول الاشتراكية المعادية للاستعمار . والبروتوكولات تجعل اليهود مسئولين عن كل شىء : عن الخير والشر ، وعن الثورة والثورة المضادة ، وعن الاشتراكية والرأسمالية . فالبرتوكول السادس ، مثلا ، يقول : « كي نخرب (أى نحن اليهود) صناعة الأغيار ، سنزيد من أجور العمال (اتجاهات اشتراكية) ونعرض الصناعة للخراب والعمال للفوضى (اتجاهات فوضوية) » .

واليهود مسئولون أيضاً عن انتشار كافة الأفكار الحديثة ، اليمينية منها واليسارية . فالبروتوكول الثانى يقول : «إن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل ، وسوف يكون الأثر غير الأخلاقى لهذه العلوم على غير اليهود واضحاً ، ولكن ينبغى علينا أن ندرس أثر ذلك على أخلاق الأمم والجماعات» .

ومن الواضح أن البروتوكولات ليست نقداً لليهود بمقدار ما هي تعبير عن إحساس الإنسان الأوربي في أواخر القرن التاسع عشر بأزمته ، وبقدر ما هي تعبير عن إدراكه السطحي المباشر لها بعد تزايد معدلات العلمنة في الغرب وبعد تفكك المجتمع التقليدي الذي كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة ، حتى وإن سلبه حريته وفرصه في الحراك الاقتصادي . فالمجتمع الذي يحاول اليهود فرضه على العالم ، حسبما جاء في البروتوكولات ، ليس عالماً شريراً بشكل شيطاني ميتافيزيقي ، وإنما هو في الواقع العالم الغربي الصناعي الذي سادت فيه قيم العلمانية والنفعية . ومن هنا، كان الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية باعتبارهما نظامين يبشر بهما اليهود ، كما كان الجمع بين نيتشة وماركس باعتبارهما فيلسوفين يبشر اليهود بفكرهما . فبرغم الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين والاختلاف بين الفيلسوفين، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو نقطة التلاقي) هو تأسيس مجتمع علماني يستند إلى قيمتي المنفعة واللذة لا إلى القيم الدينية الأخلاقية المطلقة .

وقد وُجد أعضاء الجماعات اليهودية في مختلف القطاعات والاتجاهات ، شأنهم في ذلك شأن أعضاء أي أقلية أخرى ، فكان يوجد أعداد كبيرة من كبار الممولين الرأسماليين اليهود ، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة

وأوربا ، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل والرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وأكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً . بل ونجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية (غير الصهيونية) كما حدث في جنوب أفريقيا (في صناعة التعدين) ، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية ، أو في شركة قناة بنما . وتركز بعض أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء كقوادين وعاهرات ، كما تركزوا في المجلات الإباحية . قد ربط هذا بين اليهودي من جهة وبين «اليمين» و«التحلل الرأسمالي» و«التفكك الليبرالي» من جهة أخرى .

ولكن إلى جانب ذلك ، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً : فقد كان أكبر حزب اشتراكي في أوربا هو حزب البوند اليهودي . وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات الثورية ، حتى أن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسيا القيصرية كانوا من الشباب اليهودي . وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩ ، كان رئيس الدولة يهودياً ، وكان عدد اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدهشة ، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي . كما أنه كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي . وفي نهاية الأمر ،، كان هناك روتشيلد رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية ، وكان هناك ماركس رمزاً

للارتباط العضوى أيضاً بين اليهود والاشتراكية . ولذا ، كان من الممكن تفسير كل شيء بالرجوع إلى مقولة «يد اليهود الخفية» .

والواقع أن ما ساعد على إشاعة هذا النموذج التفسيرى الساذج هو أن الوجدان المسيحى كان يجعل من اليهودى قاتل الرب رمزاً لكل الشرور . وقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر عصر الهجرة اليهودية الكبرى . ولذا ، كان هناك يهود فى كل مكان، يهود لا جذور لهم فى طريقهم من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة ، وكما هو معروف فإن الإنسان المهاجر المتنقل لا يلتزم بكثير من القيم لكل هذا ، أصبح اليهودى رمزاً متعيناً لعملية ضخمة لم يكن الإنسان الأوربى يفهمها جيداً رغم شقائه الناجم عنها ، وهى الثورة العلمانية الكبرى (بشقيها الاشتراكى والرأسمالى) ، وهى ثورة لم يكن يشكل فيها اليهودى سوى جزء بسيط من كل ضخم مركب . بل إن العقيدة اليهودية ذاتها سقطت ضحية لهذه الثورة ، وفقدت قطاعات كبيرة من الجماعات اليهودية هويتها نتيجة لها .

والفكرة الأساسية فى البروتوكولات هى فكرة الحكومة اليهودية العالمية . لكن المعروف تاريخياً أنه لم يكن هناك سلطة مركزية تجمع كافة يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد بختنصر عام ٥٨٦ق.م وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودى فى العالم حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومى ، وقد

كان لكل أقلية محاكمها وهيئاتها الخاصة التي تقوم برعاية شئونها . ولكن اليهود لا يختلفون في هذا عن أى أقلية دينية أو جماعة وظيفية أخرى .

وهنا ، يمكن أن نثير قضية مهمة هي قضية الوسائل · هل تشكل الجماعات اليهودية في العالم من القوة ما يمكنها من تنفيذ هذا المخطط الإرهابي العالمي الضخم ؟ إن الدارس لتواريخ الجماعات اليهودية يعرف أنها كانت دائماً قريبة من النخبة الحاكمة لا بسبب سطوتها أو سلطانها وإنما بسبب كونها أداة في يدها ولأنها لم تكن قط صاحبة قوة مستقلة أو قرار مستقل .

والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها في الإعلام المضادة للصهيونية أمر غير أخلاقي لأنها وثيقة مزورة ، ولا توجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة . ولكن ، وحتى ولو كانت البروتوكولات وثيقة صحيحة، فإن من يستخدمها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأى العام الغربي الذى لا يؤمن بصحتها . كما أنه لايمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً حقيقياً عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، أو أنهم يأخذون بها كوثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم . وبسبب السمعة الشائنة للبروتوكولات فإن الصهاينة يصفون أى نقد موجه إليهم بأنه وقوع في أحابيل البروتوكولات . ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء

الجماعات اليهودية تحتوى على آراء أكثر تآمرية من البروتوكولات مثل ما يسمى كتاب التربية الذى يوزع فى إسرائيل فى الوقت الحالى كما يحوى التلمود وتراث القبالاه ، وهى كتابات يهودية لاشك فى يهوديتها ، مقطوعات عنصرية إلى أقصى درجة ، ولكن يبدو أن المروجين للبروتوكولات لا يعرفون عنها شيئاً ، وعلى كل فهى كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهودية شيئا وإنما لا يتداولها فى الغالب إلا بعض العنصريين الموجودين فى كل المجتمعات وبين أتباع كل العقائد .

وثمة رأى بأن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه البروتوكولات لأنها تخدم المشروع الصهيونى الذى يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتهجير والتوطين فى فلسطين المحتلة . كما أن كثيرا من الافتراضات الكامنة فى البروتوكولات ، مثل : «الشعب اليهودى» و«الشخصية اليهودية» و «المصالح اليهودية» هى كلها افتراضات صهيونية أساسية والهجوم عليها هو فى واقع الأمر تسليم غير مباشر بوجودها .

وسواء أكان هذا الرأى الأخير صحيحاً أم كان كاذباً ، فإن ترويج البرتوكولات يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العملية . ويتم الآن فى العالم العربى تداول كم هائل من الكتابات (مثل أحجار على رقعة الشطرنج وغيرها) كل هدفها إشاعة الخوف من

اليهود والصهيونية بتبنى رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجائبية . ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة في العالم العربي في الترويج لهذه البروتوكولات لتبرير العجز العربي والتخاذل أمام العدو الصهيوني وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية أن اليهود بشر وأنه يمكن إلحاق الأذى بهم وهزيمتهم ، وأنهم قد يهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة ، ثم يفرون كالدجاج حينما يدركون مدى قوته وإصراره . والاستمرار في إشاعة الرؤية البروتوكولية هو نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيوني والتنكر لإنجازات الانتفاضة

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه أن يوجه الاتهام إلى أى إنسان جزافاً وبدون قرائن ، كما لايمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد باعتباره تجسداً لفكرة إذ يظل كل إنسان مسئولا عن أفعاله . وقد عرّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات « خاصة من أهل الكتاب » فحدد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وهي حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها . وفي الواقع ، فإن استخدام البروتوكولات لاتهام اليهود فيه سقوط في العنصـرية والعـرقية التي تصنف الناس لا على أسـاس أفـعالهم وإنما على أساس مادى لا ديني مسـبق وحتمي ولذا فهي لا تميز بين ما هو خير وما هو شر .



مقبرة سيدنا علي محمد ، مؤسس
البهائية ، على جبل الكرمل (حيفا)

الفصل الثانى

البهـــــائية

يرى بعض أصحاب النموذج الاختزالي التآمرى أن أحد شواهد اشتراك اليهود في المؤامرة اليهودية الكبرى هو ارتباطهم البهائية والماسونية ونوادى الروتارى . وسنحاول في هذا الفصل (الذى يليه) أن نبين علاقة اليهود واليهودية بالبهائية والماسونية .

والبهائية عقيدة جديدة دعا إليها ميرزا حسين على نورى (١٨١٧ - ١٨٩٢) الذى كان يلقب «بهاء الله» وتعود جذور هذه العقيدة إلى البابية التى أسست عام ١٨٤٤ على يد ميرزا على محمد الشيرازى الذى نشأ في وسط باطنى حلولى متصوف ، والذى أعلن أنه الباب (الطريق إلى الله) . وذهبت البابية إلى أن ثمة نبياً أو رسولاً جديداً سيرسله الإله . وكانت البهائية في بداية أمرها شكلاً متطرفاً من أشكال عقيدة الفرقة الإسماعيلية ، ومن عقيدة الإمام الخفى الذى سيظهر ليجدد العقيدة ويقود المؤمنين .

وقد انتشرت البابية على رغم من تنفيذ حكم الإعدام في الباب عام ١٨٥٠ وقتل ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه . وقد

قام البابيون بمحاولة اغتيال الشاه ، فنفى قائدهم آنذاك ميرزا حسين علي إلى بغداد عام ١٨٥٣ . وفى عام ١٨٦٣ ، أعلن أنه رسول الله الذى تنبأ به الباب ، وقد أعلن عن رسالته بخطابات أرسلها إلى حكام كل من : إيران وتركيا وروسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا . واعترف به أغلبية البابيين الذى أصبحوا يسمون البهائيين . وقد نفى ميرزا حسين إلى عكا فى فلسطين . وقد توفى فى عام ١٨٩٢ وتحول قبره فى البهجي (أى الحديقة بالفارسية) إلى أقدس مزارات البهائيين ، وخلفه فى قيادة الجماعة البهائية أكبر أبنائه عباس أفندى الذى سمى عبدالبهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١) ، والذى أصبح كذلك المفسر المعتمد لتعاليمه. وقد سافر عبدالبهاء إلى عدة بلاد لينشر تعاليم الدين الجديد من عام ١٩١٠ إلى عام ١٩١٣ وعين أكبر أحفاده شوجى أفندى ربانى (١٨٩٦ - ١٩٥٧) خليفة له ومفسراً لتعاليمه . وقد انتشرت تعاليم البهائية فى أنحاء العالم .

وكتب البهائية المقدسة هى كتابات بهاء الله التى كتبت بالعربية والفارسية ، مضافا إليها التفسيرات التى وضعها عبدالبهاء وشوجى أفندى . وتتضمن هذه الكتابات التى تزيد على المائة ، منها الكتاب الأقدس الذى يحوى كل مفاهيم مذهبه وكل تشريعاته ، وكتاب الإيقان ، وهو دراسة عن طبيعة الخالق والدين ومجموعة الألواح المباركة والإشراقات والبشارات وكتاب الأساس الأعظم وله قصيدة أسماها ورقائية.

وحدة الوجود

وجوهر البهائية هو الإيمان بالحلول الكامل أو بوحدة الوجود أى توحد الخالق بمخلوقاته . فالخالق هو جوهر واحد ليس له أسماء ولا صفات يمكن أن تصفه ولا أفعال ولا يمكن الوصول إليه (ولا توجد أدلة على وجوده أو غيابه مثل الإله الخفى فى الفكر لقبالى أو الباطنى الغنوصى) . وهو إلى حد ما يشبه القوانين الطبيعية غير الشخصية التى لا علاقة لها بالأنساق الأخلاقية (كما هو الحال مع مفهوم الإله عند إسبينوزا). والخالق واحد ليس له شريك فى القوة والقدرة وهو الذى خلق الكون ولكن هذا الكون ليس شيئًا آخر سوى تجل للخالق ، بل إنه هو ذاته الخالق (أى أن الخالق ومخلوقاته مادة واحدة لا تنفصل ولا تتجزأ) وقد لخصت هذه الحلولية فى القول البهائى الذى ينسب إلى الخالق : «الحق يا مخلوقاتى أنكم أنا» . والبهائية ، فى هذا لا تختلف كثيرا عن غلاة المتصوفة والباطنية ولا عن الفكر القبالى والغنوصى ، حيث لاتوجد أى مسافة أو ثغرة بين الخالق والمخلوق ، بل ثمة اتحاد وحلول وواحدية (على خلاف التصور الإسلامى للخالق الذى يرى أن الله قريب من عباده ولكنه ليس كمثله شىء ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ولكنه لا يجرى فى عروقنا ولا تدركه الأبصار) .

ولكن ، إذا كان الخالق هو مخلوقاته فإن كل الأشياء يحل فيها الخالق وتلفحها لفحة من القداسة . والحقيقة المطلقة تعبر عن نفسها من خلال الزمان وداخله ، ولا يختلف تجلى الرب فى أى شئ عن تجليه فى أى شئ آخر فتصبح كل الأمور مقدسة ومن ثم تصبح كل الأمور متساوية ، وفى نهاية الأمر تصبح كل الأمور نسبية ، أى أن المطلق المتجاوز يختفى فى لحظة التحام الخالق بالمخلوق . وقد شاء الخالق (وإن كان يصعب فى هذا السياق أن نتحدث عن «مشيئة الخالق» فهو لا يتجاوز مخلوقاته) أن يتجلى من خلال رسله، مثل : براهما وبوذا وزرادشت وكونفوشيوس وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (عليه الصلاة والسلام) . وتضم القائمة الباب ثم بهاء الله الذى تظهر من خلاله صفات الخالق بشكل أوضح وأجلى مما كانت عليه . بل إنه داخل الإطار الحلولى يكون بهاء الله هو ذاته الخالق ، ومن ثم وجه البهائيون سهام نقدهم إلى الفكرة الإسلامية الخاصة بأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم المرسلين . ففى رأيهم أن كل عصر يحتاج إلى تجل إلهى. وثمة تشابه عميق هنا بين بنية البهائية واليهودية الحاخامية ، فكلتاهما تؤكد استمرارية الوحى الإلهى فى التاريخ الإنسانى أو استمرارية الحلول الإلهى فى الحاخامات حسب النسق اليهودى ، وفى بهاء الله حسب النسق البهائى ، وهو تشابه ستلاحظه فى جوانب أخرى

من النسقين الدينيين كما يلاحظ أن هذا التشابه يزداد عمقاً بين البهائية والقبالاه* . ومن المنظور البهائي ، فإن جوهر كافة الأديان واحد . ومع هذا ، فإن كل دين له سماته الخاصة التي تجيب حاجة كل زمان ومكان وتتفق مع المستوى الحضاري السائد فيه ، وحيث إن الخالق يكشف عن نفسه بشكل تدريجي ، فإن كل دين سيحل محله دين آخر ، بما في ذلك العقيدة البهائية ذاتها - ولكن ذلك لن يتم قبل ألف عام .

ولكن مهمة الأديان في هذا السياق هي خلق وحدة شاملة بين البشر تزداد اتساعا مع مرور الزمن . فإبراهيم قام بتوحيد قبيلة ، وموسى قام بتوحيد شعب ، ومحمد (ﷺ) قام بتوحيد أمة ، أما المسيح فكان هدفه تطهير الأرواح وتحقيق قداسة الفرد ، وقد تحققت بالفعل مهمة كل تجل إلهي . ولكن هذا لايكفي إذ إن الحضارة - في هذا التصور - وصلت إلى مرحلة أصبحت معها وحدة الإنسان (وبالتالي وحدة الأديان) مسألة ضرورية ، وهذه هي مهمة بهاء الله الذي ستتحقق على يديه وحدة الأديان وقداسة البشرية بأجمعها . وخالق العالم قد خلق الإنسان من خلال حبه له ، والإنسان هو أنبل المخلوقات جميعاً خلقه الإله ليعرفه ويعبده . وهذا أمر صعب فهمه في إطار حلولي ، فالخالق هو المخلوق ، ومن ثم فإن عبد المخلوق الخالق فإنه يعبد نفسه أو يعبد قوة خفية لا يمكن

---

* التراث الصوفي اليهودي الذي يتسم بحلوليته الكاملة .

الوصول إليها تشبه قوانين الطبيعة .وثمة تذبذب حاد ومتطرف هنا، بين الذاتية المتطرفة والموضوعية المتطرفة ، تسم كافة الأنساق الحلولية الواحدية . ففى اليهودية نجد أن الشعب يتوحد تماما بالخالق ومن ثم تصبح إرادة الشعب من إرادة الخالق . بل إن الخالق يحتاج إلى الشعب لتكامله ، ولكن هذا الشعب لا إرادة له لأنه أداة فى يد الخالق.

ويميز البهائيون بين خمسة أنواع من الأرواح : الحيوانية ، والنباتية ، والبشرية وهذه كلها أوراح زائلة فانية ، (ولذا يذهب بعض دارسى البهائية إلى القول بأنها لا تؤمن بخلود الروح) ، وروح الإيمان وهى وحدها التى تمنح الروح البشرية الخلود ، ثم أخيرا الروح ألقدس وهى منطقة الحلول الكامل ووحدة الوجود حيث يصبح الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً (وهذه الهرمية لا تختلف كثيراً عن هرمية المنظومة الغنوصية والقبالية) . ويبدو أن الروح البشرية . كالخالق ، ليس لها حدود واضحة ، إذ إن هذه الروح بعد أن تنفصل عن الجسد قد تحل فى شخص أخر وتأخذ شكلاً أخر من الوجود . والواقع أن فكرة تناسخ الأرواح سمة أساسية فى مختلف الأنساق الحلولية التى تنكر حدود الفرد وتنكر المسئولية الخلقية تماما ، كما هو الحال فى القبالاه .

بعض العقائد والشعائر

ولا يؤمن البهائيون بالجنة والنار ، فهما مجرد رموز لعلاقة الروح بالخالق ليس إلا ، فالقرب من الخالق هو الجنة والبعد عنه هو النار التي تؤدى إلى الفناء الكامل للروح . لكن الإيمان ، في تصورهم كما أسلفنا ، هو الذي يضمن الخلود ، والخلود هو عبارة عن استمرار الرحلة نحو جوهر الخالق الخفي للاتحاد به . وفي داخل هذا النسق الحلولي ، لا يمكن أن يكون هناك مجال للثواب أو العقاب أو البعث . ولا يوجد في البهائية كهنة أو قرابين ، فهم يشكلون ما يمكن تسميته بالثيوقراطية الديمقراطية والتي تتمثل في هيئتين حاكمتين : إحداهما إدارية والأخرى تعليمية . أما الهيئة الإدارية ، فهي تتكون من المجالس الروحية القومية ، والمجالس المحلية التي تتكون من تسعة أشخاص (والتي يمكن تأسيسها أينما وجد تسعة بهائيين) وبيت العدل العمومي (وهو الهيئة العليا ولها سلطة تغيير كافة القوانين حينما تدعو إلى ذلك التغيرات الدنيوية ، فيمكنها أن تلغي القوانين التي وردت في كتاب الأقدس وأن تصوغ قوانين جديدة لم ترد فيه) . ثم هناك الهيئة التعليمية (وهي الأخرى مكونة من بناء هرمي من المجالس والقادة) . ويتم انتخاب أعضاء المجالس الإدارية عن طريق الأعضاء ، ويعتبر الانتخاب شكلاً من أشكال العبادة وما الناخب سوى أداة الخالق ، ومن ثم لايكون العضو المنتخب مسئولا أمام ناخبيه .

ويصلى البهائيون يومياً (قبلتهم القدس) وبرغم أنه يفترض عدم وجود أماكن عامة للعبادة ، فإن كتاب الأقدس قد أوصى بتشييد معابد تسمى «مشرق الأذكار» وهو بناء من تسعة جوانب عليه قبة مكونة من تسعة أقسام وهى مفتوحة لكل أعضاء الديانات الأخرى . ويصوم البهائيون شهراً بهائياً (١٩يوما) كصيام المسلمين (ينتهي بعيد النيروز) ولا يشربون المشروبات الروحية ويجتمعون فى بداية كل شهر بهائى ولهم قوانين خاصة بالميراث ، فالمعلم يرث جزءا من ثروة البهائى، ويتساوى الرجل بالمرأة فى كل شىء . وقد جعلوا الحج إلى مقام بهاء الله في عكا . والتقويم البهائي يتكون من تسعة عشر شهراً ، والشهر يتكون من تسعة عشر يوماً ، ويبدأ العام البهائي في ٢١ مارس أول أيام الربيع . ومن ناحية أخرى فإن التقويم البهائي يشبه التقويم الفارسى .

ويحتل الرقم ١٩ مكانة خاصة فى الفكر البهائى ، والبهائية، فى هذا ، تشبه تراث القبالاه والجماتريا الذى ركز على القيمة العددية للحروف ، فتحسب القيمة الرقمية للكلمات وتستخلص منها النتائج التى يريد أن يصل إليها المفسر (وهذه سمة متكررة أيضاً فى الأنساق الحلولية التى تدرك الكون من خلال نسق هندسى حتمى) فيقول البهائيون : إن عدد حروف البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ١٩ ، وأن كلمة (واحد) قيمتها العددية ١٩ (و= ٦، والألف =

١ ،ج =٨هـ =٤) ويستخرج البهائيون من الرقم ١٩ براهين ودلائل على أشياء عديدة .

ويصعب حساب عدد البهائيين في العالم ، ويقال إنه بين مليون ونصف .. ومليونين ، وكان يوجد عام ١٩٨٥ نحو ١٤٣ مجلساً روحيا قومياً يتبعها ٢٧٫٨٨٦ مجلساً محلياً في ٣٤٠ بلدة مختلفة . وترجمت تعاليم البهائية إلى أكثر من ٧٠٠ لغة . وفي هذه الأيام تحقق العقيدة البهائية انتشاراً سريعاً في أفريقيا والهند وفيتنام حيث يصل عدد البهائيين إلى مئات الألوف . ويتحول عدد كبير من الهنود وسكان أمريكا اللاتينية الأصليين إلى البهائية. ففي بيرو وبوليفيا ، على سبيل المثال ، توجد قرى بأكملها بهائية ، وقد اعتنق ملك سموا Samoa العقيدة البهائية ويمكن تفسير انتشار البهائية باعتباره تعبيراً عن ضعف كثير من الأطر الدينية التقليدية، وتعبيرا عن تزايد معدلات العلمانية ، إذ تؤدي هذه العملية إلى أن قطاعات كبيرة من المجتمع تفقد الإيمان بعقيدتها التقليدية ، ولكنها لا يمكنها التخلي عن الدين تماماً أو عن فكرة الخالق . والواقع أن رغبتهم العامة للإيمان تشبعها هذه العقيدة التي تستخدم الخطاب الديني دون إشارة إلى عقيدة محددة أو طقوس محددة ، وهو عادة خطاب حلولي واحدي يصفي كل الثنائيات وأشكال التنوع إذ يتم اختزال الواقع إلى مستوى واحد ويتم رده إلى مبدأ واحد ، وهو الإله الحال الذي لا يختلف عن قوانين المادة الكامنة فيها ، ومن ثم

فهو خطاب دينى اسماً ولكنه مادى فعلاً ، إذ إن الخالق يصبح مخلوقاته أو يصبح قوة عامة مجردة غير شخصية مثل قوانين الطبيعة ، وفكرة التقدم . والبهائية فى هذا ، تشبه الربوبية والماسونية واليهودية التجديدية . وعند نشوب الثورة الإسلامية فى إيران ، كان يوجد ٣٠٠ ألف بهائى فى إيران يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والمال والأمن ، واستفاد نظام الشاه من وجودهم . وقد تعاون البهائيون مع الأسرائيليين وهم يديرون مؤسسة الأمن فى إيران ، وكانت لهم نشاطات أخرى . وقد حرم نشاطهم بعد قيام الثورة فى إيران .

البهائية واليهودية

أما بخصوص علاقة البهائية بالعقيدة والجماعات اليهودية ، فقد بينا أن ثمة تماثلا بنيويا بين البهائية واليهودية فى جانبها الحلولى . ولعل هذا هو السر فى أن البهائية تجتذب كثيراً من اليهود . ففى إيران ، مهد العقيدة تبنى كثير من أعضاء الجماعة اليهودية البهائية ، مما جعل الحاخامات يحاربون ضدها بشراسة . وهذا هو موقف اليهودية الأرثوذكسية منها . وينطبق نفس الوضع فى الوقت الحالى على يهود الولايات المتحدة (الذين يتجهون أيضاً إلى الماسونية والعقائد الجديدة والغنوصية بأعداد كبيرة) .

والاحصائيات غير متوافرة ، ولكن من المعروف أن البهائية أصبح لها أتباع كثيرون في منطقة مثل كاليفورنيا المعروفة بوجود كثافة يهودية عالية فيها) . ويناصب اليهود الأرثوذكس البهائية العداء . والأمر ليس مؤامرة بهائية ضد اليهودية ولا تحالفاً سرياً بهائياً ، وإنما هو تشابك بين نسقين عقيديين يستجيبان لنفس الاحتياجات ويجيبان عن نفس الأسئلة بنفس الطريقة السهلة . ومما يسهل عملية اعتناق اليهود للبهائية أن ثمة تعاطفاً يسرى في العقيدة البهائية نحو اليهودية والدولة الصهيونية . فقد كان عباس أفندى يرى أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد ، ولكنه كان يرى أيضا أن النجاح الذى بدأ اليهود فى فلسطين يحققونه فى عهده دليل على عظمة بهاء الله وعلى عظمة دورته الإلهية ، وفى كتاب المفاوضات ورد ما يلي : « أنت تلاحظ وترى أن طوائف اليهود يأتون إلى الأرض المقدسة من أطراف العالم ، ويمتلكون القرى والأراضى ويسكنون ويزدادون يوماً بعد يوم حتى تصبح جميع أراضى فلسطين سكنا لهؤلاء » وهو بذلك قد أخذ العقيدة الألفية البروتستانتية وأعطاها بعداً بهائياً .

وفى ٣٠ يونيو ١٩٤٨ ، كتب أشوجي أفندي رباني ، زعيم الحركة البهائية آنئذ ، إلى بن جوريون يعبر عن ولائه وأطيب تمنياته من أجل رفاهية الدولة الجديدة مشيراً إلى أهمية تجمع اليهود فى «مهد عقيدتهم» . ومن المعروف أن مركز البهائية هو «بيت العدل»

الذى أعدت له بناية ضخمة فى حيفا على جبل الكرمل فى أبريل ١٩٨٣ ، والذى يديره تسعة بهائيين يتم انتخابهم . وقد قامت الجماعة البهائية بإعداد قصر ضخم فى حيفا حتى يكون مزاراً لكل بهائيى العالم .

ولكن هذا لايعنى بتاتاً أن كل البهائيين يؤيدون الصهيونية وإسرائيل . فالجماعات البهائية تدين بنفس العقيدة ، ولكن اتجاهاتها السياسية تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية . وما ينطبق على البهائية ينطبق على كافة الأديان فيوجد مثلا مسيحيون صهيونيون فى أوربا يؤيدون إسرائيل وترى بعض الفرق المسيحية الصهيونية فى أمريكا أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى صهيون . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن البهائيين العرب يؤكدون أنهم يدينون بالولاء إلى وطنهم العربى وحسب وقد يكون فى هذا بعض الصدق ، أو لعله من باب التقية (بمعنى الإيمان بشىء وإظهار شىء آخر) . والأمر مازال مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين .



الفصل الثالث

الماســــونية

ارتبطت فكرة المؤامرة اليهودية منذ القرن الثامن عشر بالماسونيين والماسونية . وتذكر بروتوكولات حكماء صهيون أن اليهود والماسونيين ، سيقومون بتخريب العالم . فأين الحقيقة وأين الوهم في هذه المقولة ؟

كلمة «ماسونية» من الكلمة الإنجليزية «ميسون» Mason التي تكتب في العربية خطأ «ماسون» لكن الخطأ شاع ، ولا حيلة لنا من اعتماده ومسايرته وهي تعني «البناء» ، ثم تضاف كلمة «فري» Free بمعنى «حر» وتعني «البناء الحر» . وقد اختلف المفسرون في تعريف أصل كلمة «حر» فيقال: إنها نسبة إلى «فري ستون» Free Stone ، أي «الحجر السلس» وقد ورد في مخطوطات العصور الوسطى اللاتينية عبارة «سكلبتور لابيدوم ليبيروروم Sculptor Lapidum Liberorum ، أي ناحت الأحجار الحرة . ولكن بعض التفسيرات تذهب إلى أن كلمة «حر» تجيء لتمييز الـ «فري ميسون» ، أي «البناء الماهر» ، في مقابل الـ «راف أو رو ميسون» Rough orraw mason ، أي «البناء الخام غير المدرب .

وثمة رأى ثالث يذهب إلى أن الـ « الفري ميسون » هو عضو فى نقابة البنائين ، ولذا فهو «حر» أى أن من حقه ممارسة مهنته في البلدية التى يتبعها بعد أن يكون قد تلقى التدريب اللازم . ويذهب رأى رابع إلى أن كلمة «فرى» إنما تشير إلى أن البنائين لم يكونوا ملزمين بالاستقرار فى إقطاعية أو بلدية بعينها والارتباط بها ، وإنما كانوا أحراراً فى الانتقال من مكان إلى آخر داخل المجتمع الإقطاعي . وإن صدق هذا التفسير ، فهذا يعني أن البنائين كانوا مثل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب والذين كانوا يعدون عنصراً حراً يمكنه الانتقال من بلد إلى آخر . وقد كان هذا حقاً مقصوراً على الفرسان ورجال الدين .

مشكلة التعريف

وتعرف الماسونية بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التى تمارس هذه التعاليم ، والتى تضم البنائين الأحرار والبنائين المقبولين أو المنتسبين ، أى الأعضاء الذين لا يمارسون حرفة البناء .

وبعد أن أوردنا هذا التعريف الشائع ، فإننا سنكتشف في التو أنه تعريف غير كاف البتة ، إذ إن الماسونية ، مثل اليهودية تركيب تراكمي جيولوجي مر بمراحل عدة فأصبحت عناصره تشبه الطبقات الجيولوجية التى تتراكم الواحدة فوق الأخرى دون أى

تفاعل أو تمازج . وبرغم اختلاف الطبقات ، فإنها تظل متعايشة ومتجاورة ومتزامنة داخل نفس الإطار . ومن ثم ، فبرغم أنه توجد كلمة واحدة أو دال واحد هو «الماسونية» يشير إلى ظاهرة واحدة ، فإن الماسونية في واقع الأمر هي عدة أنساق فكرية وتنظيمية مختلفة تماماً ، لا تنتظمها وحدة . ومشكلة التعريف ، أي تعريف ، أنه يستخـــدم صيغة المفرد ، ومن ثم يفترض وحدة وتجانساً حيث لا وحدة ولا تجانس ، ويفترض وجود مدلول واحد للدال . وقد قيل في محاولة التوصل إلى حد أدنى مشترك بين كل الماسونيات أنه توجد ثلاثة عناصر تميزها ، وأول هذه العناصر هو وجود مراتب ثلاث أساسية يقال لها درجات ، وهي :

(أ) التلميذ أو الصبي (الملتحق) .

(ب) زميل المهنة أو الصنعة (الرفيق) .

(جـ) البناء الأعظم أو الأستاذ (بمعنى أستاذ في الصنعة) .

وقد أضيف إلى هذه الدرجات الثلاث الأساسية درجة رابعة أخرى أساسية هي القوس المقدس الأعظم ، ثم هناك ما يقرب من ثلاث وثلاثين درجة أخرى في كثير من المحافل ، ويصل أحياناً عدد الدرجات إلى بضعة آلاف .

أما العنصر الثاني ، فهو الإيمان بالحرية والمساواة

والإنسانية . ولكن كثيرا من المحافل اتخذت مواقف عنصرية، فالمحافل الألمانية والإسكندنافية رفضت السماح لأعضاء الجماعات اليهودية بالانضمام إليها ، والمحافل الأمريكية رفضت انضمام الزنوج . كما لم تنجح المحافل الماسونية في تجاوز الحدود القومية الضيقة ففي أثناء الحرب العالمية الأولى ، على سبيل المثال ، استبعدت المحافل البريطانية الأعضاء من أصل ألماني ونمساوي ومجري وتركي .

أما العنصر الثالث ، وهو العنصر الربوبي ، أي الإيمان بالخالق دون حاجة إلى وحي ، فإن محفل الشرق الأعظم في فرنسا رفض هذا الحد الأدنى تماماً عام ١٨٧٧ ، وترك لكل عضو أن يحدد بنفسه موقفه من هذه القضية ، وتم التأكيد على «التقوى الطبيعية» بدلاً من «الإيمان الحق» ، أي أن الماسونية الفرنسية تبنت صيغة علمانية كاملة مؤسسة على الفكر الهيوماني أو الإنساني العلماني .

وحتى نصل إلى تعريف دقيق مركب ، فإننا لابد من أن نأخذ في الاعتبار هذه الخاصية التراكمية الجيولوجية ، فندرس تراكم الطبقات الجيولوجية في تراكمها الواحدة فوق الأخرى ، والتي أدت في نهاية الأمر إلى ظهور الماسونيات المختلفة وصفاتها المتنوعة .

تاريخ موجز

تعود جذور الماسونية إلى جماعات أو نقابات الحرفيين في العصور الوسطى الغربية الإقطاعية ، وهي جماعات كانت منظمة تنظيماً صارماً شبه ديني ، فكان لكل نقابة طقوسها الخاصة ورموزها الخفية وقسمها السرى وأسرار المهنة التى تحاول كل جماعة الحفاظ عليها . وهذه كلها أدوات لها وظيفة اجتماعية في غاية الأهمية إذ إنه ، مع غياب المؤسسات التعليمية ، كان يتم توريث المعلومات والخبرات المختلفة الحيوية اللازمة لاستمرار المجتمع ، من خلال نقابات الحرفيين . وبدون هذه العملية ، لم يكن ممكناً للمجتمع أن يحقق أي استمرار . وكانت جماعات البنائين من أقوى الجماعات الحرفية ، ذلك أن العصور الوسطى كانت هي العصر الذهبي لبناء الكاتدرائيات والأديرة والمقابر . وكان البناءون يعيشون على أجرهم وحده ، على عكس الحرفيين الآخرين ، مثل النساجين والحدادين ، الذين كانوا يتقاضون من زبائنهم مقابلاً عينياً من خلال نظام المقايضة ، أى أن البنائين (مثل أعضاء الجماعات اليهودية) كانوا جزءا من اقتصاد نقدى فى مجتمع زراعي . كما أن البنائين كانوا أحراراً تماماً فى حركتهم . فقد كان الحداد ، مثلا ، يقوم بعمله فى مكان ثابت ويقوم على خدمة

جماعة بعينها ، أما البنّاء فكان عليه الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن عمل . ولذا ، يمكن القول إن البنائين كانوا من أكثر القطاعات حركية في المجتمع الوسيط في الغرب .

وكان على البنائين أن يجدوا إطاراً تنظيمياً يتلاءم مع حركيتهم ، فالنقابات الحرفية بتنظيمها المألوف كانت ملائمة للحرفيين الثابتين أما بالنسبة للبنائين ، فكان لابد من ابتداع إطار حركي خاص بهم . ومن هنا كانت فكرة البناء المؤقت الذى يقال له بالإنجليزية «لودج» Lodge أى «المحفل» . والمحفل هو عبارة عن كوخ يبني من الطين أو مادة بناء أخرى تسهل إزالتها بعد الانتهاء من عملية البناء . وكان المحفل هو المكان الذى يلتقى فيه البناؤن حيث يتبادلون المعلومات ، ويعبرون عن شكواهم وضيقهم من أحوال العمل ، ويتبادلون الأخبار بل والمشروبات ، كما كان بوسعهم النوم فى المحفل وقت الظهيرة . كما كان العضو الجديد من جماعة البنائين يذهب إلى المحفل لمقابلة أبناء حرفته ، ومن هنا ظهرت فكرة السرية والرمزية ، إذ كان لابد من أن يتوصل هؤلاء البناءون إلى لغة أو شفرة خاصة بهم لا يفهمها سواهم ، ولا يمكن لصاحب العمل أو غير المشتغلين بحرفة البناء فهمها . وقد أخذت الشفرة شكل عبارات خاصة وطرق معينة فى المصافحة وإشارات بالأيدى الهدف منها أن يتمكن البنّاء من التفريق بين أبناء حرفته الحقيقيين

الذين تلقوا التدريب اللازم والذين ينتمون إلى نقابة الحرفيين وبين الدخلاء على الحرفة . وقد التزم البناءون بمجموعة من الواجبات ضمها ما يسمى «كتب الواجبات» أو «كتب التعليمات» أو «الدساتير» ومن أهمها مخطوط ريجيوس الذي يعود إلى عام ١٣٩٠ . وتذكر كتب الواجبات أنه يتعين على البنّاء مساعدة زملائه وعدم ذمهم وعليه تعليم المبتدئين منهم ، كما أن عليه عدم إيواء الدخلاء . وتتحدث كتب الواجبات كذلك عن الأصول التاريخية أو الأسطورية لحرفة البناء التي يرجعون بها إلى مصر وإلى بناء هيكل سليمان . وثمة قصص أخرى وردت في هذه الكتب عن «الأربعة المتوجين» وهم أربعة بنائين مسيحين قتلهم الرومان وأصبحوا شهداء ، ومن ثم فقد كان هؤلاء هم قديسي البنائين .

وقد ظلت نقابات البنائين مزدهرة حتى عصر النهضة في الغرب في القرن السادس عشر ، وهو أيضاً عصر الإصلاح الديني، حين توقفت حركة بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية الكاثوليكية . ولكن ذلك تزامن مع ظهور الدولة القومية المطلقة التي قامت بتأسيس مشاريع عمرانية ضخمة تحت إشرافها كسلطة مركزية ، ومن ثم بدأت الدعائم التي تستند إليها نقابات البنائين في الاهتزاز شأنها في هذا شأن كثير من الجماعات الحرفية والمؤسسات الإقطاعية الأخرى ، وبدأت في التحول إلى جماعات

خيرية أو جماعات تضامن تحاول أن توفر لأعضائها بعض الطمأنينة النفسية وشيئاً من الأمن الاقتصادى . ومع تناقص العضوية ، بدأت النقابات تقبل فى صفوفها أعضاء شرفيين ليحافظوا على الأعداد اللازمة ، ومن هنا بدأ التمييز بين البنائين العاملين أو الأحرار ، أى الذين يعملون بالحرفة فعلاً ، والبنائين المقبولين أو المنتسبين . وظهرت الماسونية الرمزية أو التأملية التى حلت محل الماسونية الفعلية ، بحيث تحول البنّاء وأدواته من وظيفة إلى رمز ، ولكن ، لم يكن البنّاء وأدواته المصدر الوحيد للرموز الماسونية ، فكما أسلفنا كان هناك سليمان وهيكله ، وهو يعتبر البناء الأول ، وهيكله هو رمز الكمال الذى يطمح أن يصل إليه كل البنائين أو الماسون . وكانت هناك رموز مسيحية كثيرة مأخوذة من تقاليد جماعات الفرسان التى انتشرت فى أوربا فى العصور الوسطى والتى يعود أصل معظمها إلى حروب الفرنجة والاستعمار الاستيطانى للفرنجة فى فلسطين ، مثل جماعة فرسان المعبد (الداوية) وجماعة فرسان الاسعاف (الإسبتارية) وغيرهما . كما يحتل يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول مكاناً خاصاً ، وقد أسلفنا الإشارة إلى الأربعة المتوجين .

وقد يكون من المفيد (أو لعله من الطريف) أن نتوقف قليلا عند أحد الأصول المفترضة للحركة الماسونية وفكرها حسب بعض

مؤرخيها ، وهى بعض الجماعات الإسلامية (أو شبه الإسلامية) مثل الدروز والطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين . ويرى هؤلاء المؤرخون أن الحركة الماسونية استمدت بعض أفكارها ورموزها وطريقة تنظيمها من هذه الجماعات . فشيخ الجبل، رئيس جماعة الحشاشين، الذى يمسك كل الخيوط بيديه لا يختلف كثيرا عن رئيس المحفل، وطريقة العمل السرية وتجنيد الأعضاء الجدد وفكرة الدرجات التى تتبعها الحركة الماسونية لا تختلف كثيرا عن طريقة العمل والتجنيد فى هذه الجماعات . بل وتذهب بعض المراجع إلى أن جماعة فرسان المعبد التى اتخذت الحركة الماسونية كثيرا من رموزها رموزا لها هى فى الواقع الأصل الحقيقى للحركة الماسونية، وأن فرسان المعبد هؤلاء الذين بدأوا نشاطهم فى فلسطين إبان حروب الفرنجة، ثم انتقل نشاطهم إلى أوربا واستمروا فيه بعد سقوط كل جيوب الفرنجة فى فلسطين، هؤلاء الفرسان كانوا فى واقع الأمر مسلمين أو متأثرين بالفكر الدينى الإسلامى وأنهم كانوا يحاولون من خلال تنظيمهم السرى / العلنى أن يسيطروا على العالم المسيحى . ومن المعروف أن جماعة فرسان المعبد كانت تكون شبكة ضخمة فى معظم أرجاء أوربا وأنه كان يتبعها مجموعة من المحاربين / الرهبان (الذين تأثروا بفكرة الجهاد الإسلامية) ومجموعة من المؤسسات المالية الضخمة ذات

نفوذ قوى . وقد تم ضرب فرسان المعبد فى فرنسا وفى كافة أنحاء أوربا وقدموا لمحاكم التفتيش وكانت إحدى التهم الموجهة إليهم هى رفضهم لألوهية المسيح وتأثرهم العميق بالفكر الدينى الإسلامى وتبشيرهم به، وقد اعترف بعض الفرسان بالتهم الموجهة إليهم . ويبدو أن فرسان المعبد قد تأثروا بالفكر الإسلامى أو المثل الإسلامية إبان وجودهم فى الشرق الأوسط ، كما أنهم تعاونوا بالفعل مع جماعة الحشاشين ودبروا معهم بعض المؤامرات . ومهما كان الأمر فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى بعض فرسان المعبد قد فر إلى اسكتلنده حيث أسسوا الحركة الماسونية لسيطرة على أوربا بعد أن تم ضربهم . وقد استطردنا فى الحديث عن فرسان المعبد والإسلام لتبين مدى تشابك أصول الماسونية وتركيبيتها . وقد اختلطت فلسفة البنائين بالفلسفة الهرمسية السائدة فى عصر النهضة فى انجلترا ، وهى فلسفة غنوصية ذات طابع أفلاطونى حيث ارتبطت بهرميس تريسميجيستوس ، وهو شخصية رمزية أساسية فى الفكر الغنوصى حيث كان يعد نبياً سبق المسيحية، وكان يعد رسول الآلهة للبشر ويحمل المعرفة الخفية الباطنية (الغنوص) . كما اختلطت فلسفة البنائين بالحركة الروزيكروشيانية ، والتى ورد أول ذكر لها فى القرن السابع عشر، وهى جماعة غنوصية تدعى أنها تمتلك الحكمة الخفية عند القدماء . وقد أدى تداخل رموز البنائين وأسرارهم مع الفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية ، إلى أن سقطت تماماً القيمة

الوظيفية لحرفة البناء ، كما سقطت أدواتها (الفرجار والذراع والبوصلة والمثلث والمئزر والمزولة) واكتسبت قيمة رمزية ، فتحول ميزان البنائين ، على سبيل المثال ، إلى رمز العدالة ، وتحول الفادن (وهو خيط رفيع في طرفه قطعة من الرصاص تمتحن به استقامة الجدار) إلى رمز استقامة الحياة وأفعال الإنسان .

وهكذا تشكلت الطبيعة الجيولوجية المركبة لرموز الماسونية التي ضمت رموزاً من الديانات المصرية القديمة ، كما ضمت كلمات عبرية بتأثير من القبالاه التي دخل كثير من أفكارها على الماسونية .

والواقع أن اختلاط فكر البنائين بالفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية يصلح مؤشراً على اتجاه الماسونية ، فهذه الفلسفات ، برغم شكلها الصوفي ، كانت جزءاً من الثورة العقلانية المادية الكبرى التي تفجرت في الغرب في القرن السادس عشر ، والتي كانت تهدف إلى إزاحة الخالق من الكون أو وضعه في مكان هامشي ووضع الإنسان في المركز بدلاً منه ، على أن يقوم الإنسان بالتحكم الكامل في الكون عن طريق اكتشاف قوانين الطبيعة الهندسية والآلية ، وهي بهذا ، غنوصية جديدة تهدف إلى التحكم في الكون ، لا من خلال المعرفة الخفية وإنما من خلال الصيغ العلمية . وعلى كل، كانت المعرفة الخفية تأخذ ، في كثير من الأحيان ، شكل صيغ رقمية أقرب إلى المعادلات الجبرية .

وفى العصور الوسطى ، كان الوجدان الشعبى يرى أن مثال الغنوصية هو الدكتور فاوستوس الذى باع روحه للشيطان فى سبيل المعرفة الكاملة وفاوستوس هو بطل التفكير العلمي ، تنسب إليه النزعة الفاوستية التى تسم الفكر العلمى والثورى . وربما تكون مركزية رموز آلات البناء تعبيراً عن النسق الهندسي والآلى الكامن فى الماسونية، وعن رغبة التحم فى كل من الذات الإنسانية والكون من خلال صيغ رياضية (ولعل المقارنة هنا مع فلسفة إسبينوزا وطموحه نحو لغة رياضية هندسية دقيقة ذات دلالة عميقة) .

لا يمكن ، إذن ، فهم الماسونية إلا بوضعها فى هذا السياق الفكرى وكما يعرف دارسو تاريخ أوربا فإنه بعد انحسار فكر عصر النهضة ، ولد فكر عصر العقل والاستنارة والإيمان بالقانون الطبيعى، والعقلانية المادية هى نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) والإيمان بفعالية القانون الطبيعى فى كافة مجالات الحياة وإنكار أى غيب ، وإلا لما أمكن التحكم فى الكون وتوظيفه واستخدامه وتحويله إلى مادة استعمالية . وقد انعكس هذا فى فكرة الإنسان الطبيعى (العقلانى) أو الأممى ، وهو إنسان عام لا يتميز عن أى إنسان آخر ، صفاته الأساسية عامة ، أما صفاته الخاصة فلا أهمية لها . وهو إنسان عقلانى إن أعمل عقله بما فيه الكفاية لتوصل إلى نفس الحقائق التى يتوصل إليها الآخرون - بغض النظر عن الزمان والمكان . ومن ثم ، يمكن لهذا الإنسان أن يصل

إلى فكرة الخالق بعقله دون حاجة إلى وحي إلهي أو معجزات أي دون الحاجة إلى دين مرسل ، أي أن الإنسان الطبيعي العقلاني العالمي (الأممي) يمكنه أن يتوصل بعقله إلى الإيمان بدين طبيعي عقلاني عالمي .

ويمكن القول إن الدين الطبيعي ، أو «الربوبية» كما كانت تدعى ، هو تعبير عن معدل منخفض من العلمنة أو تعبير عن عقلانية مادية جنينية ، فهي تستجيب لحاجة أولئك الذين فقدوا إيمانهم بالدين التقليدي ولكنهم لايزالون غير قادرين على تقبل عالم اختفى منه الخالق تماماً ، أي أنهم بشر جربوا العالم من الدين والقداسة واليقين المعرفي والأخلاقي ولكنهم احتفظوا بفكرة الخالق في صيغة باهتة لا شخصية ، حتى لايصبح العالم فراغاً كاملاً .

والفكر الربوبي لايطالب من يؤمن به أن يتنكر لدينه ، إذ إن المطلوب هو أن يعيد المؤمن تأسيس عقيدته ، لا على الوحي وإنما على قيم عقلية مجردة منفصلة تماماً عن أي غيب ، أي منفصلة عن الأنساق الدينية المألوفة للتفكير . فالربوبية ، في واقع الأمر ، هي فلسفة عقلانية مادية تستخدم خطاباً دينياً ، أو ديباجات دينية ، للدفاع عن العقل المحض ، وعن الرؤية التجريبية المادية ومن ثم ، فهي وسيلة من وسائل علمنة العقل الإنساني .

في هذا الإطار الفكري والفلسفي والديني ، ولدت الماسونية

وقد تم تأسيس أربعة محافل متفرقة في انجلترا فى القرن السابع عشر ، جمعها كلها محفل واحد مركزى تأسس عام ١٧١٧ مع بدايات عصر العقل ، ويعد هذا التاريخ هو تاريخ بدء الحركة الماسونية ، وقد سمح اليهود بالالتحاق بها عام ١٧٣٢ . ودخلت الحركة الماسونية فرنسا عام ١٧٢٥ ، وإيطاليا عام ١٧٣٣ ، وألمانيا عام ١٧٣٣ .

الماسونية العقلانية

وإن أردنا تلخيص فكر أولى الماسونيات التى نقابلها ، ولنسمها «الماسونية العقلانية أو الماسونية الربوبية» ، لقلنا إنها تنادى بتوحيد كل البشر من خلال العقل ، كما تنادى بإسقاط الدين مع الاحتفاظ بالخالق خشية الفوضى الفلسفية الشاملة .

ولذا ، فقد جاء في تعريف الماسونى أنه «ذكر بالغ يلتزم بالنسق الديني الذى يوافق عليه جميع البشر» ، وهذا هو الإيمان بالخالق أو الكائن الأسمى (مهندس الكون الأعظم) ، أو الإيمان بالجوهر العقلى للدين والذى يمكن للعقل أن يصل إليه . ويوسع العضو أن يحتفظ لنفسه بأى آراء دينية خاصة أخرى ، على أن يعلن عن تسامحه لكل الأديان وعن إيمانه بأبوة الرب وأخوة البشر

وخلود الروح . وقد جاء في الدستور الماسوني لعام ١٧٢٣ الصادر في إنجلترا أن الماسوني «لا يمكن أن يكون كافراً غبياً ، أو يكون فاسقاً غير متدين» ، وعليه أن يحترم السلطات المدنية ، ولا يشترك في الحركات السياسية . وتدعو الماسونية إلى مجموعة من الصفات العامة التي لا تغير كثيراً من هذه البنية الفكرية التحتية ، فهي تدعو إلى وحدة البشر على أساس الإخاء والمحبة والمساواة ، والعون المشترك وخدمة الغير وحسن معاملتهم ، وحب الجماعة وتبادل المصالح والتحلي بالفضائل المدنية ، أي الفضائل التي يتسم بها المواطن الذي ينتمي إلى الدولة القومية (في مقابل الفضائل الدينية لدى الإنسان المتدين الذي ينتمي إلى الكنيسة ويؤمن بعقيدة منزلة) كما تقدس الماسونية الملكية الخاصة . وليس للماسونية أي هدف نهائي طوباوي محدد ، وإن كان ثمة هدف ، فهو عام غير محدد ، وهو أن يكون العالم في النهاية في اتحاد أخوي وإلهي . (ولعلنا نلاحظ هنا النموذج الحلولي الواحدي الكامن) .

ويمكننا أن نقول إن الماسونية الربوبية هي ماسونية الفكر المركنتالي والدولة المطلقة ، وماسونية الطبقات الأرستقراطية التي احتضنت الطبقات الوسطى الصاعدة باعتبارها قوة تستخدمها وتوظفها لصالح الدولة القومية المطلقة دون أن تسلمها صولجان الحكم والقيادة . وقد اكتشف الإنسان الغربي ، منذ عصر نهضته ،

بعد ظهور ماكيافللى وهوبز وفكرة القانون الطبيعى وضعف الإطار المسيحى التقليدى وانكماش سلطة الكنيسة الدنيوية ، وأن المطلق الوحيد هو الدولة وأن مصلحتها العليا هى المطلق الأخلاقى الأسمى . ومثل هذه الفلسفة تضع الخالق والغيب فى موضع هامشى ، بل والأهم من هذا أنها تعلمن الإنسان وتجعله يستبطن هذه القيمة المطلقة حتى يخضع لإرادة الدولة بدلاً من إرادة الخالق . لكن كل هذا يتم داخل إطار عقلانى هادىء يشجع على تطويع الإنسان وتطبيعه ، والدولة المطلقة هى إطار يضم كافة الطبقات تحت قيادة هذه أو تلك الملكية المطلقة ، أو أى ملكية أخرى فى مواجهة الكنيسة التى لاتزال تحاول الحفاظ على سلطانها الدنيوى. ومن ثم ، نجد أن أعضاء الأرستقراطية انضموا إلى الحركات الماسونية ، فقد انضم إليها ملكا بروسيا فريدريك الثانى وفريدريك الثالث ، وملوك شبه جزيرة إسكندنافيا ، وملك النمسا جوزيف الثانى ، ونابليون وأفراد عائلته ، وأعضاء الطبقة الوسطى الذين يطمحون فى شىء من الحراك الاجتماعى . ويمكن تفسير انضمام أعضاء الأسرة المالكة الإنجليزية وأعضاء الأرستقراطية إلى الجماعات الماسونية من نفس المنظور ، وكان كثير ممن يطلق عليهم مثقفو الطبقة الوسطى الصاعدة من الماسونيين . كما يمكن أن نذكر من أعضائها فولتير والأنسيكلوبيديين (الموسوعيين) وفخته وجوته وهردر ولسنج

وموتسارت ، وأعضاء الجمعية الملكية فى إنجلترا ، وجورج واشنطن ، وما تزينى وغاريبالدى .

وفى عشية الثورة الفرنسية ، كان يوجد فى فرنسا نحو خمسمائة محفل ماسونى . كما يقال إن نصف أعضاء الجمعية العمومية فى فرنسا ، عشية الثورة ، كانوا من الماسونيين . ولكن يجب ملاحظة أن الماسونيين فى فرنسا فى تلك المرحلة لم يكونوا من غلاة الثوريين (الجمهوريين) ، بل كانوا من دعاة الإصلاح بلا ثورة . ولذلك فقد هاجر كثير منهم من فرنسا بعد تصاعد حمى الثورة .

ويمكن القول إن الماسونيين كانوا من أعضاء طبقات أو فئات هامشية تود أن تحقق شيئاً من الحراك والمركزية ، أو كانوا أعضاء هامشيين أو فئات هامشية فى طبقات مركزية ويودون أن يحققوا قدراً من الحراك من خلال الانضمام إلى تجمع أكبر ، أو كانوا من أعضاء الارستقراطية الذين أرادوا أن يستخدموا القوة الماسونية وأن يوظفوها لصالحهم الشخصى أو لصالح الدولة المطلقة. وربما يعود شيوع الماسونية فى القرن الثامن عشر إلى سببين أساسيين : أولهما ، شيوع الفلسفات العقلانية المعادية للكنيسة والطبقات الإقطاعية . ولكن هذه الفلسفات لم تكن بعد ثورية أو إلحادية ، فقد كانت تعبر عن مصالح الطبقة الوسطى الصاعدة ، وعن رؤيتها التجارية العقلانية المادية للكون ، دون أن تعلن صراحة

عن ماديتها إذ إنها كانت أضعف من أن تفعل ذلك . أما السبب الثاني ، فهو عدم تجانس رموز الحركة الماسونية ، الأمر الذى لعب دوراً حيوياً فى زيادة مقدرتها التعبوية على مستوى كل الطبقات . وقد كانت الماسونية ديمقراطية تقوم بتجنيد أعضائها من كافة الطبقات ، ولكنها كانت فى ذات الوقت أرستقراطية يترأسها الملك وأعضاء النخبة ، وتأخذ شكلاً هرمياً جامداً . وكانت ليبرالية تدعو إلى الأخوة والمساواة ، ولكنها كانت في ذات الوقت محافظة تدعو إلى عدم التعرض للسلطات الحكومية أو الخوض فى الأمور السياسية . وكانت الماسونية فى تلك المرحلة حركة إيمانية ربوبية ، ولكنها كانت تحوى داخلها كل معالم التفكير الإلحادى الذى يسقط الإله تماماً . وكانت عقلانية ذات رموز صوفية ، وتضم أفكاراً عالمية ومحلية . وربما جعلتها هذه الصيغة الإسفنجية تحقق هذا النجاح الباهر ، فهى تستخدم ديباجات دينية ضبابية لتحقيق أهداف إلحادية .

ولكن الماسونية هي بنت محيطها الحضارى التاريخي والجغرافي ، فقد كانت ألمانية في ألمانيا وإنجليزية فى إنجلترا وفرنسية في فرنسا . ولذا ، فقد تغيرت هي ذاتها مع تغير أوربا . كما نجد أن تصاعد قوى الطبقة الوسطى ومعدلات العقلانية المادية والإلحاد قد انعكس على الفكر الماسوني وتنظيماته ، فاكتسب كثير

من المحافل الماسونية مضموناً ثورياً ، خصوصاً فى البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وأصبحت هى الأداة الكبرى فى الحرب ضد الكنيسة ، وفى المطالبة بفصل الدين عن الدولة . هذا على عكس المحافل الماسونية فى البلاد البروتستانتية حيث ظلت معتدلة تدور داخل إطار ربوبى .

الماسونية الإلحادية

وفى هذا الإطار الجديد ، ظهرت الماسونية الثانية التى تتخذ موقفاً إلحادياً أكثر صراحة ، فقرر محفل الشرق الأعظم فى فرنسا عام ١٨٧٧ استبعاد أى بقايا إيمانيه من الفكر الماسونى . وظهرت محافل ذات طابع ثورى مثل النورانيين (الإليوميناتى) فى بافاريا ، وقبلها المارتينيست فى فرنسا ، وكانت المحافل الماسونية فى روسيا القيصرية (الأرثوذكسية) خلايا ثورية ، وكان معظم أعضاء ثورة الديسمبريين من الماسونيين .

ويلاحظ أن الماسونية الثانية ، وهى ثورية إلحادية ، تنتشر فى البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، أى البلاد التى توجد فيها كنيسة قوية تقف ضد الفلسفات العقلانية البورجوازية والثورية العمالية . كما يلاحظ أن المحافل الماسونية فى هذه البلاد ، كما هو

الحال في أمريكا اللاتينية ، تتسم بثورتها وعدائها للكنيسة والكهنوت ، كما تتسم بارتباطها الواضح بالفلسفة الوضعية التي تجعل العلم هو الأساس للقيمة والأخلاق . كما أن الكنيسة ، بدورها ، تناصب الحركة الماسونية العداء . وبمرور الزمن ، أصبحت المحافل الماسونية تضم عناصر البورجوازية والطبقة الوسطى ، ولم يعد ينضم إليها أيُّ مفكرين ، كما اختفى منها كذلك أعضاء الأرستقراطية (ومع هذا لابد من الإشارة إلى أن أحد المراجع يشير إلى أن عددا لا بأس به من دعاة الوضعية في العالم الثالث أعضاء في المحافل الماسونية) . وبرغم كل هذا ، فإن عضوية المحافل الماسونية ظلت ، من ناحية الأساس ، مقصورة على العناصر البورجوازية المعتدلة التي ترفض الدخول في أي مغامرات سياسية ، والتي تود أن تعيش في عالم عقلاني مادي ولكنها لاتريد مواجهة النتائج الفلسفية الناجمة عن ذلك ، وربما يفسر هذا سر تصدي البلاشفة للجماعات الماسونية وحظرهم إياها .

وقد انتشرت الماسونية في البلاد البروتستانتية لأن البروتستانية هي شكل من أشكال علمنة المسيحية الكاثوليكية ، كما أن معدلات العقلانية المادية مرتفعة فيها . فقد انتشرت بسرعة في الجزر البريطانية بسبب عدم وجود كنيسة مسيطرة على جوانب الحياة ، وبسبب انخراط الطبقة الحاكمة في صفوف الماسونية .

وقد انتشرت الماسونية مع اتساع الإمبراطورية الإنجليزية ، فانتقلت إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ومصر وفلسطين والهند وغيرها من المستعمرات أو المحميات . وقد احتفظت الحركة الماسونية بطابع هادىء مهادن داخل التشكيل البروتستانتي .

ولكن الماسونية البريطانية لم تكن هي الماسونية الوحيدة التي انتشرت في المستعمرات ، إذ إن الصراع الإمبريالي على العالم انعكس من خلال صراع بين الحركات والمحافل الماسونية ، فكان كل محفل ماسوني يخدم مصلحة بلد ويمثله - تماماً كما حدث صراع بين المبشرين البروتستانت والمبشرين الكاثوليك الذين كانوا يمثلون مصالح بلادهم . ويبدو أن بعض الشخصيات المهمة في العالم العربي أرادت أن تستفيد من هذا الصراع ، خصوصاً أن أعضاء هذه المحافل كانوا من الأجانب ذوي الحقوق والامتيازات الخاصة المقصورة عليهم . فكان الدعاة المحليون ينخرطون في هذه المحافل بغية توظيفها في خدمة أهدافهم ، وحتى يتمتعوا بالمزايا الممنوحة لهم . وكان من بين هؤلاء الأفغاني والشيخ محمد عبده والأمير عبدالقادر الجزائري . ولعل هذه الشخصيات الدينية والوطنية حذت حذو ماتزيني وغاريبالدي وغيرهما ممن حاولوا الاستفادة من أي أطر تنظيمية قائمة . ولنا أن نلاحظ أن الأفغاني قد اكتشف حقيقة الماسونية في وقت مبكر ، وتوصل إلى الأسس

العقلانية المادية التي يقوم عليها خطابها الديني ، ومن ثم ناهض هذه الأفكار في كتابه الرد على الدهريين . أما عبدالقادر الجزائري فلا توجد تفاصيل حول علاقته بالماسونية وإن كان قد حاول إيجاد أطر تنظيمية وتأسيسية لحركته مع الاستفادة من أسلوب التنظيمات الماسونية وقد انضم إلى الحركة الماسونية الأمير حليم وهو ابن محمد علي باشا الذي كانت له مطالب في عرش مصر ، وقد كان أستاذا أعظم لمحفل الشرق الأعظم المصري وتبعه في ذلك عدد من أعضاء الأسرة المالكة . كما انضمت إلى الحركة الماسونية شخصيات أخرى مثل سعد زغلول ويوسف وهبي . ولكن ارتباط أمثالهما بالحركة الماسونية كان واهيا للغاية ولايعدو قبولهم ذكر اسمائهم ضمن قائمة الأعضاء أو حضور اجتماع يعقد على شرفهم كما أن الحركة الماسونية ظلت في مصر وغيرها ضعيفة تضم في صفوفها الأجانب أساساً .

حركة سريّة

ويمكننا الآن طرح قضيتين مهمتين هما : النفوذ السياسي والاقتصادي للماسونية وسرية حركتهم ، وهما عنصران مترابطان تمام الترابط ، فالحركات الماسونية تتركز في بلاد غربية متقدمة تحكمها حكومات مركزية قوية ، وتخضع فيها كافة الحركات السياسية والاجتماعية للمراقبة ، وإلاّ لما أمكنها تسيير دفة الحكم .

ولا يمكن في الحقيقة تصور وجود حركات ضخمة لها قوة فعالة لا تخضع للإطار العام الذى تفرضه مثل هذه الدول المطلقة الرشيدة ، فعملية التنبؤ والتخطيط تتطلب مثل هذا التحكم ومثل هذه المعرفة . والمحافل الماسونية تخضع لهذا القانون العام ، ولم يكن من الممكن أن تشكل استثناء له . لكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال من تسلل بعض العناصر المغامرة إلى بعض المحافل لتوظيفها بشكل أو بآخر، من خلال شبكة اتصالاتها ، في الاحتيال أو الأعمال الإجرامية . وهذا هو بالضبط ما تفعله ، على سبيل المثال ، عصابات المافيا (الجريمة المنظمة) مع الجهاز التنفيذى في الولايات المتحدة إذ تستأجر كبار المحامين وتشترى القضاة وتجند ضباط الشرطة ، أي تقوم بتوظيف الجهاز الذى أسس لمكافحتها والقضاء عليها لتنفيذ أهدافها الإجرامية . وكل هذا لا يعنى وجود مؤامرة مافياوية للاستيلاء على العالم . وكذلك الجماعات الماسونية ، فإنها إذا ما تحولت إلى قوة ضغط (لوبى) ، فإنها لا تختلف كثيراً عن مراكز الضغط الأخرى داخل النظام السياسى والاقتصادى وإن أخذ نشاطها شكلا تآمريا أو إجراميا في بلد ما ، فلا يصح التعميم من هذه الوقائع . وافتراض وجود مثل هذا النشاط على مستوى العالم بأسره . فعلى سبيل المثال لوحظ أنه قد بدأ يظهر تحالف بين بعض المحافل الماسونية وعصابات المافيا في إيطاليا وقد بدأوا في السيطرة على بعض المؤسسات المالية الشرعية

ليمارسوا نشاطهم غير الشرعي وراء ستار ولكن هذا النمط لم يلاحظ تكراره في أي بلد آخر .

وقد وصفت الولايات المتحدة بأنها ديمقراطية جماعات الضغط ، ولابد أن المحافل الماسونية تشكل إحدى هذه الجماعات التي تعمل داخل النظام ، فهذا هو المتوقع منها . وهذا هو «قانون اللعبة» ولا يمكن في هذا السياق أن نتحدث عن مؤامرة خفية أو علنية . ومن الناحية النظرية ، يمكن أن نقول أن المحافل الماسونية بوسعها أن تمارس ضغوطاً ضخمة في العالم الثالث، نظرا لضعف جهاز الدولة المركزي ولكن ، بحسب ما هو متوافر لدينا من معلومات، لا توجد حكومة واحدة بعينها في بلاد العالم الثالث خاضعة لمثل هذه الهيمنة الماسونية الاحتمالية . ولا توجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم، بل ويختلف تركيب الحركة من بلد إلى آخر ، فلا توجد على سبيل المثال سلطة ماسونية مركزية في أمريكا أو كندا إذ إن التنظيم الفيدرالي في هاتين الدولتين انعكس على شكل تركيب الحركة الماسونية ، على عكس الوضع في انجلترا وفرنسا، حيث توجد حكومة مركزية قوية ومن ثم محفل مركزي قوي .

أما بالنسبة إلى سرية المحافل ، فهذا أمر مركب أيضا ، فالجمعيات الماسونية سرية بمعنى أن طقوسها وبعض الإشارات الأخرى فيها سرية ، ومن ينضم إلى الحركة يقسم على ألا يكشفها

(وهذا ميراث العصور الوسطى) . ولا تسمح الحركة الماسونية لأي شخص بالانضمام إليها ، وإنما يتم تجنيد الأعضاء عن طريق توصية أحد الأعضاء العاملين ، والحركة الماسونية لا تختلف في هذا عن كثير من النوادي الخاصة وغيرها من المؤسسات . كما أن المحافل تخفي بعض الطقوس عن الأعضاء الجدد إلي حين التأكد من ولائهم ، وما عدا ذلك فلا يوجد أي شئ سري إذ يتم تأسيس المحافل الماسونية بموافقة السلطات وكل اجتماعاتها معروفة سلفا لدي هذه السلطات ، كما أن أعضاء المحافل معروفون في أغلب الأحيان لدي الحكومة . والمحافل الماسونية لا تخفي وجودها أو أهدافها أو عملها . وحينما صدر قانون منع الجمعيات السرية في إنجلترا عام ١٧٩٨ ، استثنيت المحافل الماسونية من ذلك . ويمكن لأي باحث أن يطالع أرشيف محفل الشرق الأعظم في فرنسا . كما أن كثيراً من المحافل الماسونية تقدم مضابط اجتماعاتها إلى السلطات الحكومية .

ولكن، مع هذا ، تضطر بعض المحافل الماسونية إلى إخفاء أسماء أعضائها خوفاً من السلطات الحكومية في البلاد التي تلعب فيها هذه المحافل دوراً انقلابياً . ولابد أن نضيف هنا أن المحافل الماسونية تم إغلاقها في مصر لأنها رفضت أن تخضع لتفتيش وزارة الشئون الاجتماعية نظراً لأن هذا يتعارض مع ما تتطلبه الحركة من سرية وكتمان بخصوص الطقوس . ورغم أن هذا هو

رأينا ، إلا أننا نود أن ننبه إلى أن نموذجنا التفسيرى ليس كاملاً ، فهناك من الحوادث والوقائع ما لا يمكن تفسيره من خلال نموذجنا. فعلى سبيل المثال من المعروف أن عددا كبيرا من رؤساء الجمهورية فى الولايات المتحدة (بما فى ذلك چورج واشنطن) كانوا من الماسونين ولذلك سميت أمريكا بالجمهورية الماسونية . وكان عدد كبير من قادة الثورة الفرنسية أيضا من الماسونين . والواقع أن هناك شخصيات مهمة فى كثير من الحكومات الغربية فى المعسكر الرأسمالى أو الحكومات الشرقية فى المعسكر الذى كان اشتراكيا أعضاء فى المحفل الماسونية ، ولكن عضويتها تظل طى الكتمان . كما أن بعض الجرائم تشير إلى وجود شبكة ماسونية تربط على الأقل أكثر من بلد ، ولكن الحقائق لاتزال متفرقة ولذا ثمة حاجة إلى المزيد من البحث الذكى والموضوعى .

والآن يبلغ عدد الماسونيين فى العالم نحو ٥ر٩ مليون منهم أربعة ملايين فى الولايات المتحدة ومليون فى إنجلترا . فإذا أضفنا عدد الماسونيين فى كل من كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ، فإننا نجد أن الماسونية منتشرة أساساً فى البلاد البروتستانتية ، خصوصاً الاستيطانية ، وهذا أمر متوقع إذ إن الماسونية نشأت أساساً فى المحيط البروتستانتى ، شأنها فى هذا شأن كثير من الحركات السياسية والفكرية المعاصرة كالصهيونية والنازية وقد لوحظ مؤخرا تناقص عدد الماسونيين فى العالم بشكل ملحوظ .

الماسونية السوقية

والماسونية هى جزء من التشكيل الحضارى الغربى والماسونية الأولى (ماسونية عصر الملكيات المطلقة) هى تعبير عن المرحلة التى ظهرت فيها ، تماماً كما أن الماسونية الثانية تعبير عن محيطها الحضارى . ويمكننا أن نقول المحافل الماسونية بدأت تتحول إلى ما يشبه النوادى التى تضم أعضاء لهم مصلحة مشتركة والتى تشكل إطاراً يتبادل داخله الأعضاء الخدمات - شأنها فى هذا شأن كثير من مؤسسات المجتمعات الغربية التى يقال لها متقدمة - . ويمكن أن نطلق على هذا الضرب من الماسونية اسم «الماسونية الثالثة» .

أما فى الولايات المتحدة ، فقد بدأت تظهر محافل ذات طابع اجتماعى ترفيهى وهى محافل ليس لها وضع مقنن داخل التنظيمات الماسونية ، وإن كان كثير من أعضائها من الماسونيين ومن هذه المحافل «الطريقة العربية القديمة لنبلاء الحرم الصوفى» ، ويقال لهم «الحرميون» ، و «الطريقة الصوفية لأنبياء المملكة المسحورة الملثمين» . وبدأت بعض هذه المحافل تسمح للنساء بالانضمام إليها ، كما أسست محافل للفتيان والفتيات . وتمنع

المحافل الماسونية البريطانية أعضاءها من الالتحاق بأي من محافل الترفيه هذه ، إذ إنها تعد نوعاً من الابتذال ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الماسونية السوقية اسم «الماسونية الرابعة» .

الماسونية واليهودية

وقد يكون من المناسب الآن أن نحاول تحديد علاقة الماسونية باليهود واليهودية ، إذ إن النموذج الاختزالي التآمري يربط بين الحركة الماسونية واليهودية . ولابد أن نذكر مرة أخرى الفرق بين أعضاء الجماعات اليهودية الخاضعين لحركيات الحضارات المختلفة التي ينتمون إليها واليهودية كنسق ديني أو حتى كتشكيل جيولوجي وقد يقول قائل إن الماسونية حركة لاعلاقة لها بالدين بالمعنى الدقيق للكلمة باعتبارها حركة أخلاقية أخوية وحسب . فالدين هو علاقة بالخالق تأخذ شكل الإيمان به وعبادته ، أما الأخلاق فهي نسق من الأفكار ينظم علاقة الإنسان بالإنسان لا بالخالق ، ومن ثم فالماسونية تتعامل مع رقعة من الوجود الإنساني تختلف عن تلك التي يتعامل معها الدين . ولكن كلا من التعريفين السابقين للأخلاق والدين قاصر، فالدين هو إيمان الإنسان بالمطلق (الغيب) كعقيدة تترجم نفسها إلى سلوك وإلى علاقة بين الإنسان والإنسان ، ولكن والدين ليس فقط عبادات ، وإنما معاملات أيضاً .

والأخلاق بدورها ليست مجرد مجموعة من القواعد الخارجية التى تحدد سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، وإنما هى مجموعة من القواعد تستند إلى معنى داخلى يعتمد على الرؤية إلى المطلق - ومن هنا التداخل بين الدين والأخلاق ، وكذلك التداخل بين الماسونية والدين .

وقد بينا أن الماسونية بدأت كدعوة ربوبية فهى نسق فكرى دينى متكامل يستند إلى العقل لا الغيب ، يحدد علاقة الانسان بالخالق وبالطبيعة وبطرق المعرفة ، وهى تطرح أمام تابعيها طرق الخلاص ، وتتكفل بتعليم مريديها السلوك الأسمى ، وتزودهم بأساس فلسفى للأخلاق التى يؤمنون بها ، فضلاً عن أن اجتماعاتها تبدأ وتنتهى بصلاة . ولذا ، كان لابد أن تصطدم الماسونية بالأديان كلها : المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية واليهودية الأرثوذكسية ، وربة اليهودية الحاخامية . وكانت المسيحية الكاثوليكية أكثر الديانات فى عدائها للماسونية ، فقد أعلن البابا كلمنت الثانى عشر عام ١٧٣٨ أن الماسونية كنيسة (أى ديانة) وثنية غير مقدسة (وهو فى تصورنا وصف دقيق لها) ، ولم يسمح للكاثوليك بالانضمام إليها . أما الكنائس البروتستانتية ، فبعضها فقط ناصبها العداء . وأما اليهودية الأرثوذكسية ، فهى تحرم على اليهود الانضمام إلى المحافل الماسونية وتعتبر من ينضم إليها

خارجاً على الدين ، هذا على خلاف الصيغ اليهودية المخففة مثل اليهودية الإصلاحية كما سنبين فيما بعد

ويمكننا الآن أن نتناول علاقة الماسونية بأعضاء الجماعات اليهودية . وسوف تكون الصورة هنا أكثر تركيباً وتنوعاً واختلاطاً . وكما أشرنا ، تشكل الماسونية دعوة ربوبية تعددية تستند إلى العقل، وهي تطرح على المؤمن بها عقيدة متكاملة ، ولكنها لا تطلب إليه أن يتخلى عن عقيدته الأصلية ، ولذا كان من الممكن لكافة أعضاء الديانات الانضمام إليها دون أن يضطروا إلى نبذ دينهم . (وقد كان هناك محفل ديني في الصين يستخدم الإنجيل والقرآن وكتابات كونفوشيوس ككتب مقدسة) .

وقد ظهرت الماسونية في وقت كانت فيه اليهودية الحاخامية قد بدأت تدخل مرحلة أزمتها التي أودت بها في نهاية الأمر. فالفكر القبالي كان قد حل محل التلمود وقوض اليهودية من الداخل . كما أن شبتاي تسفي من جهة ، وإسبينوزا من جهة أخرى ، كانا قد شنا هجومهما الشرس في منتصف القرن السابع عشر على اليهودية من ناحيتي اليمين واليسار . وكان يهود البلاط والعنصر السفاردي قد حلوا محل القيادة الحاخامية التقليدية . كل هذا ، جعل الثورةالعقلانية المادية تترك أعمق الأثر على بعض أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا قد بدأوا يضيقون ذرعاً باليهودية

وأخذوا يبحثون عن مخرج لهم منها ، فظهرت بينهم حركة التنوير اليهودية الإصلاحية . وقد حل بعضهم أزمته بأن تنصر . ولكن الانتقال إلى المعسكر المسيحى أمر صعب من الناحية المضمونية والتعبيرية ، فعقيدة مثل التثليث ، أورمز مثل الصليب ، من الصعب على كثير من اليهود تقبله .

الماسونية واليهود

وقد حلت الماسونية مشكلة هؤلاء اليهود الذين اغتربوا عن يهوديتهم ، والذين ازدادت معدلات العلمنة بينهم ، والذين كانوا يريدون الاندماج فى مجتمع الأغيار ولكنهم لا يريدون التنصر ، وكان ظهور الحركة الماسونية علامة على أن مجتمع الأغيار قد بدأ يفتح ذراعيه لهم ، وأصبحت المحافل الماسونية هى الأرضية الروحية والفعلية التى يمكن لأعضاء الجماعات اليهودية اللقاء فيها مع قطاعات مجتمع الأغلبية . وقد كانت هذه الأرضية تتسم بقسط معقول من الحيادية ، فمع أنه كانت هناك رموز ذات أصل مسيحى، ومع أن الفكر الماسونى احتفظ ببعض الأفكار المسيحية ، فقد كان هناك رموز ذات مضمون عقلانى عام (رموز البناء) وهى رموز عامة ومحايدة وماذا يمكن أن يكون أكثر حيادا من أدوات الهندسة التى يستخدمها البنّاء ؟ بل كانت هناك رموز يهودية أيضاً : سليمان والهيكل وكلمات عبرية . كما كانت هناك رموز كونية عامة

يمكن أن يشارك أعضاء الجماعات اليهودية فيها . ولكن الأهم من كل هذا أنه لم يكن مطلوباً منهم اعتناق دين جديد أو رفض دينهم القديم ، فكل ما كان مطلوباً منهم هو إزاحته جانبا أو تهميشه ، وإعادة تأسيس عقيدتهم على العقل لا الغيب . ولذا ، انخرط اليهود بأعداد متزايده في صفوف الماسونية . ويلاحظ أن أول الماسونيين بين اليهود كانوا من السفارد، إذ إن معدلات العلمنة كانت مرتفعة بين العنصر السفاردى ، ثم بدأت تنخرط في سلك المحافل الماسونية عناصر يهودية أخرى تزايدت بينها معدلات العلمنة مثل : أتباع اليهودية الإصلاحية ، وبقايا العناصر الشبتانية ، واليهود الذى تأثروا بالقبالاه . ولذا ، يجب أن نؤكد أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين انضموا إلى المحافل بأعداد متزايدة فعلوا ذلك لا بسبب يهوديتهم أو عقيدتهم ، وإنما بالرغم منها . بل إن انخراطهم في المحافل الماسونية يمثل بالنسبة لبعض اليهود صياغة دينية مخففة تساعدهم على التخلص من هويتهم الدينية بدون إحساس بالحرج من عدم وجود إيمان ديني على الإطلاق .

ولقد برز اليهود في الحركة الماسونية ، خصوصاً في إنجلترا حيث التحقوا بالحركة في عام ١٧٣٢ ، وأسس أول محفل ماسوني يهودي عام ١٧٩٣ ، أما في فرنسا ، فقد أصبح السياسي الفرنسي اليهودي أدولف كريميه (في عام ١٨٦٩) البناء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الاسكتلندية ، وكان هناك كثير من

مؤسسي المحافل الماسونية ، والتي كان ينضم إليها أعضاء الطبقة الوسطى المعادون للكنيسة الكاثوليكية . ولكن لم تكن الصورة واحدة في كل البلاد ، ففي شبه جزيرة إسكندنافيا وكذلك في ألمانيا ، ظلت مشاركة اليهود في الحركة الماسونية مسألة خلافية فقد سمح (حتى عام ١٨٧٠) لعدد صغير جدا من اليهود بالانخراط في سلك الحركة ، وكانت بعض المحافل تقبل اليهود ولكن داخل إطار ألماني مسيحي . فمحفل الأخوة الأسيويين ، الذي أسس في فيينا خلال عامي ١٧٨٠ و١٧٨١ ، كان ضمن طقوسه أكل لحم الخنزير باللبن ، وكما هو معروف فإن لحم الخنزير محرم على اليهود ، وكذلك فإن خلط اللحم باللبن محرم عليهم أيضاً .

وقد تزايد طلب اليهود على الانخراط في المحافل الماسونية في ألمانيا ، وقامت دعوة بين الماسونيين الألمان تطالب بقبول اليهود كأعضاء في الحركة ، لكن هذه الدعوة لم تنل تأييد زعماء الحركة ، وقد تحول بعض يهود ألمانيا إلى الماسونية في أثناء رحلاتهم في إنجلترا وهولندا ، وخصوصا في فرنسا ما بعد الثورة . وقد تأسست في ألمانيا نفسها محافل فرنسية ومحافل بمبادرة فرنسية، وأسس يهود فرانكفورت عام ١٨٠٨ محفل «الفجر الوليد» بتصريح من منظمة الشرق الأعظم . ولاشك في أن مثل هذه المحافل الفرنسية اليهودية زادت من عداء الماسونيين الألمان لليهود ومن ثم ظهرت دساتير ماسونية تستبعد اليهود بشكل خاص . ولكن بعض

المثقفين الماسونيين الألمان قاموا في ثلاثينيات القرن بالاحتجاج على استبعاد اليهود ، وانضم إليهم في احتجاجهم هذا ماسونيو إنجلترا وهولندا والولايات المتحدة . وقد اكتسحت ثورة ١٨٤٨ بعض الفقرات التي تستبعد اليهود، واعترفت المحافل المسيحية في فرانكفورت بالمحافل اليهودية . وقد كانت محافل بروسيا هي الاستثناء الوحيد حيث استمرت في استبعاد اليهود ، ولكنها بدأت مع السبعينيات تسمح بدخول اليهود زوّاراً ثم أعضاء .

ولكن الموجة العنصرية التي صاحبت الهجمة الامبريالية على الشرق اكتسحت أوربا بأسرها وأخذت أشكالا عديدة من بينها معاداة اليهود وتقوم بعض أدبيات معاداة اليهود بالربط بين اليهود والماسونيين وتذهب إلى أن ثمة تعاوناً سريّاً بين الفريقين للسيطرة على العالم ، ولتخريب المجتمعات . وقد ترددت هذه الفكرة إبان محاكمة دريفوس . كما أن نفس هذا الموضوع يتردد أيضا في البروتوكولات ، وقد كان الربط بين اليهود والماسونيين هو أحد أحجار الزاوية في الدعاية النازية المضادة لليهود ، حيث كان النازيون يشيرون دائما إلى كريمييه باعتباره البنّاء الأعظم ومؤسس جمعية الأليانس اليهودية .

وغني عن القول أن مثل هذه العلاقة التآمرية المباشرة لا وجود لها . وبحسب ما توافر لدينا من وثائق ، ليست هناك هيئة

مركزية عالمية تضم كل المحافل الماسونية . كما أن هناك يهوداً معادين للماسونية وماسونيين معادين لليهود واليهودية . ولكن ثمة علاقة بنيوية وفعلية بين الماسونيين وأعضاء الجماعات اليهودية تفسر انخراط اليهود بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية يمكن إيجازها في النقاط الثلاث التالية :

١ - من المعروف أن الماسونيين معادون للكنيسة والكهنوت وهذه نقطة لقاء بينهم وبين أعضاء الجماعات اليهودية الذين فقدوا إيمانهم الديني - وهم الآن أغلبية يهود العالم - . ويتصور هؤلاء أن المجتمعات العلمانية تضمن لهم أمنهم وحقوقهم ، ومن ثم ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية . وهذه الظاهرة يمكن رصدها في أمريكا اللاتينية بينما يصعب رصدها في إنجلترا على سبيل المثال لأن الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية لا تزال هي الإطار المرجعي للمجتمع ، ومن ثم تتخذ محاولات العلمنة شكلاً تنظيمياً محدداً مثل المحافل الماسونية . أما في إنجلترا وفرنسا ، فإن العلمانية أصبحت الدين الرسمي للدولة ، ومن ثم تفقدالمحافل الماسونية قيمتها الوظيفية والرمزية .

٢- تضم المحافل الماسونية أعدادا كبيرة من العناصرالمالية والتجارية والمهنية . والتركيب الوظيفي والمهني ليهود العالم يجعل

أغلبيتهم الساحقة من هذه القطاعات ، إذ لا يوجد بينهم عمال أو فلاحون ، ومن ثم تزداد نسبتهم في المحافل الماسونية .

٣ - الحركة الماسونية حركة أممية تتجاوز الولاءات القومية (كما أن إنسان عصر الاستنارة هو إنسان أممي) . وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية أعضاء في جماعات وظيفية وسيطة تقلل من الولاء للوطن وتجعل الولاء للجماعة الوظيفية أو المصالح المالية . كما أن فترة ظهور الماسونية هي أيضا الفترة التي يبدأ فيها يهود اليديشية « أي يهود شرق أوربا » في الهجرة بأعداد هائلة إلى كل أطراف العالم ، والعناصر المهاجرة ليس لها ولاء قومي قوى . لكل هذا ، نجحت المحافل الماسونية في اجتذاب أعضاء الجماعات اليهودية فتزايدت معدلات العلمنة وضعف الانتماء القومي ولعل في تركز اليهود في القطاعات المالية والتجارية ما يفسر وجودهم بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية، وحينما يربط المعادون لليهود بينهم وبين الحركة الماسونية ، فإنهم محقون في ذلك تماما إذ إن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في المحافل الماسونية عادة ماتكون أعلى بمراحل من نسبتهم إلى عدد السكان ولكن يبدأ الخلل حينما يطرحون تصور وجود مؤامرة خفية والأمر كله لايعدو أن يكون ظاهرة اجتماعية فالخلل ليس في الوصف وإنما في التفسير.

وقد اشترك بعض أعضاء الجماعات اليهودية في تأسيس الحركة الماسونية في الولايات المتحدة ، فثمة دلائل تشير إلى أنه كان يوجد أربعة يهود بين مؤسسي أول محفل ماسوني عام ١٧٣٤

فى الولايات المتحدة (سافانافى ولاية جورجيا) ولقد اتبعت الطقوس الماسونية فى وضع حجر الأساس للمعبد اليهودى فى تشارلستون (ساوث كارولينا) عام ١٧٩٣ . واستمر الوجود البارز لليهود فى المحافل الماسونية فى القرن التاسع عشر . وقد كتب محفل نيويورك إلى محفل برلين الأساسى يشكو من رفض المحافل الألمانية أن تقبل أعضاء المحافل الأمريكية فى صفوفها لأنهم يهود. والواقع أن الماسونية الأمريكية ، مثل كل المؤسسات الأمريكية ، تتسم بأنها لم تعرف التمييز ضد اليهود أو غيرهم من الأقليات والطوائف البيضاء ، وقد تبنت جماعة البناى بريت اليهودية عند تأسيسها بعض الطقوس الماسونية السرية ، ولكنها أسقطتها بعد فترة .

أما فى فلسطين ، فقد تأسست محافل ماسونية بين العرب المسلمين والمسيحيين والأجانب (المسيحيين واليهود) . وبعد إنشاء الدولة الصهيونية ، بلغ عدد المحافل الماسونية أربعة وستين محفلاً سنة ١٩٧٠ ، تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة عضو من اليهود والمسيحيين والمسلمين .

وقد قامت بعض المحافل الماسونية العربية بنقد الصهيونية واشتركت بعض القيادات الماسونية فى المقاومة ضد الاستيطان الصهيونى . وعكس ذلك صحيح أيضا ، إذ رفضت بعض المحافل الماسونية التصدى للصهيونية باعتبار أن هذا نوع من العمل السياسى .



بعض اليهود يمتصون دم طفل مسيحي لاستخدامه
في احتفالات عيد الفصح (مخطوطة مصورة
من ألمانيا في القرن الخامس عشر)

الفصل الرابع

تهمـــــة الدم

من أهم ادعاءات النموذج الاختزالي التآمري ما يسمى بتهمة الدم وهي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبيا مسيحيا في عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح . ونظراً لأن عيدي الفصح المسيحي واليهودي قريبان ، فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في شعائرهم الدينية وفي أعيادهم ، وخصوصا في عيد الفصح اليهودي ، حيث أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (الماتزوت) الذي يؤكل فيه يعجن بهذه الدماء . وقد تطورت الاشاعة فكن يقال إن اليهود يصفون دم ضحاياهم لأسباب طبية أو لاستخدامه في علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان ولاستخدامه كمنشط جنسي .

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر اليونان والرومان ، أي إلى ما قبل العصور المسيحية ، فقد أتى في كتابات كل من أبيون (السكندري) وديموقريطس الكاتبين اليونانيين إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم ، ولكن هذا الادعاء لم يصبح

جزءاً من الصورة الإدراكية العامةلليهود فى الوجدان الغربى ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى الغرب فى العصور الوسطى .

« القديس وليام »

وقد وجهت أول تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية فى انجلترا فى القرن الثانى عشر فى وقت كانوا يمارسون فيه نشاطهم التجارى والمالى والربوى ، مما كان يعنى أن هناك أفراداً كثيرين قد اقترضوا أموالاً من المرابى اليهودى ولم ينجحوا فى تسديدها ، وأن ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم قد آلت إليه . وقد اتهمت الجماعة اليهودية فى نورويتش عام ١١٤٤ بأن بعض أعضائها قد ذبحوا طفلا يدعى وليام عمره أربعة أعوام ونصف فى الهجمة المزينة (وقد نصب وليام هذا قديسا فيما بعد) . وقد أشار أحد اليهود المتنصرين إلى أنه من المعتاد أن تقوم إحدى الجماعات اليهودية فى إحدى مدن أوربا بذبح طفل مسيحى فى يوم عيد الفصح المسيحى (إيستر Easter) الذى يقع عادة فى نفس تاريخ عيد الفصح اليهودى (بالعبرية : بيساح ، وبالانجليزية : باس أوفر Pass Over) .

ثم وجهت تهمة دم أخرى فى مناطق مختلفة من انجلترا بين عامى ١١٦٨ و ١١٩٢ . وقد تسربت الفكرة إلى فرنسا، فوجهت التهمة إلى الجماعة اليهودية فى «بلوا» عام١١٧١ . كما وجهت التهمة

خمس عشرة مرة فى القرن الثالث عشر ، ومن بينها حالة هيو من بلدة لنكولن عام ١٢٥٥ ، التى يذكرها تشوسر فى حكايات كانتربرى . وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين ، ومن أشهرها حادثة دمشق عام ١٨٤٠ ، وقضية بيليس عام ١٩١١ وتعد حادثة دمشق التى حدثت فى العالم الاسلامى استثناء ، إذ إن الظاهرة تكاد تكون مقصورة على العالم المسيحى .

وكانت تهمة الدم تأخذ الشكل التالى : يختفى شخص مسيحى (فى العادة طفل) أو يوجد مقتولا فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل أو الشخص شوهد آخر مرة بجوار الحى اليهودى ، أو أن هناك عيدا يهوديا (عادة عيد الفصح) تتطلب شعائره دم نصرانى ، ومن ثم كان يوجه لأعضـاء الجمـاعة اليهودية تهمة قتله ويتم القبض على بعضهم وكان يتم تعذيبهم ثم يشنق أحيانا عدد منهم

ويوظف أصحاب النموذج الاختزالى الصهيونى تهمة الدم هذه لصالحهم ، فيشيرون إليها باعتبارها أكبر دليل على أن عالم الأغيار يرفض اليهود ويفتك بهم ، وبالتالى لا بد أن يكون لهم وطن قومى . ولكننا لو وضعنا هذه الوقائع فى سياقها التاريخى فإنها ستكتسب دلالة جديدة أو سيمكننا على الأقل فهمها بشكل أعمق لن يؤدى بالضرورة إلى استخلاص نتائج صهيونية .

السياق التاريخي

ظهرت تهمة الدم بعد أن تحول اليهود في العالم الغربي إلى جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا ، قد كانوا يشبهون بالاسفنجة التي تمتص نقود كافة الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص ، ثم يقوم الامبراطور أو الأمير أو الحاكم باعتصارها لحسابه بعد ذلك (وهو الأمر الذى لم تكن تدركه هذه الطبقات الشعبية بطبيعة الحال فهى كانت لا تتعامل مع الامبراطور وإنما مع المرابى اليهودى) ومن هنا كانت الإشارة إلى اليهود (كجماعة وظيفية وسيطة لا كيهود) على أنهم مصاصو دماء، ولم يكن من الصعب على الوجدان الشعبي أن يحول المجاز إلى حقيقة.

وكان توجيه تهمة الدم يعنى ، في واقع الأمر ، شنق بعض اليهود من بينهم عدد كبير من المرابين ، فقد كان الربا من أهم الوظائف التي أضطلع بها اليهود في التشكيل الحضارى الغربى .

هذا يعنى ، في كثير من الأحيان ، إسقاط الديون . إن توجيه الدم كان يشبه ، من بعض الوجوه ، التخطيط لسرقة بنك من البنوك، وكان شنق اليهود بمثابة النجاح في هذه العملية ، وهى عملية تشبه أيضاً عمليات روبين هود الذى كان يسرق من الأثرياء ليعطى الفقراء . ولذا ، فإن جرائمه كانت تحظى بشعبية كبيرة . وكانت الجماهير تحيطه بحمايتها .

وكانت الخزانة الملكية ذاتها تستفيد أحياناً من تهمة الدم حيث كانت ترث ديون المرابي الذي يشنق أو يطرد ، كما أن النخبة الحاكمة كانت تنتهز مثل هذه الفرصة لتعرض على اليهود تجديد المواثيق الممنوحة لهم ، والتي تتضمن حمايتهم وتكفل لهم المزايا نظير مبالغ جديدة يدفعونها .

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي بخصوص «الآخر» وهي عادةً اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم . ولقد اتُّهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم . كما وجهت نفس التهمة إلى المسيحيين الأوائل من قبل اليهود (حسبما جاء في كتابات أوريجين) . وقد جاء في أحد كتب المدراش أن فرعون مصر حاول أن يشفى من البرص بذبح مائة وخمسين طفلاً يهودياً كل صباح وكل ظهر ليستحم في دمهم ، كما أن بعض كتب الهاجاداه محلاة بصور لتهمة الدم الموجهة إلى فرعون مصر . وقد وجهت التهمة كذلك إلى الغنوصيين من قبل المسيحيين ، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية عام ١٤٦٦ من قبل الجماهير . وقد اتهم المبشرون المسيحيون في الصين عام ١٨٧٠ بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين ليصنعوا من دمهم دواء سحرياً . وأتهم الأجانب في مدغشقر عام ١٨٩١ بابتلاع قلوب بعض السكان المحليين . أما الرهبان الدومينكان ، فقد اتهمهم أعداؤهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل

يهودى فى بعض شعائرهم السرية ! ومعنى كل هذا أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود . وإذا كان مرابون آخرون ، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون) ، لم توجه إليهم (بحسب علمنا) تهمة الدم ، فقد وجهت إليهم تهم أخرى لا تقل عنها سوءاً ، كما أنهم كانوا أيضاً عرضة للطرد والمصادرة والشنق .

وقد ساعد تكرار تصوير الدم والقتل فى العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين . كما أن شعائر اليهود الدينية ، خصوصاً شعائر عيد الفصح ، كانت تثير الريبة فى نفوس أعضاء الأغلبية ، الأمر الذى كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها . هذا مع العلم بأن قوانين الطعام اليهودية تمنع شرب الدم أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه . ويبدو أن ممارسة الختان والذبح الشرعى قد غذيا هذه الأوهام ، حتى سمّى اليهود «أهل السكين».

ولم يكن اليهود يقفون فى مجابهة كل الأغيار كما يدعى الصهاينة ، فقد كانت النخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطور والملوك) تدافع عن أعضاء الجماعة ضد هذه التهم التى كان يوجهها إليهم عامة الشعب . فبيّن البابا إنوسنت الرابع ، فى مرسوم صدر عام ١٢٤٥ ، أن التهمة باطلة وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود. ودافع البابا جريجورى العاشر (فى مرسوم صدر عام ١٢٧٤) عن اليهود، كما فعل بابوات آخرون نفس الشىء . وفى عام ١٧٥٨،

أصدر الكاردينال لورنز جانجانلى (البابا كليمنت الرابع عشر فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم . وقد أصدر نفس التحريم الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى (١١٩٤-١٢٥٠) ، وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج عام ١٢٧٥ . وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها ، ولكنهم مع هذا فشلوا فى مسعاهم ، واستمرت تهمة الدم مرتبطة أرتباطاً بصورة اليهودى حتى عهد قريب .

حادثة دمشق

ومن أشهر تهم الدم «حادثة دمشق» التى وقعت عام ١٨٤٠ حين كانت سوريا تحت الحكم المصرى وتكاد تكون المرة الوحيدة التى وجهت فيها تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الإسلامى . فقد اتهم يهود دمشق بقتل راهب من الفرنسيسكان يدعى الأب توماس الكبوشى وخادمه المسلم إبراهيم عمارة لاستخدام دمائهما فى أغراض شعائرية ، وفى صنع الفطير اليهودى المعروف بالماتزوت . وقد أشيع أن الأب توماس شوهد آخر مرة وهو يهم بالدخول إلى حارة اليهود ، فتم تفتيش الحى اليهودى بتحريض من الكاثوليك المحليين يتزعمهم القنصل الفرنسى ، وقبض على زعماء اليهود ومات منهم إثنان فى أثناء التحقيق ، وأشهر واحد إسلامه وحكم على الباقين بالإعدام .

وقد تفاقمت ردود فعل هذه القضية بسبب الصراع السياسي للأوربيين للحصول على النفوذ في الشرق الأوسط . ولا يمكن رؤية هذه الحادثة إلا في إطار النشاط التبشيري الاستعماري في فلسطين والشام ، والذي كان تعبيراً عن الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى . وقد كانت كل دولة تحمي أعضاء جماعة دينية بعينها ، فكان الروس يحمون الأرثوذكس ، وكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك . وربما لعدم وجود البروتستانت بما فيه الكفاية ، قام الإنجليز «بحماية» اليهود . ومن هنا ، يعد الصراع بين الكاثوليك المحليين (بزعامة القنصل الفرنسي) واليهود تعبيراً عن الصراع على النفوذ . ومما له دلالته ، أن احتجاج يهود فرنسا ومناشدتهم لحكومتهم لم يأت بنتيجة في حين أدى احتجاج يهود إنجلترا إلى تحرك بالمرستون ومطالبته إلى محمد علي بأن يعامل اليهود معاملة حسنة (باعتبارهم عنصراً يهدف إلى حمايته) ، وأدى تدخل أدولف كريميبه وموسى مونتفيوري ، ومقابلتهما محمد علي في الإسكندرية، ثم السلطان عبدالحميد في إستانبول إلى الإفراج عن المتهمين وإسقاط التهمة عنهم .

وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يدين تهمة الدم ويعتبرها قذفاً في حق اليهود .

الباب الثانى

النموذج الصهيونى



الممثل الكوميدي الأمريكي

اليهودي داني كاي : عبقرية يهودية

الفصل الخامس

العبقرية اليهودية

فكرة العبقرية اليهودية مفهوم محوري لأصحاب النموذج الاختزالي من الصهاينة وأعداء اليهود . ونحن نرى أنه من أهم الأفكار التى أدت إلى إحاطة أعضاء الجماعات اليهودية بهالات أسطورية ، وعبارة « العبقرية اليهودية » تفترض وجود عبقرية يهودية مستقلة وإبداع يهودي مستقل . وهذه العبارة تتواتر في الأدبيات الصهيونية أو المتأثرة بها ، حيث نجد حديثا مستفيضا عن فضل اليهود على الحضارة الإنسانية . وفي الحقيقة فإن الحديث عن العبقرية اليهودية لا يختلف بنيويا عن حديث المعادين لليهود . عن «المؤامرة اليهودية» مع أن المضامين مختلفة . كما أن الحديث عن العبقرية اليهودية ، تماماً مثل الحديث عن المؤامرة اليهودية ، يصدر عن تصور أن اليهودي «يهودي» وحسب أو يهودى بالدرجة الأولى ثم أمريكي أو روسي بالدرجة الثانية أو الثالثة . كما يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على تجريد اليهودى من أى سياق اجتماعي أو تاريخي وعلى وضعه على هامش التاريخ أو خارجه حيث يقف ليساهم فيه بعبقرية فذة أو يحاول تخريبه بكل ما أوتى

من قوة ودهاء وحيلة . والحديث عن العبقرية اليهودية ومحاولة اكتشافها وتحديد سماتها هو تعبير عن فكرة الفولك أو الشعب العضوى التي تفترض أن لكل شعب عبقريته الخاصة أو جوهره أو طبيعته . والواقع أن كلمة «عبقرية» كانت تعني في بداية الأمر سمات خاصة وحسب ، ولا تفترض بالضرورة تميزاً أو علواً . ولكن من المعروف أن المناخ الحضاري في أوربا الذي نبتت فيه مثل هذه الأفكار كان مشبعاً بأفكار التفاوت بين الأمم ، حتى أصبحت محاولة تحديد عبقرية كل شعب تهدف إلى تحديد حقوقه المطلقة وتسويغ استيلائه على أراضي الآخرين واستعبادهم . وسنركز في هذا الفصل على فكرة العبقرية اليهودية بمعنى التميز لا الامتياز .

السياق التاريخي

إننا لو نظرنا إلى العباقرة اليهود ، بعد أن نضعهم في سياقهم التاريخي المتعين، سنكتشف على الفور أن مقولة «العبقرية اليهودية» لا وجود لها على الإطلاق ، تماما مثل «المؤامرة اليهودية»، وأنها عبارة ليس لها أي مدلول واضح أو مستتر . ومن حق المرء أن يسأل : ما هي السمات اليهودية المشتركة بين فرويد المفكر النمساوي اليهودي الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، وشعراء العرب اليهود في الجاهلية ، وراشي ويوسنوس ومارك شاجال وموسى بن ميمون وبرنارد مالامود ؟ والإجابة الوحيدة هي :

أنه لا توجد مثل هذه السمات المشتركة . وإن اكتشف أحد عناصر يهودية مشتركة بين كل هؤلاء العباقرة ، فإن تصنيفهم على أنهم يهود بالدرجة الأولى لا يفيد كثيراً فى فهم فكرهم أو طبيعة مساهمتهم فى التراث الإنسانى ، فيهوديتهم المشتركة ليست لها مقدرة تفسيرية عالية ، ولابد لنا أن نعود إلى التقاليد الحضارية والظروف التاريخية التى شكلت فكرهم ووجدانهم حتى يتسنى لنا الإحاطة بها . فموسى بن ميمون كاتب عربى أندلسى كان يؤمن باليهودية وتفاعل مع التراث العربى الإسلامى . ومن خلال هذا التفاعل نضجت عبقريته العربية ، ولم تكن اليهودية سوى أحد العناصر فى تكوين هذه العبقرية (وحتى هذه اليهودية كانت قد اصطبغت بصبغة إسلامية) . وقصص برنارد مالامود تنتمى إلى التراث الأدبى الأمريكى لأن كاتب هذه القصص تأثر بتقاليد هذا الأدب وأتقن اللغة الإنجليزية الأمريكية وكتب روايات أمريكية تعالج موضوعات أمريكية يهودية . وحين صرح شاجال ذات مرة لمجلة تايم بأنه غير مهتم باليهودية ، قامت الدنيا ولم تقعد ، وأرسل كثير من القراء برسائل احتجاج أوضحوا فيها تأثر شاجال باليهودية الحسيدية . وقد يكون هذا أمراً صحيحاً ، ولكن يظل شاجال هو نتاج الحركات الفنية فى أوربا فى القرن العشرين ، وبخاصة فى روسيا وفرنسا . وقد تكون للوحاته نكهة حسيدية ، خصوصاً أنها تعالج موضوعات يهودية مثل التوراة والحاخام ، ولكنها تظل مع

هذا لوحات رسمها فنان روسي فرنسي متأثر ويعمق بالتراث المسيحي ! (بل أثبتت بعض الدراسات مؤخرا أن الحسيدية ذاتها قد نبتت في تربة سلافية فلاحية مسيحية أرثوذكسية ، وأنها متأثرة ويعمق بالتراث الصوفي الفلاحي السلافي الأرثوذكسي !) .

وإذا ما تركنا مجال الفنون والإنسانيات ، يصبح الحديث عن العبقرية اليهودية عبثاً وهراء لا طائل من ورائه . فبأي معنى يمكننا أن نقول إن نظرية النسبية قد توصل إليها أينشتاين من خلال عبقريته اليهودية ، وكأنه كان من الممكن أن يصل أينشتاين إلى ما وصل إليه من اكتشافات باهرة دون جهود من سبقه من علماء مسيحيين وبوذيين ؟ وهل كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات دون وجوده داخل الحضارة الغربية الحديثة ؟ وإلا فبماذا نفسر عدم ظهور علماء طبيعة متفوقين تفوق أينشتاين بين يهود الفلاشاه الأثيوبيين ؟

ويلاحظ أن نسبة المتعلمين والمخترعين بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي مرتفعة . ولكن هذا أمر طبيعي وينطبق على كل الأقليات في أي مكان حينما تتاح أمامها الفرصة. فالأقلية دائماً واقعة تحت ضغط نفسي يدفعها إلى أن تثبت تفوقها أمام نفسها وأمام الآخرين ، ولذلك يجتهد أعضاؤها في أن يساهموا في الإبداع الحضاري بدرجة تزيد على المعدل العادي في المجتمع. كما

أن عضو الأقلية عادةً ما تكون لديه عقلية نقدية في رؤيته للمجتمع لأنه على علاقة خاصة وخارجية به . لكن أعضاء الأقلية يخضعون مع ذلك لدرجة تقدم وتخلف المجتمع الذى يعيشون بين ظهرانيه ، فإن تقدم تقدموا . وإن تخلف صاروا متخلفين . والواقع أنه لم يكن هناك عباقرة يهود بين العرب إبان فترات الانحلال في الحضارة العربية حين أغلقت الحلقات الفقهية والمدارس التلمودية العليا في العراق بسبب انتكاس الحضارة العربية ، على حين ازدهر الفكر العربى اليهودى فى الأندلس بسبب ازدهارها .

ونحن لو نظرنا إلى تاريخ الجماعات اليهودية في شرق أوربا التى تبنت الصهيونية لوجدنا أنها كانت من أكثر القطاعات تخلفاً في أوربا ، وكانت جماهير يهود اليديشية وقيادتها غارقة حتى أذنيها فى التأملات القبالية ، وكانت الحياة العقلية فى الجيتو متحجرة ومنفصلة عن العالم الخارجى باعتراف الصهاينة أو أى دارس موضوعى أو متحيز . هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش عصر النهضة ثم عصر الاستنارة .

تاريخ العباقرة اليهود

وحتى لو رصدنا العبقرية اليهودية بشكل مطلق كما يفعل الصهاينة ، فإننا سنكتشف أن العبرانيين وأعضاء الجماعات اليهودية لم يلعبوا دوراً كبيراً في خلق الحضارة . فحينما ظهر

العبرانيون على مسرح التاريخ منذ عام ١٢٠٠ ق.م. رعاةً رحلاً ، كانت الإمبراطورية الفرعونية في مصر قد شيدت مئات المعابد والأهرامات والسدود ، وكان الفن المعماري وعلوم الفلك المصريان قد وصلا إلى قمم شامخة . وحينما تأسست المملكة العبرانية الموحدة على يدي داود وسليمان ، لم تكن هذه المملكة سوى مملكة صغيرة ازدهرت في غياب القوى الإمبراطورية العظمى في الشرق الأوسط القديم واعتمدت حضارياً على الدول والأقوام المجاورة اعتماداً كاملاً . أما في مجال الأدب والفن والفكر ، فلا توجد أية مساهمة حقيقية من جانب العبرانيين في تراث العالم القديم ، بل إن أسلوب الهيكل المعماري الذي قام الفينيقيون ببنائه هو الأسلوب الأشوري الفرعوني . وكان بناء الكباري والسدود أمراً غير معروف البتة لليهود القدامى . كما أن الكتابات اليهودية المقدسة مثل سفر التثنية وسفر الجامعة كانت متأثرة تأثراً عميقاً بالحضارات المجاورة . ولا يأتي ذكر لليهود في الكتابات اليونانية أو الرومانية إلا بوصفهم شحاذين ومصدر ضيق لكتاب مثل شيشرون . وإذا نظرنا إلى الحضارة العربية إبان فترة نهضتها ، فإننا نجد أن دور اليهود كان مقصوراً على الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية . وقد دفعهم اضطلاعهم بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة التي يعمل أعضاؤها بالتجارة الدولية في العالم القديم إلى معرفة العديد من اللغات ، كما جعلهم ناقلين لحضارات الآخرين . ولم يكن يوجد

شاعر كبير أو مفكر فلسفي عربي مشهور يعتنق اليهودية ، فكنت ترى بينهم الأطباء والصيادلة والتجار حيث ظلوا مرتبطين بالإنتاج اليومي المادي ، غير أنه لم يكن هناك بينهم الفنانون أو المفكرون . وبعد أن انتقل مركز الحضارة إلى الغرب ، ظل الأمر على ما كان عليه، فلا نجد في أدب وحضارة العصور الوسطى أو عصر النهضة مفكراً أو رساماً أو أديباً يهودياً شهيراً واحداً . وحتى المفكرون اليهود الذين ظهروا في خلال هذه الفترات الطويلة ، مثل الحاخام عقيبا أو راشي أو موسى بن ميمون ، كانوا مهتمين بأمور دينية يهودية ذات أهمية إنسانية محدودة . كما نعرف أنهم كانوا بلا ثقل يذكر داخل مجتمعاتهم . فموسى بن ميمون لم يكن معروفاً باعتباره مفكراً دينياً ، وإنما باعتباره طبيباً ومؤلف كتب في الطب وحسب . وما من شك في أن اقتصار نشاط اليهود على نشاطات إنسانية معينة دون غيرها كان أمراً طبيعياً للغاية من أقلية تلعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة المنعزلة اقتصادياً ووجدانياً بسبب وظيفتها .

العصر الحديث

والواقع أننا لا نسمع عن مساهمة اليهود في الحضارة إلا مع بدايات ظهور الرأسمالية والعلمانية . وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن إسبينوزا ، أول فيلسوف يهودي عالمي ، قد ظهر في

هولندا مهد الرأسمالية الحديثة ومهد الفكر اليهودي الحديث في الغرب . ظهر إسبينوزا من بين اليهود السفارد المتمتعين بمستوى حضاري مرتفع بسبب احتكاكهم بالحضارة الإسلامية ، على عكس اليهود الأشكناز الذين تدني وضعهم الحضاري داخل الحضارة المسيحية . وقد كان إسبينوزا أيضاً من أوائل المفكرين العلمانيين الذين طرحوا انتماءهم اليهودي جانباً ، فلم يكن إبداعه وبروزه نتيجة انتمائه اليهودي ، وإنما تم هذا الإبداع وذلك البروز بالرغم من هذا الانتماء وبسبب رفضه ، وذلك مع عدم إنكار أن التراث اليهودي القبالي قد لعب دوراً مهما في تحديد معالم فكره أو في تأكيد الواحدية المادية الكونية أو الاتساق الهندسي عنده اللذين يشكلان جوهر نسقه الفلسفي .

وقد ظل المفكرون اليهود يساهمون في بناء الحضارة الأوربية باعتبارهم أوربيين علمانيين أولاً وأخيراً ، أي أن يهودية المفكر والعبقري لم تكن هي العنصر الأساسي في إسهامهم . وقد زادت هذه المساهمة بازدياد انتشار القيم الليبرالية ثم الثورية في الغرب والشرق ، إذ إن هذه القيم فتحت المجال أمام أعضاء الجماعات اليهودية .

ولي تصورنا أن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب قد حققوا ، مع تزايد علمنة المجتمع الغربي ، بروزاً كبيراً في العصر

الحديث لأنهم كانوا من القطاعات التي تمت علمنة نخبتها المثقفة بشكل كامل كما تمت علمنة الجماهير اليهودية كلها بشكل كامل وقاس وفجائي ومخطط ، من قبل الدولة الفرنسية أو النمساوية أو الروسية ، مما أدى إلى حدوث صدع وانقطاع واضح بين انتمائهم الديني وتراثهم من ناحية ووجودهم في العصر الغربي الحديث من الناحية الأخرى . وقد أدى هذا الصدع إلى علمنة اليهود بشكل حاد وبمعدل يفوق معدلات العلمنة في معظم القطاعات الأخرى للمجتمع . وأصبح الإنسان اليهودي في الغرب هو الإنسان الحديث الذي لا انتماء ولا جذور له ، والذي لا يشعر بحرمة شيء وينزع القداسة عن الإنسان والعالم ، ولذا أصبح لدى أعضاء الجماعات اليهودية من الكفاءات اللازمة للتعامل مع المجتمع الجديد ماهو أكثر مما لبقية أعضاء هذا المجتمع من المسيحيين ، فاستطاعوا أن يحققوا بروزاً وصعوداً أعلى من بقية أعضاء المجتمع ، ولكنه على أية حال صعود وبروز من داخل المجتمع لا من خارجه . ونحن لا ننكر أثر المكوِّن اليهودي في تكوين العبقري اليهودي ، فأثر القبالاة اللوريانية واضح تماماً على تفكير فرويد ، وجاك دريدا فيلسوف التفكيكية . ونرى أن المدرسة التفكيكية في النقد والفلسفة هي نتاج مدارس التفسير اليهودية . وأن اليهودية بوصفها تركيبة جيولوجية تحوي داخلها عناصر كثيرة متناقضة (بعضها عبثي وبعضها عدمي أو غنوصي) تتيح للعبقري اليهودي استعداداً كامناً أكثر من

غيره لاكتشاف مثل هذه التيارات في المجتمع ، والتعبير عنها بطريقة مباشرة أكثر من غيره . ولكن يجب أن نشير أيضاً إلى أن المكوِّن اليهودى ذاته هو نتاج تفاعل اليهود مع ما حولهم من حضارات ، فالغنوصية هي حركة سادت في الشرق الأوسط القديم وتأثرت بها اليهودية . كما أن العبقرى اليهودي قد يكون لديه استعداد كامن لاكتشاف شيء ما ، لكن هذا الشيء سيظل جزءاً من تشكيل حضارى غير يهودى ، بمعنى أن الحركيات النهائية هي حركيات الحضارة التي يعيش فيها اليهودى ، ففرويد مهما كان علمه بتراث القبالاه ، لا يمكن تخيل أن يصل إلى نظرياته وهو في اليمن ، فهو نتاج مجتمع فيينا في أواخر القرن التاسع عشر بكل ما كان يحوى من إبداع وانحلال ، وتركيب وتخثر .

ويلاحظ أن بعض المؤلفين والرسامين اليهود في الحضارة الغربية بدأوا ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، في تناول مضامين يهودية في أدبهم وفنهم . ولكن مثل هؤلاء لا يختلفون البتة عن المؤلفين غير اليهود الذين يتناولون مضامين يهودية ، ذلك أن طريقة التناول - بكل مزاياها وعيوبها - تظل جزءاً من التشكيل الحضارى الغربي . إن سول بيلو وفيليب روث - وكلاهما كاتب أمريكي يهودى - يتناولان شخصيات أمريكية يهودية ، إلا أن أدبهما لا يمكن أن يصنف على أنه أدب يهودى ، إذ يظل هذا الأدب أدباً أمريكياً مكتوباً بالإنجليزية ، ينتمي إلى التراث الأدبي

الأمـريكي ولا يمكن فهمـه خارج هـذا التراث . وهمـا في هـــذا لا يختلفـان عن جيمس جويس في رواية يوليسيس حينما جعل أحد أبطال روايته يهودياً ، ومع هذا لم يصنفها أحد على أنها من عيون الأدب اليهودي ، شأنها في هذا شأن رائعة شكسبير تاجر البندقية .

ويعود اهتمام بعض الكتاب الغربيين بالموضوعات والمضامين اليهودية إلى انتشار التيارات العدمية والعبثية بين اليهود. وقد وجد بعض الكتاب الغربيين (اليهود والمسيحيين) أن اليهودي هو رمز الاغتراب الأزلي الذي يقف على حافة التاريخ شاهداً عليه تماماً مثل اليهودي التائه .

أما بخصوص العبقريات التي تنتجها إسرائيل ، فإن الأمر يتوقف على جنسية العبقري، فإن كان هذا العبقري إسرائيلياً فهو تعبير عن العبقرية الإسرائيلية، أما إذا كان من أصل روسي أو ألماني فهو عبقري روسي أو ألماني. أي أن العبقرية اليهودية تظل مقولة مجردة لا وجود لها إلا بين صفحات الكتب الصهيونية أو المعادية لليهود. وبدلاً من ذلك، يتعين علينا أن نتحدث عن عباقرة يؤمنون بالدين اليهودي، أو عن عباقرة نوى بعد إثني يهودي، وينتمون إلى الحضارات الإنسانية المختلفة في مختلف الأماكن والأزمان.

والواقع أن الحديث عن العبقرية اليهودية يضم مقولات معادية لليهود ، إذ يمكن الحديث عن تفرد اليهود وعبقريتهم في السرقة والفساد . وهناك دراسات قام بها البعض لإثبات أن الجرائم الجنسية ، على سبيل المثال ، أمر شائع بين اليهود وأنها تعبير عن العبقرية اليهودية هذه !



ليو فرانك

الفصل السادس

حـادثة ليو فرانك

لايختلف النموذج الاختزالى الصهيونى فى إدراكه لليهود عن النموذج الاختزالى التآمرى ولا يختلف الواحد عن الآخر فى آليات عمله ، ومن ثمَّ فطريقة تحدى هذا النموذج وكشف اختزاليته وتبسيطيته وعنصريته لا تختلف عن الطريقة التى اتبعناها فى الباب الأول من هذا الكتاب : أى وضع الظاهرة أو الواقعة فى سياق تاريخى وإنسانى واسع لنسقط عن اليهود الهالة التى يخلعها عليهم النموذج الاختزالى ونبين أنهم بشر لا يتسمون بأى فرادة ولا يتمتعون بأى حصانة أو قدسية ، وأنه يمكن فهم سلوكهم بطريقة أفضل لو نظرنا لهم لا باعتبارهم كتلة واحدة متماسكة وانما باعتبارهم جماعات يهودية متفرقة تتأثر بالإطار الحضارى الذى تعيش فيه .

ومن أهم الحوادث التى ترد فى الأدبيات الصهيونية حادثة ليو فرانك ، وهو أمريكى يهودى ولد فى تكساس بالولايات المتحدة

الأمريكية ونشأ فى بروكلين أحد أحياء اليهود المهمة فى مدينة نيويورك . واتهم ليو فى قضية عام ١٩٠٨ ، ويقال إن كونه يهودياً كان عنصراً مهماً أثر فى محاكمته وفى الأحداث التى تلتها . كان فرانك يعمل مديراً لمصنع أقلام فى أتلانتا (ولاية جورجيا) حيث قبض عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ثلاثة عشر عاماً تدعى مارى فيجان ، وذلك بعد محاولة اغتصابها . وقد حوكم فرانك وصدر حكم بإعدامه . وحينما خفف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة ، هاجم مجموعة من المواطنين السجن واختطفوا فرانك وشنقوه فى المدينة التى ولدت ودفنت فيها ضحيته المفترضة ، وهو ما يسمى باللهجة الإنجليزية الأمريكية «لينشنج» Lynching وهى عملية الاختطاف والشنق . وقد صدر عفو عن فرانك عام ١٩٨٦ وبرىء اسمه من الجرم الذى نسب له .

الثورة الصناعية المتأخرة

ويجرد الصهاينة هذه الواقعة من سياقها التاريخى ليفرضوا عليها معنى صهيونياً بحيث يظهر اليهودى وكأنه الضحية الوحيدة لعنف الأغيار . ولو نظرنا إلى واقعة ليو فرانك بمنظار تاريخى ، فسنكتشف أنه لم يكن ينظر إليه باعتباره يهودياً أساساً وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعدة عناصر تاريخية واجتماعية

وثقافية ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته . وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع ، مسرح الواقعة ، كان يخوض ثورة صناعية حقيقية متأخرة ، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين أو المهاجرين المقتلعين من جذورهم الزراعية ، سواء في أوربا أو جنوب الولايات المتحدة . والواقع أن من أهم مظاهر الثورة الصناعية تركز السكان في المدن ، وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، إذ زاد من نحو ٨٩ر٨٧٠ إلى نحو ١٧٣ر٧١٣ ، وهو يعد أعلى معدل ارتفاع لأى مدينة أمريكية في نفس الفترة باستثناء برمنجهام (بولاية الاباما) . وكان نمو المدينة عشوائياً ، ولذلك لم تكن هناك المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة ، مثل : أماكن الترويح ، أو أماكن السكن ، أو ما يكفي من المستشفيات العامة ... إلخ . وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن ، فقد كان هناك حوالي ٣٠ر٣٠٨ من المساكن لنحو ٣٥ر٨١٢ أسرة ، وكان نصف المساكن لا تصلها المياه ، وكان نحو ٥٠ ألف شخص يعيشون في منازل لايوجد بها نظام للصرف الصحي . وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية ، وانتشرت الأمراض مثل التيفود وغيره من الأمراض ، وارتفعت معـــدلات الوفاة ، ويقـــال إن ٩٠٪ من المســاجين كانوا يعانون من مرض الزهـري وكان أجـر الطفـل اليـومي لا يزيد

على ٢٠ سنتاً ، وكان الأجـر الأسبوعى لـمارى فيجـان دولاراً وعشرين سنتاً .

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية وحسب ، وإنما كان موبوءاً من الناحية الأخلاقية أيضاً ، وهذا أمر متوقع فى مثل هذا المجتمع . وقد انتشرت مختلف أنواع الجرائم - السرقة والقتل والدعارة والسُكْرْ . وكانت نسبة الجريمة فى أتلانتا من أعلى النسب فى الولايات المتحدة بحيث كانت تعادل نسبتها فى شيكاغو عاصمة الجريمة فى العالم . وقد قبض البوليس عام ١٩٠٧ على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢٫٧٠٠ فى ذلك العام. ومع هذا ، كان جهاز الشرطة هزيلاً للغاية ، إذ إن مجموع عدد العاملين فى قوة الشرطة لم يكن يزيد على مائتى شرطى . وكانت توجد فى المدينة الواسعة نقطة شرطة واحدة . ولذا كان كثير من المجرمين يفرون من قبضة القانون . وفى عام ١٩١٢ / ١٩١٣ بالذات ، كانت هناك اثنتا عشرة جريمة قتل لم يتم الاهتداء إلى مرتكبيها .

الشمال والجنوب

هذه هى بعض مظاهر الثورة الصناعية فى أتلانتا . ولنا أن نلاحظ أن هذه الثورة كانت فى الواقع جزءاً من عملية غزو واسعة ، فالجنوب الأمريكى ، مسرح الواقعة ، كان لايزال يشعر بمذاق

الهزيمة فى الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) حين هزمه الشمال الصناعى وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات ، وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠ر٠٠٠ شخص حياتهم إبان هذه الحرب . وبعد انتصار الشمال فتحت الولايات الجنوبية (المتخلفة نسبياً وذات الاقتصاد الزراعى) للرأسمال الشمالى وللنخبة الشمالية التى أسست الصناعات وغزت السوق . ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية ، وأن ما يسميه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة هو فى واقع الأمر «غزو» شمالى للجنوب وهيمنة عليه . وهو غزو لمجتمع زراعى كانت تسوده علاقات شبه إقطاعية توجد على قمته أرستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة وبقيم الشرف والالتزام الإقطاعى، وكان ذلك المجتمع مجتمعاً أنجلو ساكسونياً بروتستانتياً لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين كما حدث فى بقية الولايات المتحدة ، خصوصاً في الساحل الشرقى . وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في مجتمع الجنوب وتتسم بقدر كبير من التماسك . وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الأسرى ، ولذا كانت محط تقديس المجتمع . لكن أعضاء مثل هذا المجتمع الزراعى الأرستقراطى عادةً ما ينظرون بغير قليل من الاحتقار ، بل وبالبغض أحياناً ، إلى الاقتصاد النقدى المبنى على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب .

وقد كانت شكوكهم فى محلها ، إذ إنه بعد توحيد الشمال مع الجنوب فتح الجنوب أمام الصناعات الشمالية التى هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضى القليلة التكاليف والسوق البكر ، وهى صناعات لم تخدم تقاليد المجتمع كثيراً ، بل ساهمت في تفكيك نسيجه المجتمعي وفي تحطيم بناء الأسرة ، فكان الأطفال يعملون فى المصانع ساعات طويلة ، وكذا النساء . وقد أدى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبع ذلك من تفكك اجتماعي ، فى المراحل الأولى على الأقل ، خصوصاً أن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطور عضوى وتفاعل عناصر محلية وظهور بورجوازية فى رحم المجتمع ذاته ، وإنما فرضت عليها فرضاً من المجتمع اليانكى الشمالى .

فرانك الرمز

كان ليو فرانك رمزاً لهذه القوة الغازية ، فقد كان شمالياً فى الجنوب ، صاحب ومدير مصنع فى مجتمع زراعى ينظر بعين الشك إلى الصناعة ، يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة فى مجتمع كان يقدس الأسرة حتى عهد قريب . وكان يشار إلى مارى فيجان على أنها «عاملة المصنع الصغير» ، أى أنها تحولت إلى رمز الطفولة البريئة التى استغلها المستثمرون من الشمال . وكان فرانك خريجاً فى الجامعة وعضواً فى النخبة

العلمانية المهيمنة التى لاتكترث كثيراً بالقيم التقليدية فى وسط بيئة جنوبية عمالية مقتلعة من بيئتها الزراعية لاتزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية وتحلم بالمجتمع المتماسك الذى دمر إبان الحرب الأهلية . ولم تكن يهودية فرانك سوى البؤرة التى جمعت كل هذه العناصر السابقة وبلورتها ، إذ إن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعى الغازى والجنوب الزراعى الذى تم غزوه ، وبين ضحايا التقدم والصناعة وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيب .

وقد يكون من المفيد عند هذه النقطة أن نتناول الانتماء اليهودى لفرانك . كان فرانك يشغل منصب رئيس فرع جماعة البناى بريت (لمكافحة الافتراء) اليهودية فى المدينة . كذلك لابد أن نعرف على وجه الدقة موقف الجنوب الأمريكي من اليهود . لقد حدد الجنوب الأمريكي التضامن على أساس عرقى بسيط (الأبيض فى مقابل الأسود) على عكس الشمال الذى حدده على أساس عرقى دينى إثنى مركب : أبيض بروتستانتى من أصل أنجلو ساكسونى ، يليه أبيض كاثوليكي من أصل إيطالى وأيرلندى ثم يليهما اليهودى الأبيض فى المنزلة وأخيرا يأتى الأسود ، كاثوليكيا كان أم بروتستانتيا ، فى المؤخرة فى أسفل الدرك . ومن الواضح أن التعريف الجنوبى لم يستبعد اليهود، وإنما صنفهم على أنهم بيض، تماما كما حدث فى جنوب أفريقيا . وقد سمح لهم هذا بدرجة عالية

من الاندماج والحراك الاجتماعى ، فأصبحوا جزءاً عضوياً من المجتمع ، وكانوا أعضاء فى النخبة الحاكمة وامتلكوا الرقيق وتاجروا فيه ، ولم تكن هناك صورة مستقلة لليهودى فى الوجدان الأمريكى الجنوبى التقليدى .

مزيد من التفاصيل

لقد أشرنا من قبل إلى أن ليو فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية . ويمكن أن نضيف هنا أنه ، مع التحولات التى دخلت على الجنوب ، اكتسبت كلمة «يهودى» مدلولاً جديداً . فلم يكن يهود جورجيا هم يهود الجنوب التقليديين القدامى وإنما كانوا عنصراً غريباً جديداً وافداً . وفى عام ١٩١٠، كان اليهود فى أتلانتا (جورجيا) يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب، إذ بلغ عددهم ١٣٤٢، أى ٢٥٪ من مجموع الأجانب . وبالرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز ١٪ من عدد السكان، فإنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة حققت بروزاً مشيناً . فقد كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة ، وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادى الأوربى ، وكان زبائنهم من الزنوج أساساً . ويقال إن بيوت الدعارة التى امتلكها اليهود كانت تزينها «صور نساء بيض لإثارة شهوة الزنوج الذين كانوا يحتسون الخمر فى الحانات اليهودية وينطلقون بعدها كالوحوش»، وهذه صورة إدراكية عنصرية،

ولكنها على أية حال ربطت الجرائم الجنسية فى ذهن سكان أتلانتا باليهود . وكان فرانك نفسه مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن، ويقال إن مارى فيجان نفسها اشتكت إلى صديقاتها من المحاولات الإباحية من قبل فرانك . وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً ، وقد يكون السلوك الإباحي المنسوب إلى فرانك لا يختلف عن سلوك أو حركات أى شخص جاء من مجتمع حضرى مفتوح يتصرف بتلقائية في مجتمع مغلق فيساء فهم سلوكه وحركاته . قد يكون هذا هو الوضع ، ولكن المهم إدراك الناس له ولسلوكه ، خصوصاً أن اشتغال اليهود بالمهن المشينة يدعم من هذا الإدراك .

وإلى جانب هذه الخلفية الاجتماعية والتاريخية والثقافية ثمة جانب احصائي مهم . فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية ليو فرانك وإلى الظلم الذى حاق به نتيجة اختطافه من السجن وشنقه ، بعد أن خفف الحاكم الحكم عليه . ولكن هذه الدراسات لا تذكر الحقائق التالية :

١ - لم يكن احترام القانون سمة سائدة فى المجتمع الأمريكي ككل ، ومجتمع أتلانتا على وجه الخصوص . فعلى سبيل المثال ، قبضت الشرطة ذات مرة على كل الذكور القادرين لأن أتلانتا كانت تعانى من نقص فى العمالة . ومن المعروف أن الشرطة اتهمت عام ١٩٠٩ بضرب أحد الزنوج ضرباً أفضى إلى موته ، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها .

٢ - اندلعت عام ١٩٠٦ اضطرابات ، فهاجم السكان البيض حي السود لعدة أيام واشتبكوا معهم فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين ، في حين قتل من بينهم رجلان وجرح عشرة ، واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطني . ويقال إن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن هجوم السود على النساء البيض .

٣ - كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة ، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين . ولكن كلما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين . ففي عام ١٨٩١ ، تم اختطاف وشنق أحد عشر مهاجراً إيطالياً . وفي عام ١٨٩٩ ، اختطف خمسة آخرون . وفي عام ١٩٠٠ ، اختفى ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة .

٤ - شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ألفين وخمسمائة حالة اختطاف وشنق (لينشنج) أخرى . وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود ، كما تم اختطاف قلة من أعضاء الأقليات الأخرى ، ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي وشنق وهي حالة ليو فرانك ! وهكذا يتحول الاستثناء إلى القاعدة في الأدبيات الاختزالية الصهيونية ويتحول الخاص إلى عام وتتحول الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزي !



الفصل السابع

حـادثة دريفوس

من أهم الوقائع التي يركز عليها النموذج الاختزالي الصهيوني «حادثة دريفوس» التي يشار إليها أيضا بعبارة «واقعة دريفوس»، وبطلها هو ألفريد دريفوس (١٨٥٦ - ١٩٣٥) الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين . وقد كان اليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي، ولد في مقاطعة الألزاس باسم «مولهاوزن» لأسرة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي ، ونظرا لأن اسمه ألماني الطابع فقد غيره إلى اسمه الذي اشتهر به . وقد اتهم دريفوس بأنه سرق وثائق سريّة عسكرية بمساعدة الماسونيين ، وسلمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس ، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا عام ١٨٩٤ فقامت السلطات العسكرية بمحاكمته ، وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث وعبأت الرأي العام ضده ، الأمر الذي خلق جوا غير ملائم لضمان حياد المحاكمة ، وفي نهاية الأمر قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة ، وجرد من رتبته علناً أمام الجماهير ونفي إلى

جزيرة الشيطان (ديفلز أيلاند) التى تقع على الساحل الأفريقى (وكانت مستعمرة فرنسية) ورحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم .

وقد وصفت واقعة دريفوس بأنها تركت أثرا عميقا على تيودور هرتزل لدرجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج ، فتبنى بدلاً من ذلك الحل الصهيونى ، لكن هذه الفكرة في حد ذاتها عملية تبسيط فجة للعوامل التى أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلا للمسألة اليهودية . ولكن الحقيقة التى لا توردها المراجع الصهيونية هى أن هرتزل نفسه كان مقتنعا فى بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنبا وخائنا ، ولا أحد يدرى ما الذى جعله يغير رأيه فيما بعد - ولكن هذا ليس هو موضوعنا الأساسى وقد يكون الأجدى وضع واقعة دريفوس فى إطارها التاريخى والاجتماعى والإنسانى .

دريفوس كأجنبى

ابتداءً كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية لأسباب وجيهة . فالقوات الفرنسية ذاتها كانت تجند كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل كجواسيس لحسابها . ولذا ، ساد الاعتقاد بأنه لابد أن ألمانيا ذاتها كانت تقوم بنفس الشىء ، وهو أمر متوقع . ويجب تذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوربى لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات

التاريخية . ففى القرن السابع عشر ، لعب أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول ، وقد حاول أوليفر كرومويل أن يخطب ود أعضاء الجماعات اليهودية ويوطنهم في إنجلترا حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له .

ويلاحظ أن هذه الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوربا ، الأمر الذى أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا ، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوربية . وكان عدد العمال الإيطاليين عام ١٨٧٢ نحو ١١٢ ألفاً . فأصبحوا ٣٠٠ ألف عام ١٨٩٠ ، وجاء معهم قرويون (من القرى الفرنسية) يتحدثون لهجاتهم المحلية ، مثل البريتون والأفيرنيان . كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصطبغوا بعد بالصبغة الفرنسية . ووصلت أعداد كبيرة كذلك من يهود شرق أوربا الذين يتحدثون اليديشية (وهى رطانة ألمانية) . وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب . كما أن تزايد يهود شرق أوربا ويهود الألزاس واللورين ، على حساب العنصر اليهودى الفرنسى المحلى ، أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب . ومن المعروف أن العناصر الأجنبية عادةً ما تتعرض فى فترات الكساد الاقتصادى للهجوم من قبل أعضاء الأغلبية المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنهم سبب الأزمة. كما أن العامل الأجنبى

يرضى بأجور أقل ومستوى معيشى أكثر انخفاضاً ، الأمر الذى يثير الحقد عليه .

وعلاوة على هذا ، كان الجو العام فى فرنسا آنذاك متوتراً، خصوصاً إزاء أعضاء الجماعة اليهودية ، بعد هزيمة الجيش الفرنسى على يد الألمان عام ١٨٧٠ . وقد كانت العناصر الليبرالية التى كانت تضم نسبة عالية من أعضاء الجماعات اليهودية تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا . كما كان المد العلمانى آخذاً فى التزايد وفى الإصرار على فصل الدين عن الدولة . هذا ، إلى جانب أن الثورة الصناعية اقتلعت الكثيرين من جذورهم وأدت إلى إفقارهم وقذفت بهم فى المدن الكبرى (مثل باريس) . وكان هؤلاء المقتلعون يشعرون بانعدام الأمان فى المجتمع الجديد (بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية) والذى كان اليهود يوجدون فى مركزه . وإلى جانب كل ذلك ، كان هناك أيضاً عدد كبير من اليهود بين قيادة كومونة باريس فى عام ١٨٧١ . وقد أدى هذا كله إلى ربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية فى المجتمع . ولكن من المفارقات التى تستحق التأمل ان اعضاء الجماعات اليهودية ارتبطوا فى الوقت ذاته فى الوجدان الأوربى ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ، بالمصالح المالية الكبيرة ، وبالبنوك والشبكات المالية والتجارية ، وهى صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد فى عالم التجارة والمال .

وهكذا ، أصبح اليهودى رمزاً متبلوراً لكثير من العناصر محط شك الجماهير وكرهها ، فهو الأجنبي البغيض ، وهو الثورى العلمانى التقدمى الذى يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر ، وهو أيضاً رجل المال الذى لا يكترث بأى قيم سوى الربح ، ولا يرتبط بأى أرض سوى السوق . وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره ألزاسيا وأجنبيا وعضوا في طبقة الممولين الأثرياء .

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التى كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية وتطرح صورة للمجتمع المبنى على التضامن المسيحى والتكافل الاجتماعى والتعاون الاقتصادى (الجماينشافت) تلك الصورة التى تقف على الطرف النقيض من المجتمع الصناعى الجديد المبنى على التنافس والتقاتل الذى يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح والأقوى وحسب (الجيسيلشافت) . وقد انضم أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية المتركزين فى العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التى أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة، فاليهودى كان رمزاً مهماً بلا شك للقوى الجديدة، ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة إذ إنه كان جزءاً من كل ، جزءا من القوى الاجتماعية المتصارعة فى

المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر والتي كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها ، وقد حولت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة للصراع فيما بينها .

أحداث الوقعة

ففي عام ١٨٩٦ ، اكتشف جورج بيكار رئيس مخابرات الجيش الفرنسي ، والبطل الحقيقي لواقعة دريفوس ، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه ، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور إسترهازي الذي كان قد لعب دوراً مهماً في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة لنكايتن دريفوس . وقد حاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمة ، ولكنه أمر بالتزام الصمت ونقل إلى تونس بسبب ذلك .

وقد شنت حملة إعلامية مكثفة قادها المفكر الفرنسي اليهودي برنارد لازار للمطالبة بإعادة النظر في القضية حيث كتب عدة مقالات دافع فيها بحماس عن دريفوس ، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية لاقتناعه ببراءته . وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار ، قبض على الميجور إسترهازي وحوكم ذراً للرماد في العيون ، ولكن سرعان ما برئ لعدم كفاية الأدلة . فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إني اتهم» هاجم فيها المحاكمتين ، وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العلني وحكم عليه بالسجن ففر إلى إنجلترا .

وفجأة برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية، فقد انتحر الكولونيل هيوبرت جوزيف هنري في أثناء استجوابه ، وهو شاهد الإثبات الأول في القضية ، بعد أن اعترف بتزويره الوثائق التي أدت إلى إدانة دريفوس . وعندما علم إسترهازى بحادث الانتحار اعترف بجريمته وفرّ إلى إنجلترا . وفي صيف عام ١٨٩٩ أمرت محكة النقض بإعادة محاكمة دريفوس على ضوء الأحداث التي استجدت تحت ضغط بعض الشخصيات من ذوى النفوذ في الجيش ، ولكن أعلن مرة أخرى أنه مذنب . وفي هذه المرة حكم عليه، مع مراعاة الظروف المخففة ، بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمسا منها في المنفى ، وبعد عدة أيام أمر الرئيس الفرنسي إميل لوبيه بالعفو عنه . وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين عنه على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة وذلك لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص ، غير أن ألفريد دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية فكان كل ما يتمناه ، وتتمناه عائلته الثرية المندمجة ، هو الإفراج عنه سواء عن طريق العفو أو التبرئة ولهذا فقد قبل قرار العفو ، أما بيكار فقد أصبح بطلاً قوميا ورقّاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريجادير جنرال ، وعين فيما بعد وزيراً للحرب .

ثم فتحت محاكمة دريفوس، مرة أخرى عام١٩٠٢ بضغط من القوى العلمانية والثورية وصدر الحكم بتبرئته، وأعيدت له حقوقه

السابقة ، وعين في هيئة الأركان مرة أخرى بوظيفة ميجور ومنح نوط الشرف ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة . وقد عين في أثناء الحرب العالمية الأولى برتبة كولونيل وقائدا لأحد قطاعات باريس ، ثم اعتزل الحياة العامة تماما بعد ذلك وعاش في منزله بقية حياته غير مدرك للدلالات التاريخية والسياسية للواقعة التي ارتبطت باسمه (حسبما أخبرني أحد أفراد أسرتي الذي قابله في منزله عام ١٩٢٦ وقد كان صديقا لابنه) .

وقد عمقت هذه القضية من الخلافات الموجودة بين مؤيدي وخصوم النظام الجمهوري في فرنسا ، وأدت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية ، كما كانت وراء القانون الذي صدر عام ١٩٠٥ بفصل بقايا الدين عن الدولة .



يوسفوس أمام فسبسيان (مخطوطة من القرن الرابع عشر)

الفصل الثامن

ماسادا : بين التاريخ والأسطورة توثيق مضاد *

من أهم الأحداث التى ترد فى الأدبيات الصهيونية والتى حولها الصهاينة إلى واقعة مركزية فى الوجدان اليهودى واقعة ماساده . وطريقة معالجة الصهاينة لهذه الواقعة هو مثل كلاسيكي فى اختزال التاريخ بهدف تسخيره لخدمة الرؤية الصهيونية. و«ماساده» كلمة أرامية تعنى القلعة، وهى آخر قلعة من قلاع اليهود تسقط فى أيدى الرومان أثناء التمرد اليهودى فى القرن الأول

* عبارة «توثيق مضاده عبارة من نحتنا وهي تعني أنني اكتفيت من التوثيق بما يلزم لتفنيد الادعاءات الصهيونية بخصوص واقعة ماساده دون محاولة لطرح رؤية مغايرة أى أنني اكتفيت بالجهد التفكيكي ولم أقم بأى جهد تركيبي ، ربما لأن ماساده في حد ذاتها لا تهمني كمفكر عربي إسلامي ، وما يهمني هو التضمينات والعملية الاختزالية الصهيونية التى فرضت عليها .

الميلادى . والقلعة تقع على صخرة مرتفعة منعزلة عند البحر الميت على حافة الصحراء، وتؤدى لها عدة ممرات واحد يسمى «ممر لثعبان» والآخر يسمى «الصخرة البيضاء» ، ولا يزال هذان الممران يعرفان بهذين الاسمين حتى وقتنا الحاضر . ويذكر يوسفوس المؤرخ اليهودى أن الكاهن الأكبر جوناثان هو الذى أسسها وحصنها ، وإن كانت بعض المصادر تذكر أنها أسست فى عهد الملوك العبرانيين ، وقد أعاد الحاكم اليهودى هيرود تأسيسها وتحصينها وأدخل فيها نظاما متقدما للرى وتخزين المياه . وقد أهتم هيرود بالقلعة لتكون مأوى له يحتمى به ، عند الحاجة ، من الشعب اليهودى الثائر ضده وخوفا من خطر كليوباترة ملكة مصر .

اختزال التاريخ

وتذكر الكتابات الصهيونية / اليهودية (مثل كتاب جرايزيل : تاريخ اليهود) أن اليهود ثاروا ضد أعدائهم الرومان وقاوموهم ببسالة شديدة وتحصنوا بالقلاع الموجودة على نهر الأردن التى ما لبثت أن تساقطت الواحدة تلو الأخرى ، ولكن قلعة ماساده كانت أشجع هذه القلاع فقد حاربت بضراوة تحت قيادة بطل يهودى من نسل عائلة قديمة نبيلة معروفة بوطنيتها يسمى العازر . ولكن المقاومة الباسلة كان محكوما عليها بالفشل بل وكان المحاصرون يعلمون ذلك تمام العلم ، ولذا حينما اخترق الرومان جدران القلعة لم يجدوا ما يجيبهم سوى سكون الموت . لقد آثر المحاربون الانتحار !

وقد حول الصهاينة هذه الواقعة التاريخية إلى أسطورة ثم أحاطوها بالهالات الصوفية وجعلوا منها رمزا للشعب الذي يفضل النضال والانتحار على الاستسلام ، وأصبحت هذه القلعة تجسيدا لفكرة «الشعب الواحد» الذي يختار دائما أن يعيش منفصلا ، فإذا مست مقدساته القومية فإنه يثور ثورة عارمة لا تبقي ولا تذر ، وتساهم إسرائيل في إشاعة هذه التصورات عن الذات اليهودية . فتقوم أسلحة الجيش الإسرائيلي بترديد يمين الولاء على قمة الماساده ، ويقسم الجنود أن «ماساده لن تسقط ثانية» ، كما يتم تنظيم رحلات لأفواج من السياح اليهود وطلبة المدارس الإسرائيلية للحج إلى القلعة . وتحرص إسرائيل على أن تدرج زيارة هذه القلعة المقدسة ضمن برنامج كل زعيم سياسي أجنبي يذهب إلى اسرائيل (وقد كاد ويلي برانت أن يفقد حياته أثناء زيارته لها) . وفي عام ١٩٦٩ أعادت إسرائيل رسميا «دفن المنتحرين» حتى تضرب الأسطورة جذورها في الوجدان اليهودي : أسطورة الشعب الذي يفضل الانتحار على الاندماج والتعايش !

ولكن النظرة الفاحصة المتأنية تثبت على التو أن المؤرخين الصهاينة قد بذلوا جهدهم في إخفاء كثير من التفاصيل التي لا تتلاءم مع رؤيتهم الاختزالية الأحادية البسيطة . فالثورة اليهودية التي تشكل الخلفية التاريخية الاجتماعية لواقعة ماساده لم تكن ثورة «قومية» كما تدّعي الكتابات الصهيونية وإنما كانت ثورة

اجتماعية نشبت كتعبير عن شقاء الجماهير اليهودية وإفقارها على يد الأثرياء اليهود المتعاونين مع روما والذين كانوا يحكمون فلسطين «كجماعة وظيفية» لصالح الامبراطورية ولصالحهم الشخصي والذين كانوا يحاربون جنبا إلى جنب مع الرومان . وقد استمر الصراع الطبقي بعد ازدياد استغلال الرومان لمستعمراتهم في الشرق فتكون تحالف بين الفريسيين والغيورين (أو القنائين) ولكن انتماء الفريسيين للثورة كان مترددا متخاذلا ، على عكس الغيورين الذين كانوا العصب الحقيقي للثورة لأن أعضاءها أتوا أساسا من صفوف البروليتاريا الرثة التي كانت تتزايد بشكل كبير في فلسطين وفي الامبراطورية الرومانية ككل . وقد وصل الصراع الطبقي إلى درجة كبيرة حتى أن الثوار اليهود قتلوا الألوف من أثرياء اليهود الذين تحالفوا مع الرومان .

أسقط الصهاينة هذا البعد الاجتماعي تماما وبذا تحول الصراع من صراع اجتماعي داخل المجتمع العبراني في العصر الروماني إلى صراع أزلي بين اليهود والأغيار (ولنلاحظ هنا أن إسقاط إحدى المتغيرات هو في واقع الأمر إضافة لمتغير غير موجود ، إذ إنه بإسقاط الصراع الاجتماعي يظهر إلى الوجود الصراع القومي الأزلي المتجرد من الزمان والمكان) ! .

وتلجأ التواريخ الصهيونية إلى حيلة أكثر رقيا في تشويه التاريخ فبدلا من إغفال متغير إغفالا كاملا ، يحول الصهاينة

المتغير الهامشي إلى متغير محوري مما يترتب عنه تغيير الصورة الكلية وفرض اتجاه محدد ومعنى متميز على التاريخ . فواقعة ماساده الانتحارية كما تقدمها التواريخ الصهيونية تفترض أن ما حدث في ماساده هو القاعدة وليس الاستثناء . ولكن الدارس لتواريخ الأقليات اليهودية يلاحظ على التو أن «العبقرية اليهودية» - إن استعرنا مصطلحا صهيونيا - هي عبقرية التكيف والتلاؤم مع الأمر الواقع . ومن هنا كانت السمة الأساسية لتاريخ الجماعات اليهودية في أوربا هو التحالف مع الطبقات الحاكمة أو مع الملك أو البابا أو أي سلطة قائمة لتضمن الجماعة اليهودية لنفسها البقاء والاستمرار (والصهيونية ذاتها من أكبر مظاهر هذه المقدرة على التكيف والتعامل بكفاءة شديدة مع الواقع ، فهي بحسها العملي تتحالف دائما مع القوة الإمبريالية الصاعدة ، ولذلك نقلت مركز نشاطها من الأستانة في أواخر القرن الماضي إلى واشنطن هذه الأيام مرورا ببرلين ولندن وباريس) . والتكيف السريع والمقدرة على التنازل هما من سمات العقلية التجارية الكفء ، ويهود العالم الغربي الذي جاء الصهاينة من صفوفهم ارتبطوا بمهنة التجارة ارتباطا وثيقا . وإذا ما نظرنا لماساده في إطارها التاريخي المتكامل لوجدنا أن اليهود لم يتخلوا قط عن حيويتهم ومرونتهم وتكيفهم ، فماساده لم تكن سوى قلعة واحدة ضمن ثلاث قلاع أخرى سقطت الأولى (هيروديام) دون مقاومة ، واستسلمت الثانية

(مكايروس) بعد مقاومة بسيطة ، وقد تم استسلام المحاربين بعد أن وعدهم الرومان بالسلام والحياة ، ولم تنتحر إلا ماساده - أى أن قلعتنا الصهيونية ليست القاعدة بأية حال ، فالقاعدة هى تفضيل الاستسلام «إن أمكن» على الانتحار ولكن لِمَ لم تستسلم ماساده مثل القلاع الأخرى ؟ هنا نجد أن تكنيك «الإضافة» عن طريق «الإغفال» قد استخدم مرة أخرى . تذكر الموسوعات اليهودية أن الثوار اليهود استولوا على ماساده من الحامية الرومانية التى كانت تحتلها عن «طريق الحيلة» دون أى ذكر لهذه الحيلة . ولكن واقعة الانتحار فى تصورى لا يمكن تفسيرها دون أخذ طبيعة هذه «الحيلة» فى الاعتبار ، اذ يبدو أن الثوار اليهود قد أقنعوا الحامية الرومانية بالاستسلام وبإلقاء السلاح فى مقابل الأمان ، وحينما فعلوا ذلك أبادهم اليهود عن بكرة أبيهم - ربما بسبب جهلهم بأصول الحرب وبعض السلوكيات الخاصة بادارة الصراع ، فقد كن المقاتلون اليهود من الفقراء وأعضاء العصابات الهائمة فى الطرقات . لقد استسلم المتمردون اليهود فى القلاع الأخرى لأن فرصة الحياة كانت قائمة أمامهم ، بينما لم يستسلم المتمردون فى ماساده بالذات لأن هذا البديل لم يكن مطروحاً أمامهم .

وهناك احتمال أن يكون القائد الرومانى قد قام بذبح اليهود كما فعلوا هم بالحامية الرومانية ستة أعوام من قبل ، ولكن يوسفوس المؤرخ اليهودى حول المذبحة إلى انتحار جماعى لأسباب

خاصة به سنذكرها فيما بعد . وهكذا نجد اغفال ذكر «الحيلة» يحسّن من صورة اليهود (وذلك لتوظيف التاريخ فى خدمة العلاقات العامة) كما أنه يجعل الانتحار اليهودى مسألة لا تفسير لها - جزءا أزلى من الطبيعة البشرية اليهودية .

ومن التفاصيل التى يهملها التاريخ الصهيونى أن ماسادة لم تكن على جانب كبير من الأهمية (كانت هيروديام هى أهم القلاع)، فنحن نعرف أن القائد الرومانى تيتوس رحل عن فلسطين بعد أن أخمد الثورة اليهودية ولم يشأ أن يضيع وقته فيما لا يفيد ، فترك القلعة لحاكم فلسطين الرومانى ليفتحها بالطريقة التى يراها . فضرب الرومان الحصار حول القلعة لمدة عدة سنوات ثم اقتحموها بعد أن اخترقوا كل الأسوار التى شيدها اليهود وبعد أن أضرموا النار فى سورها الخشبى ثم فى القلعة ذاتها . وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الثورة اليهودية ككل لم تكن مصدر قلق كبير للامبراطورية الرومانية لأن فلسطين لم تكن على جانب كبير من الأهمية ، وإنما كانت مجرد بلد صغير يسبب شيئا من الصداع للامبراطورية التى كانت ترغب فى فرض «السلام الرومانى» على الشعوب ونجحت فى ذلك إلى حد كبير ، وإذا ما عرفنا أن الثورة اليهودية كان محكوما عليها بالفشل من البداية بسبب قسوة روما الإمبريالية (وكان يوسفوس الذى زار روما يعرف هذا تمام المعرفة ولذلك كان من دعاة الاستسلام) . إذا ما عرفنا كل هذا تفقد واقعة

ماساده كثيرا من بريقها وتصبح واقعة لا أهمية لها لا في تاريخ البشرية ولا في تاريخ الجماعات اليهودية ذاتها ، تماما مثل أنف كليوباترة الذي كان يظن بعض المؤرخين أنه لو طال قليلا لتغير مجرى التاريخ !

الفلافيوس كومبلكس

ولكن من أكثر الأشياء قحة وتزييفا اغفال الكتابات الصهيونية لذكر حقيقة أن هناك مصدرا وحيدا ومشكوكا في أمره لواقعة الانتحار في ماساده - هذا المصدر الوحيد هو كتابات المؤرخ اليهودي يوسفوس فلافيوس (٣٨-١٠٠م) واسمه العبري الأصلي هو يوسف بن متتياهو هاكوهين «سياسي وقائد عسكري ومؤرخ يهودي من أسرة فريسية أرستقراطية وصف بأنه شخص شديد الطموح ولا ضمير له» . وعلى الرغم من أن التعليم الذي تلقاه يوسفوس كان تعليما دينيا يهوديا وحسب إلا أنه كان يبدو على دراية كبيرة بالعالم فقد سافر إلى روما وتعرف على مدى قوتها واستنتج عبث الوقوف أمام هذه القوة . وحينما نشبت الثورة اليهودية عينت الحكومة الجديدة يوسفوس قائدا عسكريا لمنطقة الجليل عام ٦٦م، وهي منطقة كانت معروفة بخصبها وثرائها ، كما أنها كانت تعد أهم منطقة من الناحية العسكرية ، لأنه كان من المتوقع أن يأتي الرومان من الشمال وأن يقابلوا أول من يقابلون تحصينات هذه المنطقة العسكرية . وحينما وصل الرومان سرعان ما

تساقطت التحصينات والمدن اليهودية الواحدة تلو الأخرى ، فحاول يوسف هاكوهين الهرب ولكنه لم يفلح إذ أبقاه جنوده رغم أنفه (ويبدو أن علاقة هاكوهين بجنوده لم تكن طيبة بسبب الانتماءات الطبقية ، فالقائد كان فريسيا ثريا مترددا فى قراراته على علاقة طيبة بالأثرياء المتحالفين مع روما ، يعيش وسط جنود غيورين من الفقراء) . ثم فر القائد والجنود إلى أحد الكهوف وهناك قرر الجنود الانتحار بطريقة جماعية . فقام هاكوهين بعمل القرعة بنفسه بطريقة كفلت له أن يكون آخر المنتحرين ثم أشرف على عملية الانتحار ذاتها . ولكن حينما لم يبق الا هو وشخص آخر أقنعه بالاستسلام للرومان بدلا من الانتحار . وحينما مَثُلَ هاكوهين بين يدى القائد الرومانى فلافيوس فسبسيان ادعى النبوة وتنبأ للقائد الرومانى بأنه ينتظره مستقبل باهر وأنه سيتبوأ عرش روما (ويقال إن الحاخام يوحنا بن زكاى الذى فر من القدس قبل تحطيمها قد فعل نفس الشيء . وهاكوهين وبن زكاى من الفريسين حماة تقاليد «الشريعة الشفوية») . بعد هذا قام هاكوهين المتنبى بحملة إعلامية («بروباجندا» على حد قول الموسوعة اليهودية) للترويج لنبوته ثم غير اسمه من يوسف إلى يوسفوس واتخذ اسم القائد الرومانى اسما ثانيا له وأصبح يدعى يوسفوس فلافيوس (وتغيير الاسم جريمة لا تغتفر لأن اسم اليهودى أمر له دلالة عميقة فى الديانة والتراث اليهوديين ، وفى إسرائيل يغير المهاجرون

اسماءهم بعد وصولهم لأرض الميعاد ، أي يستبدلون اسماءهم الأصلية بأسماء عبرية ، كما أن هناك قانونا يفرض على كل الشخصيات المهمة عبرنة اسمائها)

كل هذه الحقائق النفسية تؤدى بنا إلى الشك فيما يقوله يوسفوس بخصوص ماساده ، بل يمكننا القول إن هناك ما يمكن تسميته بمركب ماساده «الفلافيوس كومبلكس» (وليس الماساده كومبلكس) فهزيمة يوسفوس ثم اشرافه على انتحار جنوده قد تركت أثرا عميقا عليه وسببت له كثيرا من الآلام النفسية (فنحن نفترض أنه إنسان مثلنا يأكل ويشرب ويحب ويتعذب) فهذا الرجل الذى أشرف على ذبح إخوانه في الدين وفى القتال والذى انسلَّ كالشعرة من العجين بعد أن أتى بفعلته ثم تحول إلى داعية للرومان ينتقل مع القوات الرومانية أينما ذهبت مبشرا وداعيا للاستسلام للامبراطورية - هذا الرجل كان يشغل أهم منصب عسكرى وكان مسئولا عن الهزيمة . لا غرو اذن أن يحاول أن يحرز ما فشل فيه من انتصارات على الورق ، وأن يعوض إخوانه الذين انتحروا بقطعة إعلامية باهرة ، وكانت كتاباته هى إفراز هذا الكومبلكس ، ففيها نجد كل الفضائل والخلات الأسطورية التى لا يتحلى بها إنس ولا جان خاصة إذا كان إنسا ضعيفا مثل يوسفوس فلافيوس (وهو فى هذا يشبه من بعض النواحى صهاينة الولايات المتحدة النشطين ، الذين يحضرون كل المهرجانات الصهيونية ويدافعون عن

إسـرائيل على صـفـحـات الجـرائد دفـاعـا بطوليـا وينسـبـون كل الفـضـائل الصـهـيـونيـة الأسطورية للآخـرين ، بل ويسـتـنكرون على الإسـرائيليين أى انحـراف عن الحيـاة اليـهـودية المثـالية الحـقـة ثم يستمرون فى حياتهم البابلية العفنة - حسب مقاييسهم الطاهرة !).

وقد قضى يوسفوس بقية أيامه فى روما حيث كتب بعض المؤلفات من أهمها كتاب تاريخ اليهود (٧٥م) حاول فيـه أن يدافع عن أعمال تيتس في فلسطين أمام اليـهود . وأن يدافع أيضـا عن اليهود أمام الرومان . وقد حاول فى الوقت ذاته أن يلتمس الأعذار لنفسـه لانشـقـاقـه على بني جلدته . وقـد صـور يوسـفـوس الحـرب اليـهـوديـة من وجـهة نظر «فريسـيـة» على أنها حرب من صنع بعض المهووسين (أو القنائين) حرب لم يردها اليهود كشعب وإنما فرضت عليـهم فـرضـا من قـبل جـمـاعـة من «اللصـوص» لم تترك إثمـا دون اقترافه . أما كتاب يوسفوس الثاني ، قدم اليهود ، فقد كتب هو الآخر لأغراض إعلامية (إن صح استخدام هذا المصطلح الحديث) فـهـو كـتـاب يدافع عن اليـهـود ويصف عاداتهم وأخـلاقـهم بطريقة تحببهم إلى النفس ، وهو بهذا كان يطمح إلى تبرئة نفسه من تهمة الخـيـانة التي لصقت به . أي أن كتـابات يوسـفـوس في مـعظمـهـا اعتذارية تبريرية . وقد وصفته الموسوعة اليهودية بأنه لا يعتد به

كمؤرخ فطموحه كان أساسا طموحا أدبيا ووصفت كتبه بأنها ذات قيمة أدبية بالدرجة الأولى .

هذا اذن هو المصدر الوحيد المعروف لواقعة ماساده ، وهو مصدر «أدبي» مشكوك في قيمتة التاريخية . ونحن لو نظرنا بقليل من التمعن لحادثة ماساده كما وصفها يوسفوس لوجدنا أنها تتصف بكثير من سمات الحواديت الميلودرامية :

الموقف المبدئي موقف ميلودرامي للغاية لا مخرج منه البتة الا بانفجار أبوكاليبسي كامل ، فالأبرياء يحاصرهم الرومان حصارا كاملا وكأنهم يد القدر الذي لا راد لقضائه .

يتخلل هذا العمل الأدبي «مناظر مؤثرة» ، كما أننا نجد مآسي الحرب ومناظرها الهائلة وقد صورت بشكل نابض بالحياة وهي تصل إلى الذروة في البانوراما الخاصة بتحطيم الهيكل (على حد قول الموسوعة اليهودية) .

يلاحظ تركيز يوسفوس على التفاصيل ربما ليزيد من استمتاع القارىء بهذا العمل الأدبي أو ربما ليمكنه من معايشة التجربة المثيرة بشكل مباشر . ولذا يقول المؤرخ اليهودي : «حينما استولى الرومان على القلعة كان الأثاث لايزال محتفظا بكل بهائه أما القمح فكان متوافرا وبكميات كبيرة ، والفاكهة كانت لاتزال طازجة وناضجة» ، وإلى جانب كل ما تشتهيه الأنفس السوية

الإنسانية ، كان يوجد ما تشتهيه الأنفس غير السوية العدوانية ، فالقلعة كانت مزودة على حد قول يوسفوس «بكميات هائلة من الأسلحة تكفى عشرة آلاف رجل» (بينما كان عدد المحاصرين ستة آلاف فقط على ما أذكر) .

تدور القصة حول شخصية بطولية خارقة البطولة أعنى شخصية العازر قائد اليهود المحاصرين ، وأول من توصل لفكرة الانتحار بعد أن تعرف على حقيقة الموقف (أو المأزق) العسكرى الذى وقع فيه هو وأصحابه وأتباعه . وأبعاد شخصية العازر كما رسمها يوسفوس تقترب من أبعاد شخصية شمشون يجمع العازر كل اليهود ويلقى فيهم بخطبة عصماء تعقبها مناقشات ومداولات طويلة يقول فيها : «إن الإله الذى اختار الشعب اليهودى قد غير رأيه وقرر تحطيم شعبه ، والشواهد على ذلك كثيرة ، فقد قتل عدد كبير من اليهود وسقطت القدس ذاتها ثم حرقت وخربت على يد أعدائنا وكنا نأمل فى البقاء (وليس الانتحار) ولكن الإله قد أقنعنا أن كل آمالنا إن هى الا عبث وهراء ، فالقلعة التى كنا نظن أنها لا تهزم ثبت أنها لا تصلح كوسيلة للخلاص . وعلى الرغم من أنه يوجد لدينا الكثير من الطعام والشراب ، إلا أن الخلاص نفسه فى حكم المستحيل، بل إن النار التى كانت ترسل الرياح بلهيبها على الأعداء، عادت فهبت على الحائط الذى بنيناه حاملة اللهيب علينا نحن ، لا بمحض إرادتها وإنما علامة على غضب الاله علينا بسبب

ذنوبنا العديدة» . (كانت الريح قد هبت على النيران التى أضرمها الرومان حول القلعة فلفحتهم ألسنة الهيب ، فقرر اليهود المحاصرون أن هذه ولا شك هى إرادة الإله [وادعاء معرفة إرادة الإله شيء سهل ويسير للغاية بالنسبة لمدعي النبوة] ولكن حينما هبت الريح في اتجاه مضاد تيقن العازر أن هذا ولا شك هو علامة غضب الإله) . ويطلب العازر فى نهاية الخطبة أن يقتل الأطفال أولا ثم الزوجات ثم «يقتل الواحد منا الآخر ، ولكن قبل كل شيء فلنتلف نقودنا وقلعتنا بالنيران حتي يخفق الرومان فى الإمساك بأجسادنا أو الاستيلاء على أموالنا مما سيدخل على قلوبهم الحزن» (وهذه تفاصيل غير بطولية من وجهة نظر أدبية محضة ، فالبطل لتراجيدى الحقيقى ذو الأبعاد الشمشونية لا يذكر أمورا دنيوية مثل النقود ، فما بالك بالعازر الذى يساويها بجسده بل بالقلعة الشامخة ذاتها - رمز وحدة الشعب اليهودى - إن فى هذا تسطيحا وأيما تسطيح وتفريغا للأسطورة من محتواها البطولى الخرافى - هل سمع أحد عن المبالغ التى كان يحملها يوليسيس أو حتى الاسكندر المقدونى ؟) .

دارت بعد الخطبة - كما قلنا - مناقشات ومداولات دونها يوسفوس بنشاط شديد . ولا ندرى إن كان أحد المتداولين قد أشار إلى ان الانتحار ليس إحدى الفضائل اليهودية وأن الدين اليهودى

ينهى عنها ، فالفرد اليهودى حسب التشريع اليهودى لا يملك حياته أو نفسه ، ولذا يعد الانتحار قتلا (سفر التكوين ٩/٥) . وقد سمح التشريع اليهودى بالانتحار في بعض الحالات النادرة ، ومن ينتحر تحت غير هذه الظروف ليس له من نصيب فى العالم الآخر، ولهذا يجب دفن اليهودى الذى ينتحر خارج مقبرة اليهود أو إن دُفن فيها فهو يدفن منفصلا («ودفن المنتحرين» لهذا السبب ليس عادة يهودية وإنما هو بدعة صهيونية /إسرائيلية) . ولا ندرى إن كان أحد المتداولين آثار مع العازر مشكلة معرفته للإرادة الإلهية ، وأن ادعاء معرفة هذه الإرادة هو ادعاء للألوهية ولكن مهما كانت طبيعة المداولات فإن قرار الانتحار قد اتخذ ونفذ . وتصل الأحداث المثيرة إلى قمتها فى «المنظر الأخير» حينما ينظر آخر الأحياء في ماسادة إلى كل الجثث ليتأكد من أن الجميع قد ماتوا ، وحينما يتأكد من ذلك يضرم النار فى القلعة – وبقوة ساعديه يغمد سيفه كله في جسده ويخر صريعا إلى جوار أقاربه – النهاية ؟

لا إنها ليست النهاية ، وإنما هى نهاية «القصة داخل القصة» وهى حيلة بلاغية معروفة كنت أدرسها مع طلبتى فى الجامعة في محاضراتى عن الأدب الإنجليزى . فالقصة إذا كانت غير معقولة ولا يمكن تصديقها ، يحاول الكاتب عادة أن يعفى نفسه من مسئولية تقديمها مباشرة للقارىء ويلجأ لخلق شخصيات

قصصية تقف بين عـالم الواقع وعـالم الوهم وتقـوم هى بحكاية القصة الرئيسية بنفسها . ومن هنا كانت التسمية «قصة داخل قصة» ، وعادة ما تمثل القصة الأولى الإطارية مرحلة وسطا بين عالم الحقيقة وعالم الوهم وذلك حتى لا يفتنا الانتقال من العالم الأول إلى العالم الثانى . وهذا هو ما فعله يوسفوس القصاص الماهر بقصة ماساده ، فكل التفاصيل والخطب والمناقشات والمداولات والمناظر الأخيرة المؤثرة التى ذكرها – ما كان فى مقدوره أن يعرضها علينا مباشرة وما كان بمستطاعه أن يتركها دون ذكر مصدرها ! لذلك يذكر المؤرخ أن الجميع قد لقوا مصرعهم بهذه الطريقة البطولية ماعدا إحدى قريبات العازر – امرأة «تفوق الأخريات حصافة وعلما» (تشبه يوسفوس من بعض الوجوه وتفر مثله من الانتحار الجماعى حتى تخلد ذكرى ماساده !) . تهرب هذه المرأة ومعها ثلاثة أطفال وامرأة عجوز ، ويذهب الجميع إلى مكان يختبئون فيه ولا يراهم أحد . هذه المرأة التى تمثل القصة الإطارية المرحلية هى التى سمعت الخطبة وهى التى سجلتها بكل حذافيرها من أجل الحقيقة والتاريخ والعلاقات العامة ، واعتقد أن مدمنى الأفلام الميلودرامية يعرفون ضرورة إنقاذ فرد أو اثنين فى آخر لحظة ليقصوا علينا تفاصيل الكارثة المهولة وإلا وقعنا فى مشاكل لا حصر لها ولا عدد بخصوص الحبكة ! والعهدة دائما على الراوى!.

ووصفنا لتواريخ يوسفوس بأنها أعمال أدبية ليس من قبيل التعسف في شيء ، فالموسوعة اليهودية ذاتها تصف هذه التواريخ بأنها «أعمال أدبية راقية» «أوصافها ملحمية بمعنى الكلمة» و«مناظرها مؤثرة بشكل مرن» .

ووصف الموسوعة لكتابات يوسفوس لا يختلف كثيرا عن وصف هرتزل لفكرة الدولة اليهودية ، فهو يصفها في مطلع مذكراته بأنها «فكرة أدبية» و«قصة رائعة» - أي أنها شيء متسق مع نفسه ، استعارة أو أسطورة ، ثم تحاول أن تفرض نفسها على الواقع بغض النظر عن تركيبة الواقع وتنوعه .

نحن إذن نتعامل مع عالم أدبي أسطوري يزعم أنه تاريخ . ولكن حتى لو جردنا الواقعة من الإضافات اليوسفية الأدبية ونظرنا لها على أنها واقعة تاريخية أو حتى كحدث إمبيريقي فاننا نكتشف أنها يحيط بها كثير من الشكوك . نعم يوجد مكان يسمى ماساده ، وتوجد جثث وآثار عبرية - ولكن التساؤل يظل قائما عن الواقعة نفسها كحدث أبيريقي . فبعض البحاث ، ومن بينهم الباحثة اليهودية ويبس روزمارين (جويش بوست ٢٤ آب (أغسطس١٩٧٣) أعلنت أن نتائج دراستها تؤكد أن قصة ماساده محض خرافة وأسطورة ، وأنه لا يمكن التدليل على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها هذه القصة .

كتاب الجنرال

يذوب التاريخ إذن ، وتتحول ماساده إلى واقعة بل وواقعة مشكوك في مصدرها وأمرها ! يفرض عليها أي اتجاه وتحملّ بأي محتوى ، وبهذا يصبح التاريخ مسألة بروباجندا وعلاقات عامة . لا غرو إذن أن تكلف الحكومة الإسرائيلية الجنرال بيجال يادين رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي بالقيام بعملية التنقيب عن آثار ماساده . وحيث إن الهدف هو فبركة التاريخ من أجل العلاقات العامة ، يصاحب التنقيب عن هذه الآثار ضجة دعائية ضخمة ويظهر في نهاية العملية كتاب ضخم مصور عنوانه :

ماساده : قلعة هيرود ومقاومة الغيورين الأخيرة :

تأليف : الجنرال بيجال يادين (نيويورك ١٩٦٦) .

ويدل عنوان الكتاب على أنه كتاب تاريخ ، ولكنك تقلب صفحاته عبثا دون أن تجد أي أثر للتاريخ فيه ، فهو كتاب «تنقيب عن الآثار» وحسب ، وهذا أمر منطقي للغاية لأنه إذ كانت ماساده واقعة إمبيريقية ثابتة تقف خارج أي سياق تاريخي فإن الاهتمام بها يترجم نفسه إلى اهتمام لا بالنبض التاريخي الحي وإنما بالتحف والآثار فهي أشياء مادية نهائية (تماما مثل الميلودراما التي تتسم بأنها ، مصمتة فكل عناصرها نهائية متفجرة !) . إن أي كتاب عن حادثة ذات أبعاد تاريخية حقة لابد أن يركز على الأسباب

وعلى النتائج ، ولابد وأن يحاول المؤلف أن يقيم البنية التاريخية التي يدرسها لا كبنية مغلقة على نفسها وإنما في علاقتها بالعوامل المكونة لها (عوامل نشوء وتكوين البنية) ، كما أن المؤرخ الحق هو من يحاول استخلاص بعض الأنماط المتكررة من الظاهرة التي يدرسها حتى تساعدنا هذه المعرفة الجديدة في التعامل مع واقعنا، فالظاهرة المتأيقنة (أي التي تشبه الأيقونة) والبنية المغلقة على ذاتها والتي لا تشير إلى أي شيء خارجها لا يمكننا أن نفعل بها شيئا (كأنها الأحلام أو الكوابيس أو الخواطر العارضة) .

لا يسأل الجنرال عن مدى موضوعية وحياد مصدره التاريخي - يوسفوس - ولا عن انتماءات مؤلفه الطبقية أو الدينية ولا يسأل عن الأسباب التي أدت إلى حدوث الواقعة وإنما يقدم لنا البنية التي يدرسها «كحقيقة نهائية» و«كأمر واقع» و«كفكرة مطلقة» (وهي مطلقة لأنها نهائية ولا تشير إلا إلى نفسها) . في كتاب يقع في ٢٦٧ صفحة هناك وصف للواقعة (وصف وحسب) في أقل من ست صفحات (معظمها صور) ، وبعد هذا نسمع بكثير من التفصيل الممل عن انتصارات يادين ومجموعته الأركيولوجيه ، وعن عدد المتطوعين الذين اشتركوا في الحفريات بل وصورة من طلب التطوع والمكنسة التي استخدمت فركتس ماساده والرواد الأول الذين بدأوا التفكير في التنقيب عن ماساده ...الخ ، ثم تظهر

الواقعة مرة أخرى قبل خاتمة الكتاب في فصل بعنوان «النهاية الدرامية» ، أي أن يادين يعيد بعث التقاليد الأدبية الصهيونية ويعالج التاريخ على أنه شيء مثير يوظف في التأثير على الرأى العام وليس ظاهرة تاريخية توضع داخل ظواهر تاريخية مماثلة أو سياق تاريخى لنفهم معناها .

وفى إطار هذه النبرة والتصور الإعلاميين يمكننا تفسير كثير من جوانب الكتاب واهتماماته ، فمثلا تسلط الأضواء على اكتشاف الحمام الطقوسى ، لأن مثل هذا الاكتشاف يصلح مناسبة إعلامية ضخمة . وبالفعل يحضر الحاخام دافيد مونتزبرج الخبير فى الحمامات الطقوسية وقوانينها تحيط به كوكبة من أتباعه ومريديه الحسيديين . وقد بدأ الحاخام فى قياس الحمام ليرى ما إذا كان يتفق مع القوانين الدينية أم لا ، وعلا القلق النفوس وتهدجت الأنفاس «وارتسم تعبير جدى على وجه الحاخام . ثم عقد حاجبيه كأنه فى شك فيما إذا كان الحمام كوشر (شرعيا) أم لا ، ولكنه بعد أن أتم فحصه بعناية فائقة أعلن بوجه تشع منه البهجة ، ولفرحتنا ، أن الحمام من أحسن الحمامات على الإطلاق فهو يتفق مع قوانين الشريعة» (والترجمة هنا من كتاب الجنرال ص١٩٦) . وبطبيعة الحال لم يدع الجنرال الفرصة تمر دون أن يقوم بتصوير

الحاخامات بنفسه . (فالصورة مثل الأيقونة ليست مجرد دال يشير إلى مدلول ، وإنما هي الدال والمدلول في ذات الوقت) . أُعَلِّمُ طلبتي أن الأعمال الأدبية الناجحة لابد أن تشوق القارىء دائما وأن الأديب الناجح يعرف كيف يصل بعمله إلى قمم فرعيه قبل أن يصل إلى الذروة النهائية ، ويادين قد فعل ذلك على أحسن وجه وأنا لا أعارض الاستعارة ولا أرفض الكتابة الأدبية بل على العكس أرى أن اللغة المجازية لها دور أساسي في عالم التكنولوجيا ذي البعد الواحد ، ولكنني أقف بضراوة ضد اللغة المجازية التي تدعي لنفسها ما لا تملك . ويادين مثل يوسفوس يكتب أعمالا أدبية تدعي لنفسها الصدق التاريخي ، وفي هذا خلط وأي خلط بين المستويات تماما كما خلط هرتزل بين الاستعارة والواقع ، وكما يخلط بعض اليهود بين التوراة والتاريخ ، وكما يخلط الصهاينة بين أرض الميعاد وفلسطين وكما يخلط الإسرائيليون بين الحدود المقدسة والحدود الآمنة والحدود التاريخية والحدود الفعلية والحدود المثالية والحدود الممكنة !

وإلى جانب الحاخامات الحسيديين توجد المتطوعات من الدول الاسكندنافية (وما أدراك ما الدول الاسكندنافية) مرتديات البكيني . وأنا من القائلين بأنه لا توجد ضرورة ملحة لنشر صور الباحثات بالبكيني في كتاب علمي له أبعاد قومية / تاريخية /

دينية ، اللهم الا إذا كانت هناك علاقة عضوية بين الصور وبين موضوع البحث ، وحتى إن نشرت صورة من هذا النوع ، فليس هناك من ضرورة للتعليق على المايوه!. ولكن في كتاب الجنرال الاركيولوجي عن ماساده توجد صورة فتاة ترتدى البكيني كتبت تحتها هذه العبارة «أكبر صعوبة تواجه من يعيش في ماساده هي الحرارة المرتفعة بعد هطول المطر ... والمايوه البكيني (وليس الانتحار) هو أحد الحلول لهذه المشكلة» . وحيث إن الهدف هو العلاقات العامة لابد أن تدعم هذه الحقائق المنعشة بالصور (تماما مثل إعلانات الكوكاكولا المعادية للأيديولوجية والفكر !) وبالفعل نرى صورة المناضلة الحسناء شاهدا ناطقا على شئ لا أعرفه بالضبط إذ يبدو أنني لا يمكنني استخلاص قوانين عامة أو نماذج تفسيرية من مثل هذه الصورة ، فالجسد المجرد بنية مغلقة على نفسها - أمر واقع وحقيقة مطلقة ! ولكن زوجتي - التى تفهم في أمور الدنيا النسائية أكثر مني - أخبرتني بعد نظرة عابرة أن بشرة الفتاة لم تلوحها الشمس ، وأنها يبدو أنها خلعت ملابسها كي تلتقط لها الصورة . ومما يدعم من شكوكنا السياحية الإعلامية (لأنها شكوك لا علاقة لها بماساده ولا بالتاريخ ولا بأى شئ إنساني) إن الفتاة تمسك في رقة متناهية بمنخل ، تمسك بطرفه الآخر امرأة ترتدي ملابسها كاملة ، بل وترتدي إيشارب ! هل هو استخدام السيكس أبيل من أجل تدعيم أسطورة ماساده ومن أجل التفسير الصهيوني

للتاريخ ؟ ولكن هل يمكن لفتاة مرتدية البكيني أن تثبت شيئًا أو تنفي شيئا عن أي شيء يخرج عن نطاق جسدها الصغير ؟

ويتوج الكتاب النضالي المصور بفصل عن مجموعة الطوابع والميداليات التذكارية التي صدرت بمناسبة اكتشاف ماساده . ولكن الكتاب لا يذكر شيئا عن ثمنها الأصلي وثمنها الحالي والأرباح التي سيحققها الهواة في المستقبل الزاهر ، وفي الأيام الوردية المقبلة . وفي الكتاب إشارات عديدة لها دلالات عميقة فالكتاب ينبهنا إلى أن أول من اهتم بموضوع التنقيب عن ماساده هم أعضاء الإرساليات الأمريكية في فلسطين . ولعل هذا الاهتمام الأمريكي/ الصهيوني / الإسرائيلي هو مؤشر آخر على مدى عمق الارتباط الوجداني بين الشعب الأمريكي وأعضاء التجمع الاستيطاني في فلسطين ، وهو ارتباط يتخطى أحيانا المصالح الاقتصادية الذاتية ، فالوجدانان الأمريكي والإسرائيلي يرتبطان بالريادة والعنف ومعادة التاريخ والاستيطان والإبادة .

وبعض الصدف ترقى إلى مستوى الرمز ، ولعل جنسية أمين متحف ماساده وجنسية زوجته هي إحدى هذه الصدف الرمزية فكلاهما يأتي من دولة استيطانية مبنية إما على الإبادة أو على الإحلال - فأمين المتحف يهودي من جنوب أفريقيا أما زوجته

المرشدة فهى يهودية من الولايات المتحدة وكلاهما هاجر ليعيش فى ظلال المنتحرين !

ولكن لم نبحث عن الصدف لنحولها إلى رموز . والكتاب ثرى بالعبارات الغنية بالدلالة والتى لا تحتاج إلى أى تفسير ، يقول يادين في كتابه إنه بعد أن طرد اليهود الرومان من ماسادة عاشوا فيها لمدة ست سنوات كجماعة تحيا حياة «عادية للغاية» دون تدخل من أحد . وقد فاجأتنى عبارة «عادية للغاية» لأنه من العسير للغاية على أى انسان سوىٌ استخدام مثل هذه العبارة لوصف الحياة داخل قلعة لمدة ست سنوات. قد تكون حياة بطولية أو انتحارية أو نيتشوية ، سمِّها ما شئت ، ولكنها لا يمكن أن توصف بأنها «عادية» . ولكن تصورنا لما هو «طبيعى» أو «عادى» هو فى نهاية الأمر أساس تصورنا للحياة كما ينبغى أن تكون . والواقع الإسرائيلى كما يتخيله الصهاينة هو «واقع منفصل مسلح محاصر»، وبهذا تصبح ماسادة طبيعية و«عادية للغاية» ، والقاعدة وليست الاستثناء . وقد استوقفتنى أيضا بضع كلمات أخرى من خطبة العازر فهو يقول : «الانتحار من أمر الإله ! بينما الحياة والاستسلام من أمر الرومان» أى أنه نصب من نفسه نبيا أو عرافا يعرف إرادة الاله ويربط بينها والموت واهلاك الذات ، أما الاغيار

فهم الداعون للحياة ! ومصطلح العازر كما أورده أو ألفه يوسفوس، وكما اقتبسه الجنرال لا يختلف كثيرا عن المصطلح الصهيونى، فالصهاينة يرفضون فكرة البقاء والتكيف والاندماج والامتزاج؛ لأنها كلها أفكار تنطوى على فكرة التاريخ بكل مافيه من تدرج ومرحلية وتطور وتفاعل وإنسانية سوية ، ويطرحون بدلا منها تصورات أسطورية لا إنسانية عن الرفض والانفصال ثم الانتحار البطولى !

العازر الجديد

ذكر يادين نقلا عن يوسفوس هذه العبارة : «لم يفر العازر، ولم يسمح لأحد بالفرار» . وقد استرعت انتباهى هذه العبارة الرهيبة لأنها تفترض أن القرار لم يكن بالإجماع ؛ فقد كان هناك من يريد الاستسلام والبقاء . ولكن العازر الذى يدعى معرفة إرادة الإله (ومسار التاريخ اليهودى الذى يعبر عن هذه الإرادة) قرر فرض ماساده فرضا .

والحركة الصهيونية لاتختلف عن العازر فى مثاليته الانتحارية ، فهى تدعى لنفسها محورية تاريخية لا تمتلكها ، ثم -

منطلقة من هذه الشرعية الوهمية - تقف ضد مسار التاريخ، وتفرض على اليهود تصوراتها بخصوص ما تسميه بالشخصية اليهودية الانتحارية . ثم تلقى بالاسرائيليين فى أتون الحرب المرة تلو المرة ، مدعية أن الجحيم الاسرائيلى والوطن اليهودى المنفصل هو الفردوس الأرضى الحقيقى الذى يطمح إليه كل يهودى سوى ! وباسم المعرفة النبوية الباطنية «للحقيقة» سلمت الصهيونية يهود أوربا إلى النازى فى نظير تسليمها النخبة الحقيقية الصهيونية (نخبة من أفضل العناصر البيولوجية كما قرر ايخمان) وباسم هذه المعرفة أطلقت النيران على يهود العراق ليهاجروا إلى أرض الميعاد.

ويظهر نجاح التصور الماسادى الطوباوى فى شيوع عبارات مثل «لا خيار» و«لامناص من الحرب» بين الاسرائيليين . وقد استخدم ديان مصطلحا ماساديا فى جنازة روى روتنبرج الذى لقى مصرعه على يد الفلسطينيين حين أكد أن اسرائيل ترتكز إلى السيف : «هذا هو قدر جيلنا ، وخيار حياتنا ، أن نكون مستعدين مسلحين ، اقوياء غلاظا ، وإلا سوف يسقط السيف من قبضتنا ، وحينئذ تنتزع حياتنا» .

«لم يفر العازر ولم يسمح لأحد بالفرار» لا ولم يستشر أحد المهاجرين ولا الإسرائيليين ولاجنود الاحتياط فى خط بارليف لمدة ست سنوات - التاريخ فى خدمة المثال والواقع فى خدمة الأسطورة واليهود فى خدمة الصهيونية . ولكن مع هذا لابد أن ننبه إلى أنه أثناء حرب أكتوبر لم ينتحر أحد من المحاصرين فى خط بارليف بل استسلم كل الأحياء على أحدث الطرق العلمية المتحضرة .

كما أنهم مع تصاعد الانتفاضة لم يتحدث أحد عن ماساده، وإنما تحدث شارون - على سبيل المثال - عن الطائرة المروحية التى ستأتى إلى سطح السفارة الأمريكية لتقل بقية المستوطنين ، تماما كما فعلت فى سايجون .

ومع هذا يلاحظ تزايد نسبة الانتحار بين الجنود الإسرائيليين فى الآونة الأخيرة ، فقد انتحر نسبة لا بأس بها فى لبنان ثم فى إسرائيل بعد الانتفاضة . ولكن الانتحار هنا يحمل مضمونا رمزيا مغايرا تماما للمضمون القومى الذى يستخلصه الصهاينة من واقعة ماساده ، فالجندى الإسرائيلى الذى ينتحر فى

لبنان أو فى إسرائيل إنما يفعل ذلك احتجاجا على دولته التى لم تكف عن الإلقاء به فى حرب تلو الحرب ، وقد سأم صاحبنا من الصراع والحصار - سأم البقاء فى ماساده وحمل السلاح بلا نهاية - فانتحر هربا من الحياة الشمشونية التي يفرضها عليه وجوده الصهيوني .

الباب الثالث

النظام السياسى
فى الغرب



الرئيس ريجان مع مجموعة من الحاخامات .

الفصل التاسع

سيطرة اليهود على الإعلام ونفوذ اللوبى الصهيونى

أصبح الحديث عن سيطرة اليهود على الإعلام وعن نفوذ اللوبى الصهيونى (المتغلغل تماما فى مؤسسات صنع القرار فى الغرب) من ثوابت الخطاب السياسى والإعلامى العربى ، بل وأصبح أسطورة أساسية فيه ، لا تختلف كثيرا عن الإيمان بالبروتوكولات ، فاللوبى مثل البروتوكولات يفسر كل شئ ، ولا توجد سوى قلة قليلة من المحللين السياسيين والإعلاميين ممن لا يقبلون هذه المقولة التى سنحاول اختبار مقدرتها التفسيرية فى هذا الفصل من الكتاب .

ماهو اللوبى ؟

وكلمة «إعلام» مفهومة تماما لمعظم قراء الصحف والكتب ،

على عكس كلمــة «لوبي» Lobby فـهي ليست واضـحة بالنسـبة للكثيرين . واللوبي هو الرواق أو الردهة الأمـامـيـة في فندق ، ولذا يقال : «سأقابلك في لوبي الشيراتون» على سبيل المثال : أي في الردهة الأمـامية التي توجد عادة أمـام مكتب الاسـتقـبـال ، وتطلق الكلمة كذلك على الردهة الكبرى في مجلس العموم في انجلترا وفي مجلس الشـيـوخ في الولايات المتـحدة حيث يستطيع الاعضـاء أن يقابلوا الناس . وحيث إن الصفقات تعقد فيها ، وكما تدور فيها المناورات والمشاورات وتبادل المصالح ، فقد أصبحت الكلمة تطلق مجازاً على جماعات الضغط (الترجمة الشائعة للمعنى المجـازي لكلمة لوبي Lobby) التي يجلس ممثلوها في الردهة الكبـــرى ويحاولون التأثير على أعضاء هيئة تشريعية ما مثل مجلس الشيوخ أو مجلس النواب . وفعل To Lobby يعني أن يحاول شخص ذو نفوذ (يستمده من ثروته أو مكانته أو لأنه يمثل جماعة تشكل مركزا قويا) أن يكسب التـأييـد لمشروع قـانون مـا عن طريق مـفـاوضـة أعضاء المجلس التشريعي في ردهته الكبرى ، فيعدهم بالأصوات أو بالدعم المالي لحمـلاتهم الانتـخـابيـة أو بالذيوع الاعـلامي إن هم نفذوا مطالبه، ويهددهم بالحملات ضدهم وحجب الأصوات عنهم إن هم أحجموا عن ذلك . ويوجد في الولايات المتحدة أكثر من لوبي أو جماعة ضـغط ، تمارس معظم نشاطاتها في العلن بشكل مشـروع وإن كان هذا لا يستبعد بعض الأساليب الخفية غير المشروعية (مثل

الرشاوى التى قد تأخذ شكل منح نقدية مباشرة أو تسهيلات معينة أو منح عقود إلخ) ولابد لممثل جماعة ضغط ما أن يسجل نفسه باعتباره كذلك . وتوجد أشكال وأنواع من جماعات الضغط ، فهناك جماعات الضغط الاثنية مثل اللوبي اليوناني واللوبي الأيرلندي ، كما يوجد الآن لوبي عربي . وهناك كذلك جماعات الضغط الدينية فهناك لوبي كاثوليكي وآخر علماني . وتوجد جماعات ضغط مهنية وجيلية ونفسية واقتصادية ، فيوجد لوبي للمصالح البترولية وآخر لمنتجي الألبان وثالث لمنتجي البيض ورابع لزارعي البطاطس وخامس لنقابات العمال وسادس لمنتجي التبغ وسابع لصانعي السجائر وثامن لمن يحاربون التدخين وتاسع للعجائز وعاشر للشواذ جنسيا ، وبالطبع هناك لوبي كذلك لمن يحاربون الشذوذ الجنسي ويدافعون عن قيم الأسرة . وقد أصبحت جماعات الضغط من الأهمية بمكان أن النظام السياسي الأمريكي أصبح يسمى «ديمقراطية جماعات الضغط» ، أي أنه لم يعد نظاما ديمقراطيا تقليديا يعبر عن مصالح الناخبين مباشرة حسب أعدادهم (لكل رجل صوت) وإنما أصبح نظاما يعبر عن مقدار الضغوط التي يمكن لجماعات الضغط أن تمارسها على المشرعين الأمريكيين لتحديد قرارهم بخصوص قضية ما ، بحيث تصدر تشريعات وقوانين معينة وتحجب أو تعدل أخرى ، فالمواطن الأمريكي لم يعد يمارس حقوقه الديمقراطية مباشرة وإنما أصبح يمارسها من خلال هذه الجماعات .

ويقال إن أهم جماعات الضغط في الولايات المتحدة هي جماعة المدافعين عن حق المواطن الأمريكي في اقتناء الاسلحة النارية (دون ترخيص) واستخدامها للدفاع عن النفس ، وهو حق يعود لجذور الولايات المتحدة الاستيطانية الاحلالية ، ويشبه «حق» المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية في استخدام الأسلحة لقتل العرب «دفاعا عن النفس» ، ويعد اللوبي الصهيوني أيضا من أهم جماعات الضغط .

ومهمة هذا اللوبي ، كما يدل اسمه ، هو الضغط على المشرعين الامريكين لتأييد الدولة الصهيونية . ويتم ذلك بعدة سبل من بينها تجميع طاقات الجمعيات اليهودية والصهيونية المختلفة ، وتوجيه حركتها في اتجاه سياسات وأهداف محددة عادة تخدم اسرائيل . كما أن اللوبي يحاول أيضا أن يحول قوة اثرياء اليهود (خاصة القادرين على تمويل الحملات الانتخابية) وعامة اليهود أصحاب «الصوت اليهودي» إلى أداة ضغط على صناع القرار في الولايات المتحدة ، فيلوح بالمساعدات والأصوات التي يمكن للمرشح أن يحصل عليها إن هو ساند الدولة الصهيونية والتي سيفقدها لا محالة إن لم يفعل . واللوبي ليس منظمة يهودية توجد في مبنى ، وإنما هي إطار تنظيمي عام يعمل داخله عدد من الجمعيات والتنظيمات الصهيونية تنسق فيما بينها لتحقيق هدف واحد ، وأهم

هذه الجمعيات هي «مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية» ولجنة الشئون العامة الاسرائيلية (ايباك) AIPAC . والآن لنرى ما هو سر نجاح الاعلام واللوبي الصهيوني ؟

مصلحة الدولة العليا

من المعروف أن عملية اتخاذ القرار السياسي في العالم الغربي مركبة لأقصى حد فهي تتم من خلال مؤسسات يديرها علماء متخصصون (تكنوقراط) بطريقة «رشيدة» ، بمعنى أنها تتبع اجراءات معروفة ومحددة لا تخضع للأهواء الشخصية ، ولذا لا يتخذ القرار إلا بعد توفير المعلومات اللازمة واشراك المستشارين والمتخصصين . ثم بعد ذلك تتم عملية موازنات صعبة ودقيقة بخصوص حساب المكسب والخسارة وجدوى القرار وقوة العدو ونقط ضعفه . فعلى سبيل المثال حينما قررت الولايات المتحدة دعم الكونترا (مما يعني تدخل في شئون نيكاراجوا الداخلية وإثارة حفيظة دول أمريكا اللاتينية التي تعلم تماما أن نظام الساندنيستا ليس نظاما شيوعيا كما تزعم الولايات المتحدة ، وإنما نظام وطني ينحو منحى يساريا) نقول حينما قررت الولايات المتحدة أن تفعل ذلك فإنها كانت مدركة تماماً أن ثمة خسارة ما ولكن حساب المكسب والخسارة كان واضحا ، فالعائد السياسي (القضاء على نظام قومي يساري قد ينجح في عملية التنمية خارج النطاق الرأسمالي ،

مما يجعله نموذجا يحتذى) كان أعلى بكثير من العادم (تدعيم صورة اليانكى القبيح المستغل وترسيخها في الوجدان اللاتينى). ونفس الشئ ينطبق على قرار غزو بنما والقضاء على صنيعة مهمة للولايات المتحدة فنروييجا كان مخلوق أمريكا القبيح . وحينما أرسلت الولايات المتحدة ، بقواتها للقيام بعملية الغزو فإنها كانت مدركة أن العائد الاجتماعي السياسي (القضاء على واحد من أهم مصادر المخدرات وبالتالى حل مشكلة المخدرات التى تهدد نسيج المجتمع الأمريكي وأمنه القومى ودعم صورة المؤسسة الحاكمة أمام جماهيرها على أنها مؤسسة جادة فى عملية محاربة المخدرات) هذا العائد كان أعلى بكثير فى تصورها من العادم (تدخل قوة عظمى فى شئون دولة صغيرة والقضاء على عميل نافع مفيد) .

ولكن إذا كان التكنوقراط يتخذون القرار حسب اجراءات موضوعية ومعايير محسوبة تضمن توظيف الوسائل على أحسن وجه في خدمة الأهداف ، فإن الأهداف ذاتها لا تحددها اللجان التكنوقراطية ، إذ تتم هذه العملية على أعلى المستويات وتصبح جزءا من العقد الاجتماعي الذى يستند إليه المجتمع ككل ، وتغيير هذه الأهداف لا يتم إلا بثورة اجتماعية شاملة . وحساب المكسب والخسارة والعائد والعادم يتم دائما في أطار ما يسمى بمصلحة الدولة العليا . وهذه المصلحة ليست قضية بسيطة يمكن تحديدها موضوعيا ورياضيا وبشكل اجرائى ، غير شخصى ، فرؤية أعضاء

النخبة الحاكمة لمصالحهم ، والمصالح الفعلية التي يحاولون الحفاظ عليها ، والإطار الرمزى الذى يدركون من خلاله هذه المصالح ، والعقيدة السياسية والدينية التي تستند إليها شرعية النخبة ، تساهم ، بشكل أو بآخر ، في تحديد «مصلحة الدولة العليا» (هذا المطلق العلماني ، جوهر النظرية السياسية الغربية منذ مكيافللى) فما يراه أعضاء النخبة على أنه مصلحة الدولة العليا قد يكون هو مصلحتهم كجماعة أو كطبقة ولا يمثل بالضرورة صالح الدولة ككل أو صالح أغلبية أعضاء المجتمع .

كل ما نود قوله أن محددات القرار السياسي في الغرب ، وبالتالي سلوك الدول الغربية ، عملية مركبة إلى أقصى درجة ، تدخل فيها عناصر ذاتية (طريقة ادراك النخبة لمصلحة الدول العليا) وذاتية / موضوعية (حساب العائد والعادم) وموضوعية (موازين القوى) ، ومع هذا حينما تتحدد مصلحة الدولة العليا الاستراتيجية تصبح هي القيمة الاساسية التي تتفرع عنها كل الاجراءات والقرارات والحسابات .

الاستراتيجية الغربية والنفوذ الصهيوني

وأعتقد أن الغرب قد عرّف مصلحته الاستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية باعتبارها مصدرا هائلا للمواد الخام (الرخيصة) ومجالا خصبا للاستثمارات الهائلة (التي تعود عليه هو وحده بالربح) وسوقا عظيمة لسلعه (التي

ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراء) أو قاعدة استراتيجية في غاية الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو) إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية مثل الاتحاد السوفييتي باستخدامها ضده ، ويعبر هذا الموقف عن نفسه في اصطلاح مثل «الفراغ» الذي كثيرا ما يستخدم للاشارة إلى شرقنا العربي ، وكأن وطننا رقعة أرض أو مساحة لا يقطنها شعب عريق له امتداده الحضاري ، وكأن أوطاننا هي وجود جغرافي رحب مجرد من التاريخ ، أي أننا في الادراك الغربي مجرد شئ قد يصلح للاستخدام أو الاستعمال .

وحتى حينما تتحول إلى أكثر من مجرد مساحة فإن الإدراك الغربي للمنطقة وهو إدراك تحدده مصلحته كما يراها هو أو كما تراها نخبته الحاكمة ومؤسسات صنع القرار فيه - نقول إن الادراك الغربي يرى وطننا العربي على أنه منطقة مأهولة بشعوب وقبائل وأقليات معظمها يتحدث العربية ، وتدين بديانات مختلفة لا يربطها رابط حضاري أو اجتماعي واحد ، لكلٍ مصلحته الاقتصادية ومستقبله السياسي المستقل (وتفتتها يسهل عملية تحويلها إلى مادة استعمالية) وتكمن مصلحة الغرب (كتشكيل حضاري تهم يود استغلال الشرق والاستثمار فيه بما يعود عليه هو بالربح وبتوجيهه لما يخدم أمنه) تكمن هذه المصلحة في الحفاظ على عدم الترابط الحضاري أو الاجتماعي في عالمنا العربي . وهذه هي مصلحة الغرب كما يدركها أهله ، وهذا هو الاطار الذي يتم اتخاذ القرار من خلاله .

وأنا أزعم أن الصهاينة يستمدون نفوذهم وسطوتهم لا من مجابهتهم أو رفضهم لهذا الإطار وإنما لاتفاقهم معه ومسايرتهم له. ويجب ألا يثير هذا الوضع دهشتنا فتاريخ الحركة الصهيونية ليس جزءا من «تاريخ يهودى عالمى وهمى» وإنما هى جزء من تاريخ الإمبريالية الغربية . ولذا فالصهيونية لم تظهر بين يهود اليمن أو الهند أو المغرب وإنما ظهرت بين يهود العالم الغربى ، وهى لم تظهر فى العصور الوسطى ، على سبيل المثال ، وإنما فى أواخر القرن السابع عشر مع ظهور التشكيل الاستعمارى الغربى وبدايات استيطان الإنسان الغربى فى العالم الجديد وفى بعض المدن الساحلية فى أفريقيا وآسيا .

المفهوم الصهيونى لعالمنا العربى يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربى ، فالصهاينة يشيرون إلى فلسطين باعتبارها «أرضا بلا شعب» ، وإلى الضفة الغربية باعتبارها يهودا والسامرة ، وهى مصطلحات تلغى التاريخ تماما . وهم يشيرون إلى الشرق الأوسط على أنه «المنطقة» وهو اصطلاح يشبه فى كثير من الوجوه اصطلاح «الفراغ» ، فكلاهما يؤكد فكرة أن عالمنا العربى مكان بلا زمان، وجغرافيا بلا تاريخ، أو مساحة تسكنها شعوب عديدة متفرقة متناثرة ، والصهيونية فى نهاية الأمر وليدة التراث الفكرى الاستعمارى الغربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى أداته

فى المنطقة ، وقد بدأ الاهتمام الغربى بالصهيونية كفكرة منذ القرن السابع عشر ، ولكن تحول الاهتمام الفكرى إلى فكر سياسى ثم إلى خطاب سياسى ثم إلى مخطط استعمارى ثابت بعد ظهور محمد على الذى كان يهدد المصالح الغربية لأنه كان من الممكن أن يقوم بملء «الفراغ» فى المنطقة إما عن طريق طرح نفسه على أنه القوة الجديدة ، أو عن طريق ادخال العافية على رجل أوربا المريض ، ومن هنا كانت فكرة الدولة الصهيونية ، ومن هنا الدعم الغربى الحاسم للمشروع الصهيونى - أداة الغرب فى خلق الفراغ والحفاظ عليه كوسيلة للدفاع عن أمن الغرب لا عن أهل المنطقة ، وعن مصالح الغرب لا مصالح العرب . ولا يمكن انكار دور الصهاينة فى ترسيخ هذا الإدراك الغربى للشرق الأوسط ، ولكن تظل العلاقة بين الصهيونية والتشكيل الاستعمارى الغربى هى علاقة السيد بالأداة التى يستخدمها .

ومما دعم هذا التعريف لصلحة الغرب وهذا الادراك له نجاح الدولة الصهيونية فى طرح نفسها على أنها قاعدة عسكرية رخيصة وأدة طيعة يفوق عائدها تكلفتها .

وقد نجحت الدولة الصهيونية فى إلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بالعرب ، ونجحت فى إرهاب المنطقة الأمر الذى بين للولايات المتحدة أن الدولة الصهيونية استثمار جيد وأداة رخيصة .

هذا هو السر الحقيقي للنجاح الصهيوني في الغرب ، فهو لا يعود لسيطرة اليهود على الأعلام أو لباقة المتحدثين الصهاينة أو إلى مقدرتهم العالية على الإقناع والإتيان بالحجج والبراهين أو إلى ثراء اليهود وسيطرتهم المزعومة على التجارة والصناعة وإنما يعود إلى أن صهيون الجديدة هي جزء من التشكيل الاستعماري الغربي وإلى أن الإعلام واللوبي الصهيونيين يمثلان أداته الرخيصة : دولة وظيفية عميلة للولايات المتحدة تؤدي كل ما يوكل لها من مهام بنجاح وتنصاع تماما للأوامر ، ولا توجد سوى مناطق اختلاف صغيرة بينها وبين الولايات المتحدة ، تنصرف أساسا إلى الأسلوب والإجراءات لا إلى الأهداف النهائية - اختلافات يمكن حسمها عن طريق الإقناع والضغط كما يحدث عندما تطلب السعودية صفقة أسلحة ولا ترضى إسرائيل عن ذلك ، أو عندما تريد إسرائيل توسيع رقعة استقلالها قليلا عن طريق إنتاج سلاح مثل طائرة اللافي ولا ترضى المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية عن ذلك . فالاختلاف ينصرف إلى التفاصيل لا إلى «المصلحة» وإدراكها ، ومن هنا يمكن إدارة الحوار حسب قوانين اللعبة المتعارف عليها وتتم ممارسة الضغط داخل إطار من التفاهم بخصوص المبادىء الأساسية ومن داخل النسق لا من خارجه .

وعد بلفور

وحتى أدلل على مقولتى أن نجاح الصهاينة الإعلامى وقوة اللوبى الصهيونى مستمدان من اتفاق المصالح والإدراك لا من عبقرية الصهيانة الخاصة سأضرب مثلين واحداً تاريخيا والآخر معاصرا. أما المثل الأول فهو خاص بصدور وعد بلفور . فمن المعروف أن الوجود اليهودى فى ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى كان قويا للغاية ، وكان اليهود يشغلون مناصب حكومية مهمة ، ويوجدون فى مواقع اقتصادية ذات طبيعة استراتيجية ، فكان أهم ثلاثة بنوك يملكها بعض أعضاء الجماعة اليهودية فى ألمانيا ، كما كانوا متغلغلين فى الإعلام وقيادات الأحزاب السياسية ، وكان منهم كثير من المؤلفين والفنانين . وقد حققوا معدلات عالية للغاية من الاندماج ، مما يسر لهم عملية التحرك داخل المجتمع الألمانى ، كما أن اليهود الألمان اشتركوا بأعداد كبيرة فى الحرب تفوق نسبتهم القومية . والحركة الصهيونية حتى ذلك الوقت كانت حركة ألمانية فى توجهها الثقافى فكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هى الألمانية ، كما كانت برلين هى مقر المنظمة الصهيونية العالمية . وكان الصهاينة على أتم استعداد أن يجعلوا مشروعهم الصهيونى جزءا من المشروع الألمانى الاستعمارى . وهذا فى مقابل انجلترا التى كانت توجد فيها جماعة يهودية صغيرة للغاية ، مندمجة تماما ومعادية بشكل كامل للصهيونية (كان وايزمان والقيادات الصهيونية من شرق أوربا) .

مع هذا نجح الصهاينة فى انجلترا فى استصدار وعد بلفور، رغم ضعفهم وعزلتهم ، بينما فشل صهاينة ألمانيا فى ذلك رغم قوتهم وارتباطهم بالمجتمع . ولا يمكن العودة هنا إلى الصورة الإعلامية أو اللوبى الصهيونى وما شابه من مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان . وإنما علينا أن نعود إلى حركيات الإمبريالية الإنجليزية فى مقابل حركيات الإمبريالية الألمانية . أما الإمبريالية الألمانية فكانت متحالفة مع الدولة العثمانية ولذا لم يكن هناك مجال لاعطاء أى وعود للصهاينة على حساب هذه الدولة . لكن كان الوضع مختلفا بالنسبة للإمبريالية الإنجليزية فقد ظل التحالف قائما بينها وبين الدولة العثمانية حتى اندلاع الحرب ، ولذا حينما صدر أول وعد بلفورى انجليزى وهو الخاص بمشروع شرق أفريقيا فقد كان وعدا بقطعة أرض خارج الدولة العثمانية ، ولكن بعد أن قررت الإمبريالية الإنجليزية تقسيم الدولة العثمانية أصبح من الممكن إصدار وعد بلفور لمجموعة من الصهاينة ليسوا من الإنجليز . وكان على الموجودين فى انجلترا أن يقطعوا علاقتهم مع المنظمة الخاضعة لنفوذ ألمانيا أنذاك ، وكان الوعد هذه المرة وعدا بقطعة أرض داخل الدولة العثمانية .

وتثرثر الدراسات الصهيونية عن مناورات حاييم وايزمان وأحابيله ، وتثرثر الدراسات العربية عن اختراعه الاستيون وعن

النفوذ الصهيوني الهائل ، ولكن قد يكون من المفيد أن نذكر بعض الوقائع التي تضيف أبعاداً أكثر تركيباً للصورة الشائعة . قبل أن تشب الحرب العالمية الأولى ببضعة أيام سافر وايزمان هو وأسرته لقضاء أجازة في سويسرا ، مما يدل على عدم مقدرته على قراءة الأحداث ، وعند نشوب الحرب سارع بالعودة إلى انجلترا في التو فقابل سير لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني الذي حوله إلى الوزير هربرت صمويل ، السياسي اليهودي . وقد رفض وايزمان في بداية الأمر مقابلة صمويل «لأنه يهودي» . فيهود انجلترا كانوا معادين للصهيونية ، وظن وايزمان أنه مثلهم . ولكنه رضخ للأمر الواقع وقابل صمويل في نهاية الأمر ، وعرض عليه المطالب الصهيونية ، فوجدها صمويل متواضعه للغاية وتضايق منه لذلك السبب وأخبره أن يوسع من أفقه قليلا ويزيد من مطالبه To Think big . وهذه لم تكن نصيحة يسديها يهودي لآخر وإنما كان قرارا إمبرياليا بريطانيا . فالوزارة البريطانية كانت قد ناقشت عام ١٩١٤ خمس متتاليات بالنسبة لمستقبل فلسطين واختارت المتتالية الرابعة والخامسة . أما الرابعة فهي تحويل فلسطين إلى مستعمرة صهيونية في التو وتسليمها للمستوطنين الصهاينة ، ولكن وجد أن هذا صعب للغاية نظرا لكثافة السكانية العربية ، فتقرر تبني المتتالية الخامسة أي وضع فلسطين تحت

الانتداب البريطاني لمدة أعوام تفتح أثناءها أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية اليهودية ، ويتم خلالها بناء المؤسسات الاستيطانية الصهيونية التي تقوم بتسليم فلسطين حينما تكون جاهزة لذلك (وهي المتتالية التي تم تنفيذها بالفعل) حينما سمع وايزمان (الملحد) ذلك كان تعليقه : «لو كنت يهوديا مؤمناً لظننت أن المسيح المخلص اليهودي على وشك الوصول» . وهي ملاحظة أدهشت موظفي وزارة الخارجية البريطانية كثيرا ، الذين كانوا يرون وايزمان ، أداتهم في تنفيذ المخطط الامبريالي ، شخصاً مغرقاً في الغيبية والشعوذة وكانوا لايكنون له احتراماً كبيراً . (كما تدل على ذلك الوثائق البريطانية السرية والتي أصبحت علنية بعد مرور خمسين عاماً) . على كل مهما كان الأمر فان العنصر المؤثر هنا ، في أهم واقعة في تاريخ المشروع الصهيوني ، هو المصالح الامبريالية لا قوة الصهاينة الذاتية أو «حيلهم الثعبانية» ، وهذه المصالح هي ذاتها التي كانت تقرر مضمون الكتب البيضاء العديدة التي أصدرتها وزارة الخارجية البريطانية إبان فترة الانتداب .

انجلترا وفرنسا وألمانيا

وإذا نظرنا إلى سياسة كل من انجلترا وفرنسا في الوقت الحالي تجاه الشرق الأوسط لوجدنا أنها تتفق مع السياسة الأمريكية بشكل عام مع اختلافات طفيفة . ويمكن للباحث المدقق أن

يجد أن سياسة انجلترا أكثر اقترابا من السياسة الأمريكية ، وأن السياسة الفرنسية أكثر ابتعادا وربما اعتدالا ، ولا يمكن تفسير هذا في ضوء نفوذ الجماعة اليهودية . فالجماعة اليهودية في انجلترا ضعيفة لأقصى حد من الناحية الكمية ، أما من الناحية الكيفية فهي من أكثر الجماعات اندماجا وهي آخذة في التناقص إن لم يكن أيضا الاختفاء . وعند وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا لم يجد التليفزيون البريطاني مفكرا يهوديا بريطانيا واحدا يدافع عن الموقف الصهيوني ، فاضطروا إلى إحضار نورمان بودوريتس رئيس مجلة كومنتاري من الولايات المتحدة لتقديم وجهة النظر الصهيونية . ومع هذا كان يوجد ثلاثة وزراء يهود في وزارة تاتشر، كما تتخذ الحكومة البريطانية مواقف وصفناها بأنها قريبة من الموقف الأمريكي الممالىء لإسرائيل .

أما في فرنسا فتوجد جماعة يهودية يبلغ تعدادها ٧٠٠ألف ، وهي جماعة اكتسبت لوناً يهودياً قوياً نوعاً ما بعد هجرة يهود المغرب العربي، وهي جماعة لها نفوذ قوي في الإعلام وغيره . ومع هذا يمكن وصف سياسة فرنسا تجاه الدولة الصهيونية بأنها أكثر اعتدالا ، وأعتقد أنه لتفسير موقف كلا البلدين يجب ألا نعود إلى قوة أو ضعف الجماعة اليهودية وإنما إلى موقف كليهما من التحالف الغربي وإلى رؤية كل منهما له . فانجلترا أكثر ارتباطا بالولايات المتحدة من فرنسا داخل هذا التحالف ، اذ تحاول فرنسا

أن تحافظ على استقلال أوربى لا تهتم به انجلترا بنفس الدرجة ، ولعل هذا هو مصدر اختلاف سياسة البلدين تجاه قضية الشرق الأوسط .

ولِمَ لا نبحث فى طيات التاريخ البعيد أو القريب ؟ ولِمَ لا نقرأ الصحف اليومية التى طالعتنا بآراء المؤسسة الصهيونية والإسرائيلية واليهودية فى الوحدة الألمانية ؟ وكان الرأى بطبيعة الحال سلبيا وقاطعا إلى أقصى درجة ، إذ أخرج الصهاينة من أدراجهم أحاديثهم المملة عن الستة ملايين يهودى وعن «الشخصية الألمانية العدوانية» بطبيعتها ، وعن مخاطر ألمانيا الموحدة . وطالب شامير بوقف هذه الوحدة بأى ثمن وطالبت إحدى الصحف الإسرائيلية بعدم مناقشة قضية الوحدة إلا بعد مائتى عام . ولكن لا الإعلام الصهيونى فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل ولا المنظمات الصهيونية واليهودية ، العالمية والمحلية ، استطاعت أن تؤخر القرار الألمانى بتوحيد ألمانيا أو حتى أن تعدل منه .

ولعل التنازل الوحيد كان بضعة ملايين من الدولارات قررت ألمانيا الشرقية دفعها لضحايا الإبادة النازية (التهمتها إسرائيل بشراهتها المعهودة) . ثم تم توحيد ألمانيا ، رغم كل التنهدات اليهودية والصهيونية ، فهذا قرار إستراتيجى غربى تسانده حركيات سياسية وتاريخية لايمكن لأى إعلام صهيونى مهما بلغ من قوة أو جماعة ضغط يهودية مهما بلغت من نفوذ عرقلة تنفيذه .

ولعل الإعلام واللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة وخارجها قد وصل لهذه القناعة ولذلك آثر الصمت وقرر أن يسبح مع التيار مما يدل على ذكائه الشديد ، وعلى مرونته التى لا حد لها.

بقية العالم

وحتى تكتمل الصورة سنحاول أن نعرض بشكل سريع للنفوذ الإعلامى والصهيونى فى بعض بلاد العالم الآخرى ، ويمكن أن نبدأ بأمريكا اللاتينية التى لا يمكن لأحد الزعم بأنها خاضعة للنفوذ اليهودى ، وإن كان الأمر مع هذا لا يخلو من المتحدثين العرب الذين يدافعون عن مثل هذه الأطروحة . كما أن كثيرا من الجماعات اليمينية العنصرية فى أمريكا اللاتينية تروج لهذه الإشاعة ، ولعل هذا امتداد لتقاليد كراهية اليهود فى التراث المسيحى ، وطبعا لا يمكن أن تؤخذ هذه الأطروحة على محمل الجد، فوزن اليهود العددى فى أمريكا اللاتينية ضئيل للغاية ولا توجد أعداد كبيرة منهم داخل مؤسسات صنع القرار أو المؤسسات الإعلامية أو الاقتصادية . وفى الأرجنتين ، التى تضم نصف يهود أمريكا اللاتينية ، لم ينجح اللوبى اليهودى فى أن يوقف انتخاب المرشح «العربى» منهم رغم أن الرئيس الفونسين كان يعد صديقا لليهود وإسرائيل . كما لم ينجح اللوبى اليهودى فى أمريكا اللاتينية أن يرغم حكوماتها على تسليم عشرات مجرمى الحرب النازيين

السابقين الذين يعيشون فيها . ولا يختلف الوضع كثيرا في جنوب أفريقيا حيث لا يمكن الحديث عن لوبي أو إعلام صهيوني ، فاليهود مستوعبون تماما في بناء القوة في هذا البلد الاستيطاني . يبقى بعد ذلك الاتحاد السوفييتي ، إذ بدأت الشائعات تنتشر مرة أخرى عن أخطبوطية اللوبي والإعلام اليهودي الصهيوني ، وهي مقولة تروج لها الجماعات الروسية القومية ، التي تقف مذهولة أمام مايحدث الآن في روسيا وتحاول تفسيره باللجوء لأسهل الصيغ التفسيرية وأكثرها شيوعا : المؤامرة اليهودية (من الطريف أن بعض الشيوعيين العرب بدأوا يهمسون بهذه الصيغة) . ولكن هذه الأطروحة لن تصمد كثيرا ضد أي اختبار جاد :

(١) فالكره الشعبي لليهود عميق متأصل في روسيا بسبب عناصر تاريخية وثقافية واقتصادية قديمة ، ممتدة من الماضي إلى الحاضر (وروسيا القيصرية هي البلد التي جاءت منها البروتوكولات وكتيبات عنصرية مماثلة) .

(٢) على الرغم من وجود عناصر يهودية عديدة في قيادة الثورة البلشفية ومنظريها إلا أن النظام السوفييتي طرح حلا للمسألة اليهودية يفترض معاداة الصهيونية بل ويهدف إلى تصفية اليهود كجماعة ثقافية متماسكة .

(٣) تآكلت الثقافة اليديشية الروسية اليهودية حتى لم يبق

سوى قلة صغيرة ، أساسا من العجائز ، يتحدثون اليديشية ، ولم يتمكن أى لوبى من وقف هذه العملية .

(٤) ويمكن أن تختبر المقولة من خلال وضعها على محك قضية الهجرة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى (سابقا) وهى قضية كانت فى غاية الأهمية بالنسبة للاتحاد السوفييتى الذى كان يعد على مستوى من المستويات بلدا «ناميا» يحتاج لكل المصادر البشرية فيه ، وأفراد الجماعة اليهودية كانوا يشكلون نخبة تكنوقراطية مهنية ذات فائدة حيوية له .

لم تثر قضية اليهود السوفييت «وحقهم» الأزلى فى الهجرة فى بداية السبعينيات بضغط من الإعلام السوفييتى أو اللوبى الصهيونى وإنما تم بضغط من الولايات المتحدة (بمساعدة أعضاء الجماعة اليهودية فيها) . وقد سمح السوفييت فى نهاية الأمر بهجرة أعداد كبيرة من اليهود بسبب ضغوط بنيوية داخلية : التخلص من عناصر متمردة ساخطة وعناصر تجارية إن لجأ للعنف فى ضربها أثار الرأى العام الغربى عليه . كما أن الضغوط الغربية لعبت دورا حاسما إذ ربط الغرب بين التسهيلات التجارية والائتمانية الممنوحة للاتحاد السوفييتى وقضية هجرة اليهود منه . وقد رضخ الاتحادالسوفييتى ، ولكن مع تراجع هذه السياسات توقفت الهجرة لتفتح أبوابها مرة أخرى فى أواخر الثمانينيات مع الانفتاح السوفييتى على الغرب ومع رغبته العارمة فى الحصول على

مساعدات مالية وتكنولوجيا متقدمة ، فالقرار قرار سوفييتى اتخذ استجابة لحاجات سوفييتية داخلية ومطالب غربية ، ولا يشكل اليهود فى هذه الصفقة سوى المادة التى سيتم نقلها . ومما لا شك فيه أن الإعلام الذى ينشط فيه العناصر اليهودية أو الصهيونية سواء فى الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة لعب دورا ملحوظا، ولكن لا يمكن تفسير سلوك الاتحاد السوفييتى وسماحه بهجرة اليهود السوفييت فى السبعينيات ثم وقفه للهجرة فى منتصف الثمانينيات ثم فتحه لباب الهجرة مرة أخرى فى أواخر الثمانينيات إلا فى إطار مصالح الاتحاد السوفييتى المتشابكة والضغوط الأمريكية عليه .

الولايات المتحدة - حالة خاصة ؟

وقد يقال إن كل الأمثلة السابقة مستمدة من تاريخ انجلترا أو فرنسا أو الاتحاد السوفييتى وأن الولايات المتحدة حالة مختلفة تماما وأن النفوذ الصهيونى مسيطر عليها بشكل لم يحدث من قبل أو بعد . ولذا فلنختبر أطروحتنا الأساسية : إن المصالح الاستراتيجية / الغربية (الأمريكية فى هذه الحالة) هى التى تحدد القرار الأمريكى ، وأن الضغوط الصهيونية - من خلال اللوبى أو الإعلام - ذات أهمية ثانوية ، فهى قد تؤخر القرار قليلا ، وقد تعدل من شكله ولكنها لا تحدده أو تعدل من اتجاهه الأساسى .

ويمكننا أن نذكر الأحداث الهامة التالية للتدليل على مقولتنا .

١ - كانت الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر أقلية تؤمن باليهودية الاصلاحية التي تشجع الاندماج . وهذه الأقلية كانت تشكل نخبة ثرية مندمجة من أصل ألماني ولذا لم تكن متحمسة لهجرة يهود شرق أوربا الأرثوذكس السلاف «المتخلفين» المتحدثين باليديشية . ومع هذا اتخذ القرار الأمريكي بفتح أبواب الولايات المتحدة لجميع المهاجرين لأن هذا ما كانت تتطلبه المصالح الأمريكية ، وبالفعل هاجر الملايين من يهود شرق أوربا حتى أصبحوا يشكلون غالبية يهود أمريكا .

٢ - في عام ١٩٢٤ قررت الولايات المتحدة أن تحد من المهاجرين بسبب الأزمة الاقتصادية فأصدرت قانون النصاب عام ١٩٢٣ ، ثم قانون جونسون عام ١٩٢٤ ، فانخفض عدد المهاجرين اليهود انخفاضا ملحوظا (من ١١٩ ألفا عام ١٩٢١ و٤٩ ألفا عام ١٩٢٤ إلى ١٠ آلاف عام ١٩٢٥ و٢٫٧٥٥ عام ١٩٣٢) وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من المهاجرين اليهود أصبحت تستوعب ما يقل عن ٢٥٪ وأحيانا عن ١٠٪ . ويجب أن نذكّر أنفسنا أن القرارات الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة هي قرارات ذات طابع استراتيجي ، فالولايات المتحدة دولة استيطانية - وكانت حينذاك لا تزال في طور التشكيل ، وتشكل المادة

الاستيطانية الإنتاجية القتالية بالنسبة لها عنصرا استراتيجيا . وبالتالي فالقرارات كانت تتخذ في ضوء المصالح الأمريكية وحدها ، وسواء سعد اليهود بهذا القرار أم ابتأسوا له فهذه مسألة ثانوية تماما .

٣ - في أثناء ما يمكن تسميته بالمرحلة النازية (١٩٣٣ - ١٩٤٨) رفضت الولايات المتحدة ومعظم بلاد أوربا فتح أبوابها للمهاجرين اليهود (رغم كل التباكي في الوقت الحالي على ضحايا الإبادة) . ويفسر هذا الوضع على أساس الحالة الاقتصادية المتردية للاقتصاد الأمريكي والخوف من تسلل الجواسيس الألمان ، بل إن القوات الأمريكية بقيادة ايزنهاور رفضت ضرب قضبان السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الإبادة لوقف عملية نقل اليهود إليها . ويقال في تفسير هذا إن ايزنهاور قائد القوات الأمريكية كان لا يريد تبديد طاقته العسكرية في هذا العمل الجانبي . ومهما كانت التفسيرات التي تساق فإن القرار كان أمريكيا والمصالح أمريكية .

٤ - في بداية القرن العشرين ظهر اتجاه صهيوني بين أعضاء المؤسسة الحاكمة الأمريكية (من المسيحيين) على الرغم من أن غالبية أفراد الجماعة اليهودية كانوا يعارضون الصهيونية إما من منظور اندماجي أو ديني . وقد أيدت الولايات المتحدة وعد بالفور وحنث ولسون بوعوده بحق تقرير المصير لا رضوخا لأي

ضغط يهودي أو صهيوني وإنما لأنه رأى أنه لا يمكن أن يصاغ مصير الشرق الأوسط دون أن يكون للولايات المتحدة دخل فيه ، ووجد أن تأييده لوعد بالفور هو وسيلته لذلك ، وقد احتجت كثير من الجماعات اليهودية الاندماجية على تأييد ولسون لوعد بالفور .

٥ - حينما أعلنت دولة إسرائيل اعترفت الولايات المتحدة بها فورا ، ولم يكن اللوبي الصهيوني قويا اخطبوطيا بعد ، حتى باعتراف أولئك الذين يروجون لأسطورة قوته واخطبوطيته . كما أن اللوبي اليهودي المعادي للصهيونية كان لا يزال قويا ، مما يعني أن مسارعة الولايات المتحدة بالاعتراف لا يمكن تفسيرها إلا على أساس المصالح الأمريكية وليس لها علاقة بالضغوط اليهودية أو الحملات الإعلامية .

٦ - حينما تحالفت إسرائيل مع انجلترا وفرنسا عام ١٩٥٦ وشنت العدوان الثلاثي على مصر ، دون موافقة الولايات المتحدة ، عوقبت أشد العقاب ، إذ إن الاستراتيجية الأمريكية حينذاك كانت هي أن تلعب الامبريالية الأمريكية دورا نشيطا في الشرق الأوسط وتحل محل الاستعمار التقليدي (الانجليزي والفرنسي) وتملأ هي الفراغ بعد انسحابهما منه ، والدولة الصهيونية باشتراكها في هذه المغامرة وقفت ضد المخطط الأمريكي ولذا كان من الضروري تأديبها ، ومن هنا موقف ايزنهاور «النزيه» و«العادل» و«المحايد» .

٧ - لم تشن إسرائيل حرب عام ١٩٦٧ إلا بموافقة صريحة من الولايات المتحدة التى وجدت أن من صالحها تصفية حكم عبد الناصر أنذاك ، وعلى كل لا يمكن لإسرائيل أن تشن أى حرب أو تدخل فى أى مغامرة إلا بموافقة الولايات المتحدة التى تمدها بالسلاح والدعم والمظلة الأمنية .

٨ - حينما حاولت إسرائيل أن تؤكد استقلالها النسبى فى الآونة الأخيرة جاءتها الرسالة واضحة من واشنطن ألا تتجاوز حدودها . وأول المحاولات الإسرائيلية لتأكيد شئ من الاستقلال كان فى حادثة جوناثان بولارد وهو موظف أمريكى يهودى تجسس على الولايات المتحدة لحساب إسرائيل ، وكان رد المؤسسة الأمريكية الحاكمة حاسما إذ قبض على بولارد وأدخل السجن لمدة عشرين عاماً وأجرى تحقيق فى اسرائيل لتحديد المسئولية ، كما أن الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة ثارت ثائرتها ضد الدولة الصهيونية . وصرح جيكوب نيوزنر ، أهم عالم تلمودى فى العالم ومن زعماء يهود الولايات المتحدة أن يهود أمريكا يؤمنون بأرض ميعاد واحدة وهى الولايات المتحدة وأن عاصمتهم هى واشنطن وحسب . بل إن موظفا مدنيا يهوديا يعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية سحب منه تصريحه الأمني (الذى يمكن بمقتضاه أن يطلع على وثائق سرية) لأن ثلاثة من أولاده يعيشون فى إسرائيل . وعلى الرغم من أن هذا الموظف يعمل من ٢٥ سنة فى الوزارة إلا أنه بعد

حادثة بولارد زادت الاحتياطات الأمنية واستبعد الموظف (الجير ساليم بوست ١١ فبراير ١٩٨٩) ، ولو حدث شئ مماثل في أي بلد آخر لا تهم على الفور بأنه معاد للسامية (أي لليهود) ولكن لزم الإعلام الصهيوني الصمت لأن الجميع يعرف أن هذا هو الخط الذي لا يمكن لأحد عبوره ، فهو خط استراتيجي راسخ واضح . وقد حاول اللوبي الصهيوني أن يستفيد من قرار بوش بالعفو عن المتهمين في قضية إيران - كونترا عند انتهاء مدة رئاسته وحاولوا استصدار عفو عن بولارد ولكن رفض الطلب (على الرغم من أن بولارد على أتم استعداد الآن أن يعترف بجريمته ، بعد أن كان يأخذ في السابق موقفا مسرحيا متشددا ويصر على أنه لم يكن يتجسس وإنما كان يقوم بعملية إبلاغ الدولة اليهودية معلومات كان ينبغي أن تحصل عليها في المقام الأول .

أما الواقعة الثانية فهي إلغاء مشروع طائرة اللافي . فالمؤسسة الحاكمة الصهيونية كانت حريصة كل الحرص على إنتاج هذه الطائرة محليا في إسرائيل (بعون أمريكي) لأسباب عديدة من بينها تحقيق شئ من الاستقلال الاسرائيلي وتحسين صورة اسرائيل القومية أمام المستوطنين الصهاينة الذين يشعرون باعتماد دولتهم المذل على الولايات المتحدة . كما أن طائرة اللافي كانت تعني أيضا إنشاء صناعة طائرات محلية تخلق عشرات الوظائف

للمهندسين والفنيين الإسرائيليين بأمل أن يحد ذلك بعض الشئ من ظاهرة هجرة العقول من إسرائيل ونزوح عناصر النخبة الفنية عنها. ولكن المؤسسة الصناعية العسكرية في الولايات المتحدة وجدت أنه ليس من صالحها السماح لإسرائيل بإنتاج اللافى فألغى المشروع رغم المحاولات اليائسة والمريرة لمدة عامين ، ولم ينجح اللوبي الصهيوني أو غيره في أن يؤثر على القرار الأمريكي . وقد تزايد عدد النازحين بالفعل عن الدولة الصهيونية ، كما أنه قلل من مقدرة إسرائيل الاستيعابية للمهاجرين الجدد ، خاصة من ذوى المؤهلات العالية ، وهو الأمر الذى يشكل مشكلة خطيرة في الوقت الحاضر مع هجرة اليهود السوفييت .

٩ - لوحظ أن بعض الإسرائيليين واليهود السوفييت المقيمين فى الولايات المتحدة قد أسسوا عصابات تمارس الجريمة المنظمة (المافيا) ولها نشاط في عالم المخدرات والجنس وتزييف النقود . ولم يتردد الكونجرس الأمريكى فى إجراء تحقيق فى الموضوع ونشر نتائج التحقيق مما أساء لصورة اليهود الإعلامية (الجيروساليم بوست ١٩ إبريل ١٩٨٨) ولكنه فعل ذلك دون تردد لأن الجريمة تهدد أمن الولايات المتحدة القومي ، ولم يخش أحد من سطوة الإعلام الصهيوني .

١٠ - ثم جاءت حرب الخليج فأثبتت هذه المقولة بما لا يقبل

أى شك ، فالدولة الصهيونية قد أعدت عبر تاريخها للاضطلاع بدور الأداة العسكرية الكفء ، وقد مولها الغرب لهذا السبب ، وهذا السبب وحده . ولكن تبين للغرب أن اشتراكها فى القتال أمر مستحيل ، فاسم إسرائيل لا يزال كريها لدى الجماهير العربية التى تدرك بفطرتها السليمة طبيعة هذه الدولة الاستعمارية ، ووقوف أى دولة عربية فى القتال جنبا إلى جنب مع إسرائيل (حتى ولو كان ضد العراق) كان سيؤدى إلى غضب هذه الجماهير وثورتها ، ولذا طلبت الولايات المتحدة من الدولة الصهيونية أن تتنحى عن دورها التقليدى وأن تلزم القوات الاسرائيلية ثكناتها وأن تتلقى الصواريخ العراقية دون أن تحرك ساكنا ، وقد امتثلت الدولة لصهيونية لهذه الأوامر ، وسمى هذا بضبط النفس . وسلوك الدولة الصهيونية - مرة أخرى - يبين مدى ذكاء أهل الحكم فيها ومعرفتهم تماما بقوانين اللعبة .

ولعل التنازل الوحيد الذى قدمه الأمريكيون للإسرائيليين فى هذه الحالة هو اختيار كولونيل يهودى يدعى هارى كيرنكوفيتس ليترأس طاقم صواريخ باتريوت ، وكان من ضمن الطاقم عشرون يهودياً ! وهو تنازل له طابع رمزى وحسب ولا يمتد بأى حال لآليات صنع القرار ذاته أو مضمونه .

١٠ - فى أثناء المعركة الانتخابية الأخيرة للرئاسة الأمريكية

ابعى مدير إيباك فى مكالمة تليفونية مع أحد المليونيرات اليهود أن كلينتون يقوم باستشارته بخصوص المرشحين لمنصب وزير الخارجية فقام المليونير بتسجيل المكالمة وسربّها للصحف التى قامت بنشرها ، ويعد مثل هذا التصريح خرقا للعقد الاجتماعى الأمريكى الذى يسمح لأعضاء الأقليات بالتعبير عن هويتهم الإثنية بشرط ألا يتناقض هذا مع الصالح الأمريكى العام وأن يأتى الولاء للولايات المتحدة فى المقام الأول . وقد اعتذر مدير إيباك عما قاله فى المكالمة التليفونية وأكد أن ما قاله بخصوص تعيين وزير الخارجية لم يكن إلا من قبيل الدعاية للإيباك لحث المليونير اليهودى على أن يجزل العطاء للإيباك ، وقدم المدير استقالته بعد ذلك .

اليهود داخل مؤسسات صنع القرار

ويمكن القول إن مؤسسات صنع القرار فى الغرب رشيدة ومركبة وإجرائية وغير شخصية ، ولكن العنصر اليهودى يوجد داخل هذه المؤسسات يؤثر فيها ويوظف الإجراءات ويلوى عنقها . وبروز اليهود فى الحضارة الغربية الحديثة حقيقة لا يمكن النقاش بشأنها، وبالتالى وجودهم الملحوظ داخل مؤسسات صنع القرار ، ففى تقرير كتب فى السبعينات أشير إلى أن ٢٠,٩٪ من كل أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات من الأمريكيين اليهود وأن ٢٥,٨٪ من كل العاملين فى الإعلام من اليهود . وأنه من ٥٤٥

شخصية قيادية يوجد ١١.٤٪ يهود ويشار إلى هذا باعتباره دليلا على مدى «سيطرة» اليهود . ولكن يجب الإشارة إلى ما يلي :

(١) إن عملية صنع القرار في الولايات المتحدة - كما أسلفنا - عملية مؤسسية وفي غاية التركيب ولا يمكن لأقلية واحدة - مهما بلغت قوتها - التحكم فيها .

(٢) يلاحظ أن اليهود قد أصبحوا جزءاً من مؤسسات صنع القرار بعد أن تم دمجهم وأمركتهم ، أي أنهم ليسوا مجرد يهود لهم مصالح يهودية وإنما أمريكيون يهود خاضعون لحركيات المجتمع الأمريكي .

(٣) لا يشكل اليهود الأقلية الوحيدة داخل مؤسسات صنع القرار إذ توجد أقليات وجماعات ضغط أخرى كبيرة ومهمة مثل جماعة الضغط الكاثوليكية . ويمكن تشبيه اليهودي داخل مؤسسات صنع القرار الأمريكية بالموظف الحركي النشط في إحدى الشركات الكبرى الأمريكية . فهذا الموظف إن أبدى ذكاء غير عادي في فهم أهداف المؤسسة التي يعمل فيها وأخذ بزمام المبادرة وتحرك نحو تنفيذها ، فإنه لابد سيترقى ويتحرك نحو القمة، ولكن حركته الصاعدة تظل في نهاية الأمر محكومة بالهدف المؤسسي الذي يتم تحديده بشكل مؤسسي ، كما أنه من الصعب على فرد أو مجموعة أفراد تغييره .

ولذا ، فوجود اليهود بأعداد كبيرة ومؤثرة لا يغير من الصورة العامة ولا يعدل ، بشكل جوهرى ، من النمط الأساسى المتكرر .

المظلة الواقية

والنمط الأساسى هو استراتيجية أمريكية حاكمة واستراتيجية صهيونية تابعة ، هكذا كان الوضع فى الماضى ، وهكذا لا يزال الوضع فى الحاضر ، وهكذا يراه الأمريكان ، وهكذا يدركه الصهاينة فى اسرائيل وخارجها ، ولنقرأ على سبيل المثال لا الحصر المقال المعنون : «المظلة التى ستطوى» بقلم دور جولد (الجيروساليم بوست الدولة ، ٢ ديسمبر ١٩٨٩) . أطروحة المقال الأساسية هى أن تزايد التفاهم بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فى أوربا سيؤدى إلى تغيرات جوهرية فى «بيئة إسرائيل الأمنية» حسب قول الكاتب ، وهى عبارة تعنى ببساطة «وضع إسرائيل الأمنى» . وهذه البيئة ، التى صاحبت الدولة الصهيونية منذ إنشائها ، تتلخص فى أن اسرائيل عاشت معظم الاربعين عاماً الماضية «تحت حماية شكل من أشكال المظلة الأمنية الأمريكية» .

وقد لاحظ كاتب المقال أن وزير الدفاع الأمريكى ريتشارد تشينى طالب بتخفيض الإنفاق العسكرى حوالى ١٨٠ بليون دولار فى خمسة أعوام من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧ ، وهذا التخفيض سينتج

عنه إلغاء أسلحة وإغلاق بعض القواعد بل وإلغاء بعض اللواءات وثلاث حاملات طائرات ، ويشير الكاتب إلى أن تشيني من المحافظين المطالبين بزيادة الانفاق العسكري ولذا فالتغير في موقفه يعد مؤشراً جيداً على التغير الجوهرى الذى حدث فى التفكير الاستراتيجي الأمريكي .

ويستمر الكاتب في قوله إن الولايات المتحدة تحتفظ ببعض القوات لحالات الطوارئ فى العالم الثالث وإن كان يرى أن هذا الوضع سيتغير بالتدريج إذ يتوقع أن يزداد عدم اكتراث الولايات المتحدة بالعالم الثالث بسبب تناقص تهديد الاتحاد السوفييتى ، فمفهوم الأمن القومي الأمريكي وموقف أمريكا النشط فى العالم الثالث كانا مرتبطين دائما بهذا التهديد .

ويرى كاتب المقال أن أهمية إسرائيل الاستراتيجية قائمة مادام هناك تهديد سوفييتي ، وحتى لو تراجع التهديد السوفييتي فإنه يمكن أن يكون هناك «تفاعل استراتيجي مع الولايات المتحدة» (وهي عبارة ملفوفة تعني أن ثمة دوراً لإسرائيل تلعبه في حالة وجود توترات بين دول المنطقة) ، إذ إن إسرائيل يمكنها أن تكون عنصرا فعالا في الحفاظ على التوازن في المنطقة، خاصة إن وجدت الولايات المتحدة صعوبة في الحصول على تعاون حلفاء مثل مصر (وهذه أيضا عبارات ملفوفة تعني ببساطة أن إسرائيل

يمكنها الاستمرار فى لعب دور كلب الحراسة للمصالح الغربية فى المنطقة) .

ثم يطرح الكاتب بعد ذلك ، تصورا أكثر جذرية وهو احتمال انسحاب الولايات المتحدة لا من العالم الثالث وحسب وإنما من الشرق الأوسط أيضا . لو حدث هذا فإن النتائج ستكون عميقة للغاية ، ولذا ينصح الكاتب إسرائيل أن تعيد دراسة امكانياتها العسكرية وأهدافها الاستراتيجية فى ضوء هذه التغيرات ، فعلى سبيل المثال سيكون على إسرائيل أن تعيد النظر فى التوازن العسكرى مع سوريا وفى مقدرة إسرائيل على المواجهة معها ، وعليها كذلك أن تعيد النظر فى الحسابات الخاصة بقيام أمريكا بتزويد اسرائيل بالأسلحة فى حالة نشوب حرب إسرائيلية عربية أخرى ، فمقدرة الولايات المتحدة على تزويد إسرائيل بالأسلحة كان دائما مرتبطا بحجم الوجود الأمريكى فى أوربا . كما أن تخفيض الوجود الأمريكى فى أوربا يعنى زيادة المسافة بين أقرب القوات الأمريكية المنتشرة وإسرائيل ، مما يعنى أن توقيت التدخل الأمريكى فى المنطقة ، إن قررت أمريكا التدخل ، سيتغير تماما .

والمقال فى غاية الأهمية من ناحية المضمون إذ إنه يعطينا مفتاحا لفهم التفكير الاستراتيجى الإسرائيلى بعد عصر الانفتاح فى الاتحاد السوفييتى وبعد انهياره . ولكن ما يهمنا فى سياق هذه

لدراسة أن كاتبه لم يذكر الإعلام أو اللوبى الصهيونى . كما أنه يتحدث عن إسرائيل باعتبارها دولة تابعة تحدد أولوياتها الاستراتيجية وتفكيرها العسكرى بعد أن تحدد الولايات المتحدة أولوياتها وتفكيرها والمؤلف بذلك يدل على ذكائه وموضوعيته ، فهو يعرف من هو السيد ومن هو العميل ، ولم يغش بصره أى ضباب عن أخطبوطية الاعلام واللوبى اللذين يحركان العالم .

المظلة الواقية مرة أخرى

ولا يختلف تحليل كونور كروز أوبريان ، وهو من أبرز المفكرين السياسيين الغربيين ومن أكثرهم تعاطفا مع الصهيونية ، عن تحليل الكاتب الإسرائيلى دور جولد ففى مقال بعنوان «العلاقة الأمريكية الإسرائيلية الخاصة مهددة ، بسبب الانفراج الدولى بين الشرق والغرب» (التايمز، نشر فى القبس ٤ يونيو ١٩٩٠) يقدم أوبريان ما يشبه التاريخ المصغر للاستراتيجية الإسرائيلية . ففى عام ١٩٥٧ انسحبت إسرائيل من سيناء وكان المفروض منطقيا أن تدخل مرحلة عزلة، ولكن الأحداث التى شهدها العالم العربى كسرت عزلة إسرائيل المتوقعة ، إذ إنه فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ ، تمزق حلف بغداد وتمزق موقعوه المحليون فى شوارع بغداد ، وتبين أن فكرة قيام تحالف غربى مع العرب مجرد سراب ومن ثم بدأ المخططون السياسيون والعسكريون الأمريكيون يتجهون نحو إسرائيل ، ونشأ تحالف أمر واقع بين اسرائيل والولايات المتحدة حوالى عام ١٩٧٠،

ولايزال هذا التحالف قائما حتى اليوم . ولنترجم هذا الخطاب الغربى إلى الخطاب العربى ويمكننا القول إن تصاعد القومية العربية فى المنطقة جعل الولايات المتحدة تبحث عن عميل أو قاعدة رخيصة يطلق عليه عبارة «حليف استراتيجى» لتشمله بمظلتها الأمنية الواقية ليؤدى عمله بكفاءة ، وقد وجدت الولايات المتحدة فى إسرائيل ضالتها . ويلاحظ تطابق تاريخ أوبريان مع تاريخ دور جولد ، كل ما في الأمر أن أوبريان يركز على الولايات المتحدة (لذا يبدأ تاريخه من ١٩٥٨) بينما وضع جولد الاستر تيجية الإسرائيلية في سياق غربى عام ، ولذا يعود تاريخه إلى عام ١٩٤٨

ويلاحظ أوبريان ، تماماً مثل جولد ، أن هذا التحالف بدأ ينوى الآن .. وهذا هو أهم وأخطـر وجه لعزلة إسـرائيل فى عـام ١٩٩٠ ، فتراخى العرى بين اسرائيل والولايات المتحدة لا يعود للانتفاضة ، رغم أن الانتفضة لم تساعد على توثيق الروابط بين الجانبين ، وإنما يعود إلى غروب شمس الاتحاد السوفييتى كقوة عالمية ، وكان هذا التطور مفيداً لإسرائيل - فى بادئ الأمر - إذ إنه أدى إلى إضعاف سوريا ، الحليف الرئيسى للسوفييت فى المنطقة ، والدولة العربية الأكثر عداء لإسرائيل . ولكن العواقب السلبية الناجمة عن تلاشى الدور السوفييتى العالمى فاقت المنافع التى جنتها الدولة الصهيونية إذ إنها أثرت بشكل عميق وخطير على العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل .

«فوثوق هذه العلاقة خلال العشرين سنة الماضية قام على لإيمان بوجود تهديد سوفييتي خطير للمنطقة ، وبأن إسرائيل هي الحليف الوحيد للولايات المتحدة ، وبالتالي فإن من مصلحة واشنطن مساعدة إسرائيل ، وجعلها قادرة على أن تصبح القوة العسكرية المهيمنة على المنطقة .

غير أنه إذا لم يعد هناك أى تهديد سوفييتي للمنطقة ، فإن هذا البناء بكامله ينهار . فمن منظور استراتيجي ، لم تعد أمريكا بحاجة إلى اسرائيل ، ولابد للأخيرة من أن تشعر بنتائج هذه الحقيقة بطرق متنوعة » .

النمط هنا واضح تماما : استراتيجية أمريكية تتحدد ، ثم استراتيجية تحاول أن تحدد هويتها وتوجهها بأن تجد لنفسها «دورا» أو «وظيفة» داخل الاستراتيجية الأمريكية التي تحددها المصالح الأمريكية .

ومما لا شك فيه أن الإعلام واللوبي الصهيوني يحاولان تقديم وجهة النظر الإسرائيلية ويحاولان أن يؤكدا للغرب مدى صلاحية الدولة الصهيونية كقاعدة وكعميل وكأداة ، بل إنهما يحاولان أن يوسعا من المساحة التي تتحرك فيها إسرائيل بحرية ، ويبذلا أقصى جهدهما أن تحصل إسرائيل على مكافأة كبيرة وتحقق عائدا أمنيا واقتصادياً وسياسيا مرتفعا لما تؤديه من خدمات . ولكن كل هذه التحركات مضبوطة بالأطروحات

الاستراتيجية الأساسية التي تتحدد خارج مجال ضغوط الإعلام ونفوذ اللوبي الصهيوني .

حدود القوة

وقد يكون من الضروري أن نشير إلى حقيقة في غاية الأهمية تبين حدود القوة اليهودية من المعروف أن الأقلية اليهودية تشكل أثرى أقلية دينية / إثنية في الولايات المتحدة ، وربما في العالم - وقد بينت إحدى الاحصائيات عام ١٩٨٥ أنه من بين ٤٠٠ شخص يعدون أكثر الأفراد ثراء في الولايات المتحدة كان يوجد من بينهم ١١٤ يهوديا أي بنسبة ٢٤ - ٢٦ ٪ على الرغم من أن اليهود يشكلون ٢,٥٤٪ فقط من السكان . هذه المعلومة - الدقيقة والحقيقية - تسوق باعتبارها دليلا على «نفوذ» اليهود ، فالأثرياء دائما ذوو نفوذ وثراء ، وهم دائماً مصدر قوة . ولكن بقليل من التحليل المتعمق سنكتشف أن هذه المعادلة البسيطة الواضحة ليست على جانب كبير من الصحة . فاليهود - رغم ثرائهم - لا يمتلكون أيا من الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب وصناعة السيارات والكيماويات) كما أنهم لا يمتلكون أيا من المؤسسات المالية الكبرى مثل المصارف الهامة ، على عكس ما يشاع . ولذا نجد أن كثيرا من الناس في العالم العربي يعتقدون أن أسرة روكفلر يهودية ، وهذا غير صحيح بالمرة فهي أسرة بروتستانتية وهي من ضمن هذه النخبة البروتستانتية التي تمتلك معظم الصناعات الثقيلة وتسيطر

على القطاع المالى ، وهم ليسوا بروتستانت وحسب وإنما بيض من أصل انجلو/ساكسوني . ومن صفوف هؤلاء يتم تجنيد أعضاء النخبة ومن صفوفهم جاءت الغالبية الساحقة من رؤساء الولايات المتحدة (ربما باستثناء كيندى الكاثوليكي من أصل أيرلندى) . لا يمتلك أثرياء اليهود إذن صناعات ثقيلة ولابيوت مالية ضخمة ، وإنما تجدهم مركزين في أعمال العقارات والسمسرة والمضاربات والكازينوهات وصناعة السينما ودور النشر والصناعات الخفيفة (خاصة الملابس) ووجودهم في هذه القطاعات يعطيهم بروزاً ويؤكد حضورهم ، ويولد صورة عامة بالقوة تتنافى مع واقع توزيع القوة الحقيقى ، إذ إن القوة المؤثرة الحقيقية في يد من يمتلك الصناعات الثقيلة وبيوت المال الكبرى ، رغم عدم بروزه إعلاميا .

أما بخصوص ملكية اليهود لوسائل الإعلام فيجب أن نؤكد على حقيقتين أساسيتين :

١ - أن غالبية يهود الولايات المتحدة مواطنون أمريكيون يتحركون داخل إطار أمريكى ، طموحاتهم أمريكية وأحلامهم أمريكية ، ولذا فملكيتهم لوسائل الإعلام لا تعني بالضرورة أنها ستتوجه توجها يهوديا صرفا ، فيهودية يهود الولايات المتحدة مرتبطة تماما بأمريكيتهم .

٢ - الإعلام في الولايات المتحدة مؤسسة تدخل في علاقة مع مؤسسات عديدة أخرى (وكالات أنباء - مخابرات - وزارة

الخارجية - المؤسسة الصناعية العسكرية - وزارة الدفاع) ، وهذا هو طابع المجتمعات الحديثة في الغرب - إن كل شئ يتم من داخل مؤسسات مرتبطة بمؤسسات أخرى كلها داخل منظومة واحدة ، ولايمكن لمؤسسة أن تعمل بمفردها تماما خارج النظام . قد تتمتع إحدى المؤسسات بدرجة أعلى من حرية الحركة وبمقدرة أعلى للضغط والتأثير ، ولكن يظل الجميع داخل النظام الذى له آلياته وقوانينه التى تتجاوز أهواء الأفراد ورغباتهم ، ولذا لا يمكن لأصحاب دور النشر والصحف من اليهود - مهما بلغوا من تعصب لإسرائيل - أن يوجهوا جرائدهم الوجهة التى تروق لهم ، إذ يتحرك الجميع داخل الإطار الاستراتيجي العام (وهى فى هذا تشبه مؤسسات صنع القرار الرسمية) وهذا الإطار لا يحدد من خلال نشرة تصدرها المخابرات الأمريكية أو «توجيه عام من السيد المدير» (كما هو الحال عندنا) وإنما يتم إشاعته بوسائل فى غاية الدقة والتركيب وتأخذ شكل عقد اجتماعى صامت بين الجميع ، ومن يخرقه يستبعد تماما ، ويلاحق بشراسة ويجد كل الأبواب موصدة دونه . وأجهزة الإعلام التى يمتلكها أمريكيون يهود لها رقعة محدودة من الحرية ، يتحرك فيها اليهود كيفما شاءوا ، لكن تظل الأمور مضبوطة بالمصالح الاستراتيجية العليا وبالعقد الاجتماعى الأمريكى .

صهينة اليهود

ولعل من أهم مظاهر حدود قوة اليهود والصهاينة ومدى

هيمنة المؤسسة الحاكمة الغربية على الجميع هو الكيفية التى يتحول بها أفراد الجمعات اليهودية إلى الصهيونية ، فمن المعروف أنه عندما ظهرت الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر عارضتها الجماهير اليهودية ولذا حتي بعد أن حصلت المنظمة الصهيونية على وعد بالفور اعترف وايزمان أنه - أى الوعد - كان مبنيا على الهواء ، وعلى حد قوله عام ١٩٢٧ ، كان يرتعد خوفا خشية أن تسأله الحكومة البريطانية عن مدى تأييد اليهود للحركة الصهيونية فهى كانت تعلم أن «اليهود ضدنا .. كنا وحدنا نقف على جزيرة صغيرة ، مجموعة صغيرة من اليهود لهم ماض أجنبى » .

وقد اقترح وايزمان وغيره من الصهاينة حل المشكل «من أعلى» ، من ناحية المصالح الامبريالية ، وليس من «أسفل» من ناحية الجماهير اليهودية ، وحدد الاستراتيجية على النحو التالى : «إذا دخلت فلسطين فى نطاق النفوذ لبريطانى ، وإذا شجعت بريطانيا عملية استيطان اليهود هناك ، وأصبحت دولة خاضعة لبريطانيا ، فسيصبح هناك - خلال عشرين إلى ثلاثين عاما - مليون يهودى» يقومون بخدمة المصالح الامبريالية .

وعندما أعرب أحد المسئولين فى الحكومة الانجليزية عن دهشته للموقف المناهض للصهيونية الذى اتخذه قادة اليهود البريطانيين ، أكد وايزمان له أن خطة شن الهجوم «من أعلى» مؤكدة للنجاح ، وتكهن أنه بمجرد الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا لليهود ،

فإن اليهود البريطانيين المناهضين للصهيونية «سيوافقون على الفور» على الحل الصهيوني، وأنهم هم أنفسهم سينخرطون في صفوف الحركة الصهيونية في الوقت المناسب ، أي أنه عن طريق كسب ود القوة الامبريالية يمكن للحركة الصهيونية أن تفرض نفسها على الجماهير اليهودية أي أن النمط هنا ليس جماهير يهودية تجندها الحركة الصهيونية للضغط على الحكومات الغربية لتنفيذ المشروع الصهيوني، وإنما العكس تماما : دولة إمبريالية تبحث عن منطقة نفوذ في الشرق الأوسط وعن أداة تستخدمها في تحقيق هذا الهدف ، وتجد ضالتها في الحركة الصهيونية (التي كانت تعلن عن نفسها دائما على أنها الأداة الرخيصة) فتعطي القوة الإمبريالية الحركة الصهيونية كثيرا من المزايا والوعود، وتسبغ عليها قدرا كبيرا من الشرعية (أي أن الشرعية هنا ليست شرعية يهودية وإنما شرعية إمبريالية) . وحينما تحصل الصهيونية على هذه الشرعية من القوى الإمبريالية فانها تجابه الجماهير اليهودية التي تتساقط أمامها وتتم صهينتها، ويتكون اللوبي الصهيوني لخدمة المصالح الصهيونية التي هي في واقع الأمر المصالح الإمبريالية . والجماهير اليهودية في العالم الغربي التي تؤيد الصهيونية لاتجد أي تعارض بين ولائها لبلادها (صاحبة المصالح والمشاريع الإمبريالية) وولائها للصهيونية أداة الإمبريالية، بل إنه في حالة الأمريكيين اليهود على سبيل المثال ترتبط صهيونيتهم تماما بأمريكيتهم .

السوبر لوبى

إن قوة الحركة الصهيونية تنبع من أنها تخدم المصالح الأمريكية لا لأنها تقف ضدها . وهكذا يجب أن نفهم سر سطوة الإعلام الصهيونى وسر نفوذ اللوبى ، وقد جاء فى مقال فى الواشنطن بوست بقلم ريتشارد شتراوس (٢٧إبريل ١٩٨٦) أن السوبر لوبى الصهيونى الجديد فى واشنطن هو ريجان - إلى درجة أن اللوبى الصهيونى الآن يجلس لايفعل شيئا . بل إن معاداة العرب أصبحت لها حركية مستقلة عن اللوبى الصهيونى حتى أنه تنشأ الآن مواقف جديدة تماما ، ففى إحدى صفقات الأسلحة السعودية تصاعدت المعارضة فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب للصفقة على الرغم من أن اللوبى الصهيونى كان قد قرر عدم التصدى لها بالاتفاق مع المؤسسة الحاكمة . وكما قال ريجان «إسرائيل تحمى آبار البترول ومصالحنا فى المنطقة» .

ولعل ما ورد فى مقال ليندا فيلمان «جنود كسر العظام يحطمون الصلة مع يهود العالم» فى الكريستيان سائنس مونيتور (نشرت فى الوطن ١٧ مارس ١٩٨٨) يبين أن مصلحة الولايات المتحدة فى نهاية الأمر هى اللوبى الحقيقى إذ تشير كاتبة المقال «الدور المحتمل لليهود الأمريكيين بما يتمتعون به من مهارات وقوة ضغط هائلة فى دفع عملية السلام» . ولكنها تشير إلى محللين

آخرين يشكون فى أن يشكل اليهود الأمريكيون عاملا حاسما فى عملية السلام وفى الضغط على إسرائيل اذ إنه بسبب تحركات أسبانيا واليونان لإغلاق القواعد الأمريكية بالإضافة إلى سقوط شاه إيران ، تعاظمت الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة «وهذا العنصر الأخير» سيقلل من أهمية رأى اليهود الأمريكيين فى صياغة الاتجاه السياسى أى أن مصلحة الولايات المتحدة لا اللوبى الصهيونى ولا القرار الإسرائيلى هو الذى يحدد القرار الأمريكى فى نهاية الأمر . وهذا أمر طبيعى ومنطقى بالنسبة لدولة عظمى مثل الولايات المتحدة لها مصالح إستراتيجية فى كل أنحاء العالم ، ولا يمكن لها أن تخضع لضغوط هذه الأقلية أو تلك . وهاهى لحظة زمنية تتخذ فيها الجماعة اليهودية الأمريكية موقفا غير متفق تماما مع موقف الدولة الصهيونية والحماية اليهودية مشغولة بصورتها الإعلامية وبوضع أعضائها اليهود داخل المجتمع الأمريكى الديمقراطى، وأسلوب إسرائيل فى هذا السياق يسبب لها كثيرا من الحرج ، أما الدولة الصهيونية فلا تكترث كثيرا بذلك إذ إنها مشغولة بالدفاع عن مصالحها وبقائها عن طريق العنف والبطش وضرب حقوق الانسان . والجماعة الأمريكية فى هذا أشبه بالجماعة اليهودية فى انجلترا عند صدور وعد بالفور . فالجماعة اليهودية كانت قد تبنت المثل الليبرالية الاندماجية المعادية للصهيونية وكانت تكمن مصلحتها فى تأكيد

انتمائها للمجتمع الانجليزى ، ولذا كانت تمارس الضغط ضد إصدار وعد بالفور الذى كانت ترى أنه سيعرض وضعها ومكانتها داخل المجتمع الانجليزى للخطر .ولكن المصالح الامبريالية تجاوزت رأى أعضاء الجماعة اليهودية فنصحت الحكومة الانجليزية قيادات هذه الجماعة بالامتناع عن توجيه النقد ، وصدر الوعد رغم أنفهم لا بسببهم (كان الوزير الوحيد فى الوزارة الانجليزية الذى عارض إصدار وعد بلفور هو أيضا الوزير اليهودى الوحيد فيها ، سيرادوين مونتاجو) . وها نحن نجد نفس الوضع بالنسبة ليهود أمريكا إن اتفقت مصلحتهم مع مصالح الامبريالية فإن مقدرتهم على الضغط تصبح هائلة ، وإن أختلفت مصلحتهم عن المصالح الامبريالية فإنهم يصبحون غير مؤثرين .

إن اللوبى الصهيونى وسيطرة الصهاينة على الإعلام أكاذيب وأوهام نخدر بها أعصابنا ، ومن يؤمن بهما عليه أن يفسر دعم الولايات المتحدة الرهيب للكونترا رغم أن صورتهم الإعلامية فى الولايات المتحدة فى الحضيض ، ورغم أنهم ليس لهم لوبى ، وعليه أيضا أن يفسر دعم الولايات المتحدة لكثير من النظم الفاسدة فى العالم . إن توافق المصالح ، وتوافق الإدراك الغربى والصهيونى، وميل موازين القوى لصالح إسرائيل . هى سر نجاح إسرائيل الإعلامى ومصدر قوة اللوبى الصهيونى وليس العكس،

وهي العوامل التي تحدد في نهاية الأمر السلوك الغربي ، لا العقل أو التراث الديني اليهودي المسيحي . وهذا لايعني أنني أقلل من أهمية الإعلام الصهيوني أو أنني أهون من شأن فعالية اللوبي في صياغة القرار السياسي الأمريكي . كما لايمكن لمحلل سياسي ، مهما كانت تبسيطيته وماديته ، أن ينكر أهمية التراث الديني في خلق رصيد أساسي من التعاطف مع الدولة الصهيونية . ولكن كل هذه العناصر رغم أهميتها النسبية في صياغة القرار السياسي الغربي ، ورغم أنها تزداد قوة وضعفا حسب تغير الظروف ، وحسب كفاءة الصهاينة في استغلالها وتوظيفها لا تشكل العنصر الأساسي إذ تظل مصلحة الغرب الاستراتيجية هي هذا العنصر الأساسي . ولا يستمد الإعلام واللوبي الصهيوني قوتهما من كفاءة الصهاينة وإنما من أن إسرائيل وجدت لنفسها مكانا داخل الاستراتيجية الغربية ، ولأنها جعلت من نفسها أداة طيعة رخيصة كفؤا لتحقيق هذه الاستراتيجية . وتحديد القضية على هذا النحو يعني أننا لانهمل أهمية النفوذ الصهيوني ولكننا مع هذا لانفسر كل سلوك الغرب على أساسه ، اذ تظل الأولويات الاستراتيجية التي حددها صانع القرار الغربي هي التي تفسر سلوكه . وإدراكنا لهذه الحقيقة سيعمق من إدراكنا للواقع وحركياته ويزيد من مقدرتنا على لتنبؤ والتصدي

ويمكننا القول في الختام إن تضخيم قوة اللوبي والإعلام الصهيوني وجعلهما مسئولين عن كل ما يحدث في الغرب هو امتداد

للروية التآمرية الاختزالية البروتوكولية (نسبه إلى بروتوكولات حكماء صهيون) ، التى تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء وتجعل من الغرب ضحية للتلاعب اليهودى الصهيوني . وهذا تبسيط لأمور يعمى الأبصار ، فهل يمكن لأحد أن يتصور أن الطبيعة العدوانية الاستغلالية الشرسة للتشكيل الاستعماري الغربي ، (الذى حول العالم بأسره ساحة لنشاطه من خلال جيوشة ومخابراته ، والآن من خلال عملائه ومخابراته) والذى أسس تشكيلا حضاريا وبنية إجتماعية مبنية على استغلال المصادر البشرية والطبيعية للكون بأسره وتوظيفها لصالحه ، نقول هل يمكن لهذا التشكيل أن يغير هويته لو أن اليهود اختفوا تماما ولم يعد لهم من أثر ؟ هل يمكن أن تتغير سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لو أن إسرائيل اختفت من على الخريطة ؟ هل ستتعاون الولايات المتحدة حينئذ مع القوى القومية والداعية للسلام والبناء ، أم أنها كانت ستبحث عن عملاء آخرين وعن أشكال أخرى من التدخل؟ هذا هو السؤال الذى وجهته مرة للسناتور الأمريكي السابق جيمس أبورزق (من أصل عربى) وكان رده أنه لا يمكن تخيل الشرق الأوسط دون إسرائيل ! والإجابة لاتدل على عجز السناتور أبورزق عن التخيل بقدر ما تدل على المراوغة ورفض مجابهة القضية . فالسناتور من القائلين بأن اللوبى الصهيوني هو المسئول عن تحديد السياسة الخارجية الأمريكية ولذا يطالب بدعم اللوبى العربى لموازنة الأمور (وهو من أهم المستفيدين بهذه المقولة) .

وقد ركز الإعلام العربى أثناء انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة على مسألة ان كيتى دوكاكيس زوجة المرشح الديمقراطى يهودية ، وأن هذا سيؤدى إلى تزايد نفوذ اللوبى الصهيونى . ولابد أن هذا الموقف شارك فيه بعض صانعى القرار العربى . ويقف هذا على طرف النقيض من الموقف التركى ، فحين سئل المتحدث الرسمى التركى عن رأيه فى مسألة ترشيح دوكاكيس للرئاسة ، وهو من أصل يونانى ، ومدى تأثير ذلك فى الموقف الأمريكى من تركيا إن تم انتخابه ، قال ببساطة إن الولايات المتحدة لها مصالح استراتيجية ثابته سيتمسك بها الرئيس المنتخب مهما كان أصله وفصله . فهذه المصالح الثابتة هى السبب الحقيقى الكامن وراء دعم الولايات المتحدة لتركيا وهى أيضا وراء تأييد الولايات المتحدة للدولة الصهيونية ، ولا يمكن تصور أن كيتى دوكاكيس ستؤثر فى ذلك الموقف بشكل جوهرى ! وهذه مقولة غير مريحة بالنسبة لمن استناموا لمقولة أخطبوطية اللوبى الصهيونى ، اذا إنها تعنى أن عدونا ليس الأفعى اليهودية الخيالية الميتافيزيقية التى لايمكن الإمساك بها لأنها خفية رغم أنها فى كل مكان (وهذه دعوة مقنعة للاستسلام) وإنما هو العالم الغربى الذى يدافع عن مصالحه الاستراتيجية التى يمكن تعريفها والتصدى لها ومحاربتها فى كل مكان : مما يعنى إمكانية الحركة وضرورة المقاومة والجهاد . والجهاد قد يؤدى إلى الاستشهاد ولكنه قد يأتى أيضا بالحرية والكرامة .



تمثال لحاييم سالومون الممول الأمريكى اليهودى الذى
شترك فى لثورة الامريكية مع جورج واشنطن

الفصل العاشر

الصـوت اليهـودى

من الأساطير الشائعة فى الخطاب السياسى العربى أسطورة «الصوت اليهودى» وهو مفهوم يفترض أن هناك عدداً من الأصوات يدلى بها أصحابها من اليهود فى الانتخابات الأمريكية أو غيرها من البلاد الغربية، سواء القومية (لانتخاب رئيس الجمهورية) أو على مستوى الولاية (لانتخاب حاكمها)، أو على مستوى المدينة لانتخاب العمدة أو غيره من القادة . كما تفترض أن الناخبين اليهود يتبعون نمطاً واحداً تقريباً فى التصويت ، وأنهم دائماً يقفون إلى جانب إسرائيل ويؤيدون الموقف الصهيونى ، وهم بذلك يشكلون أداة ضغط فى يد «اللوبى الصهيونى» كما تفترض أنه كلَّما ازداد عدد المصوتين اليهود ازدادالصوت اليهودى قوة . ومما زاد من شيوع هذا التعميم أنَّ بعض الساسة الغربيين أنفسهم يستخدمونه لتفسير سلوكهم المالىء لإسرائيل وللسياسات الصهيونية إذ يدعون أنَّ سلوكهم استجابة عملية لضغوط الصوت اليهودى والمصالح الصهيونية ولا يعَّبر عن موقف استراتيجى مبدئى تمليه عليهم مصالحهم الأمريكية أو الغربية أو على الأقل رؤيتهم لها وقد دأبت

الدعاية الصهيونية على الترويج لهذه المقولة وكأنها حقيقة مسلم بها، وتلوح بها ضد معارضي الصهيونية .

و «الصوت اليهودي» أسطورة لها أساس في الواقع ، ومما لاشك فيه أنَّ أعضاء الجماعات اليهودية (أينما وجدوا) سيكون لهم أثر ما على صنع القرار السياسي، خصوصاً في الدول الديمقراطية الغربية . ولكن ، بعد تقرير هذه الحقيقة ، يظل هناك كثير من القضايا الأساسية مثل ما هو حجم هذا الأثر؟ هل هو من القوة بحيث لابد من أخذه في الاعتبار أم هو من التفاهة بحيث يمكن تجاهله تماماً؟ وإذا كان التأثير قوياً فما هي مصادر أو أسباب قوته؟ هل «الصوت اليهودي» قوى بسبب اتفاق مصالح الدولة الغربية مع الدولة الصهيونية؟ وهل قوة هذا الصوت اليهودي تعود إلى القوة الاقتصادية للجماعة اليهودية أم تعود إلى أسباب أخرى؟ ونظراً لاختلاف وضع الجماعات اليهودية من بلد إلى آخر ، ونظراً لاختلاف النظم السياسة التي توجد فيها هذه الجماعات ، فسوف نتناول هذه الجمعات كلاً على حده . ولنبدأ بأهم جماعتين على الإطلاق الجماعة اليهودية في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، فهما تشكلان الأغلبية العظمى من يهود العالم .

الاتحاد السوفيتي

أما بخصوص الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، فإن في

الحديث عن «صوت يهودى» تناقضاً باعتبار أنَّ الاتحاد السوفييتى كانت لا تتخذ فيه القرارات السياسية على الطريقة الديمقراطية الغربية بالاقتراع السرى المباشر ومن خلال تعدد الأحزاب . ومع هذا ، فقد كانت توجد مؤسَّست الحزب الشيوعى التى تتخذ القرارات داخلها . ومن المعروف أنَّ أعضاء الجماعة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى كانوا من أكثر الجماعات وجوداً فى مؤسَّسات الحزب بالقياس إلى نسبتهم القومية . ولكن يبدو أن هذا الوضع لم يكن ذا أثر كبير فى توجيه السياسات السوفييتية التى يمليها صالح الدولة . ولا يمكن أن نفسِّر تغير السياسة السوفيتية تجاه إسرائيل (على سبيل المثال) فى ضوء مدى قوة أو ضعف تأثير «الصوت اليهودى» . وإذا عرَّفنا مصطلح «صوت يهودى» بالمعنى العام للعبارة (أى باعتباره لوبى أو جماعة ضغط) ، فيمكن أن نشير إلى وجود أعداد كثيرة من اليهود فى الإعلام السوفييتى وفى بعض المؤسَّسات المهمة مثل اتحاد الكتَّاب وفى الجامعات والمؤسَّسات البحثية . ولكن هذا الوضع تعادله عدة عناصر من أهمها :

١ - أنَّ النسبة العددية لأعضاء الجماعة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى كانت صغيرة للغاية ، وآخذة فى التناقص .

٢ - لم يشكل أعضاء الجماعة كتلة متماسكة لها مصالح واحدة . فيهود جورجيا لا تربطهم رابطة كبيرة بيهود أوكرانيا ، بل إن ثمة نقاط اختلاف دينية وحضارية عميقة بينهم .

٣ – كان يهود الاتحاد السوفييتي يتمتعون بدرجة عالية (أو يعانون) من الاندماج يتبدى في الزواج المختلط وفي اختفاء اللغة والثقافة اليديشية .

٤ – اتجه اليهود السوفييت (من خلال عناصر داخلية سوفييتية مثل تركزهم في قطاعات اقتصادية مشبوهة ، وخارجية مثل تدخل الحركة الصهيونية) إلى الخروج من الاتحاد السوفييتي وليس البقاء داخله ، وقد أدّى هذا إلى ضعف نفوذهم كجماعة ضغط داخل النظام السوفييتي .

٥ – من الأمور التي كانت تعوق اليهود السوفييت عن التأثير في القرار السياسي السوفييتي ، من داخل النظام أو من خارجه ، أنَّ ثمة رفضاً عميقاً لليهودي داخل التشكيل الحضاري الروسي باعتبار أنَّ اليهودي هو الغريب ، وهو رفض يدعمه تركز نسبة كبيرة من أعضاء الجماعة في وظائف هامشية وفي السوق السوداء.

٦ – من العناصر المهمة للغاية أنه ليس كل اليهود السوفييت مؤيدين لإسرائيل . فهناك اليهود المتدينون الذين لا ينظرون إلى الدولة الصهيونية بعين الرضا . كما أنَّ هناك إحساساً ، بين يهود شرق أوربا ، بأنهم يشكّلون أقلية قومية شرق أوربية يديشية ، وهي التقاليد التي صاغها دبنوف وحزب البوند .

ومع هذا ، يلاحظ أنَّ أعضاء الجماعة بدأوا يتمتعون بحرية أكبر في الحركة والتعبير عن آرائهم . ولكن هذا لايعود إلى قوتهم الذاتية وإنما لتغير مبدئي وبنيوي في سياسة الدولة السوفييتية جعلها تجد أنَّ من صالحها السماح لليهود بالهجرة والسماح للحركة الصهيونية بالتحرك . وبطبيعة الحال فإنه مع تزايد هجرة اليهود من روسيا وأوكرانيا، ومع انحلال الاتحاد السوفييتي وانقسامه إلى عدة دول ذات سياسات مختلفة، فمن المتوقع أن يزداد الصوت اليهودي ضعفاً .

الولايات المتحدة الأمريكية

هذا بخصوص الاتحاد السوفييتي . ومن الواضح أن أستخدام مصطلح «صوت يهودي» في السياق السوفييتي يقترب من المجاز ويعادل كلمة «ضغط» بشكل عام . أما في السياق الأمريكي ، فيمكن الحديث دون شك عن «صوت يهودي» . فمن المعروف أنَّ كثيراً من الناخبين يتبعون نمطاً واحداً في التصويت (وهم في هذا لا يختلفون عن كثير من أعضاء الأقليات الآخرى) . وكما أسلفنا يشار إلى الديمقراطية الأمريكية باعتبارها ديمقراطية جماعات الضغط ، وهي قد تكون جماعات ذات طابع إثني تضم المواطنين الذين لهم انتماء إثني من أصل واحد ، مثل الأمريكيين من أصل أسباني والأمريكيين من أصل إيطالي ... إلخ .

وعلى الرغم من أنّ اليهود لايشكلون سوى ٤ر٢٪ من مجموع الناخبين الأمريكيين ، مما يجعل منهم كتلة انتخابية صغيرة نسبياً قياساً بالكتل الأخرى مثل الناخبين من أصل أسبانى أو أيرلندى أو الناخبين السود، فإن ثمّة عوامل تجعل قوتهم الانتخابية وتأثيرهم يفوق بكثير عددهم الفعلى :

١ - فاليهود من أكثر الأقليات تركيزاً فى المدن ، فهم يوجدون بأعداد كبيرة فى بعض المدن ، مثل نيويورك وشيكاغو وميامى (فلوريدا) ، مما يجعل لهم ثقلاً غير عادى . وعلى سبيل المثال ، يشكل اليهود ١٩٪ من كل سكان مانهاتن وبروكلين (وهما أهم قسمين إداريين فى مدينة نيويورك) . وهم يشكلون ١٦٪ من كل سكان نيويورك و٢٣٪ من كل سكانها البيض . وبالتالى فإن أى مرشح يتوجّه للصوت الأبيض (فى مقابل الصوت الأسود والأسبانى) عليه أن يضع الصوت اليهودى فى الاعتبار .

٢ - يتركز اليهود فى بعض الولايات التى تلعب دورا حاسماً فى انتخابات الرئاسة ، مما يجعل أهميتهم كجماعة ضغط تتزايد ، فهم يشكلون ٦ر١٠٪ من جملة الناخبين فى ولاية نيويورك ، ٩ر٥٪ فى نيوجيرسى ، و٨ر٤٪ فى واشنطن (العاصمة) ، و٧ر٤٪ فى ولاية فلوريدا ، ونسبة كبيرة فى ولاية كاليفورنيا . كما يوجدون بأعداد كبيرة فى ولاية بنسلفانيا وإلينوى .

٣ - يلاحظ أنَّ أعضاء الجماعة اليهودية يتمتعون بأعلى مستوى تعليمى فى الولايات المتحدة مما يؤثر على سلوكهم الانتخابى إذ إنهم يدلون بأصواتهم بنسبة تفوق بمراحل النسبة القومية . وتبلغ هذه النسبة بين اليهود ٩٢٪ (وهى أعلى نسبة على الإطلاق بين أى جماعة ضغط) فى مقابل ٥٤٪ وهى النسبة بين الأمريكيين على وجه العموم ، وهذا يعنى تزايد قوتهم الانتخابية . وعلى سبيل المثال ، ذكرنا أنَّ ٦ر١٠٪ من جملة الناخبين البيض الذين لهم حق الانتخاب في ولاية نيويورك من اليهود ، ولكن نظراً لحرص الناخبين اليهود على الإدلاء بأصواتهم نجد أنَّ نسبتهم الفعلية ، وهى النسبة التى يضعها المرشحون فى اعتبارهم ، تصل إلى ما بين ١٦و٢٠٪ .

٤ - وتتضاعف هذه النسبة فيما يتعلق بانتخابات مؤتمرات الولايات التى يتم عن طريقها اختيار المرشحين لرئاسة الجمهورية . ففى انتخابات مؤتمر الحزب الديمقراطى فى نيويورك (انتخابات عام ١٩٨٤) ، بلغت نسبة عدد اليهود نحو ٣٠٪ . وكان ٤١٪ من الأصوات التى أعطيت لمونديل من أصوات اليهود . أما فى انتخابات عمدة نيويورك ، فإن أصوات اليهود كانت تشكل ٥٠٪ من الأصوات التى حصل عليها .

٥ - وإلى جانب كل هذا ، يلاحظ أنَّ أعضاء الجماعة

اليهودية نشطاء سياسياً ويشتركون فى معظم الحركات السياسية ، خصوصاً الليبرالية واليسارية ، ويؤثرون فيها بشكل يفوق عددهم .

٦ - تضم الجماعة اليهودية عدداً كبيراً من كبار المثقفين والفنانين ورجال السياسة ، الأمر الذى يزيد من ثقلها وأهميتها كجماعة ضغط .

٧ - تعد الجماعة اليهودية من أكثر الأقليات ثراء فى العالم إن لم تكن أكثرها ثراء بالفعل . ونظراً لنشاط أعضاء الجماعة السياسى ، فهم يتبرّعون للحملات الانتخابية بمبالغ كبيرة يحسب المرشحون حسابها . وربما كانت الجماعة اليهودية ، كجماعة ضغط، تنفرد بهذه الخاصية إذ إنّ أعضاء جماعات الضغط الأخرى قد يفوقون اليهود عدداً ولكنهم لايقتربون بأية حال من الإمكانيات المالية لليهود .

إذن لاشك أنّ الجماعات اليهودية تمثل قوة ضغط يحسب لها حساب داخل النظام السياسى الأمريكى . وثمة «صوت يهودى» تماماً كما أنّ هناك صوتاً أسود وصوتاً اسبانياً (وبدايات صوت عربى) . وهذا الصوت اليهودى متعاطف مع إسرائيل والصهيونية . ولكن يظل هذا الصوت اليهودى خاضعاً لحركيات النظام السياسى الأمريكى وللتناقضات التى تتفاعل داخل المجتمع . وما يحدّد

اتجاهه ، ليس الولاء العقائدى المجرد للصهيونية وإنما استجابة اليهود ، كأمريكيين ، لما يواجههم في مجتمعهم الأمريكي . فأعضاء الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة هم أمريكيون يهود أو أمريكيون يؤمنون بالعقيدة اليهودية أو بالهوية اليهودية، وليسوا يهوداً أمريكيين . وهم ، في هذا ، لايختلفون عن كل المواطنين في الولايات المتحدة ، فلا يوجد أمريكي خالص سوى فئة WASP الواسب وهى اختصار لعبارة وايت أنجلو ساكسون بروتستانت Protestant White Anglo Saxon ، أى البروتستانت من أصل أنجلو ساكسوني ، (وحتى هؤلاء يحمل اسمهم أصلهم العرقى) . أما بقية الأمريكيين ، فهم أمريكيون إيطاليون أو أمريكيون إيرلنديون أو أمريكيون عرب ويشار إليهم بالإنجليزية بتعبير Hyphenated Americans أى «أمريكيون بشرطة» (إذ يشار إليهم باعتبارهم أمريكيون / يهود - أمريكيون عرب وهكذا) .

وهذا يعود إلى طبيعة تكوين المجتمع الأمريكي ، فهو مجتمع أستيطاني مكّون أساساً من مهاجرين لا توجد فيه تقاليد حضارية ثابتة أو عقائد دينية مستقّرة . وكان على المهاجر أن يسقط معظم ثقافته القديمة ويندمج فى المجتمع ليصبح أمريكياً ، وإن ظل به ولع لثقافته القديمة فإنه يمكنه أن يعبّر عن هذا الجانب من شخصيته من خلال بعض جوانب حياته غير المهمة مثل الطعام

والاحتفال ببعض الأعياد . ولكنّ هويته القديمة أو ما تبقّى منها ، فيجب أن تظل خاضعة لانتمائه الأمريكي . ومن المعروف أنّ أعضاء الجماعة اليهودية من المهاجرين كانوا من أكثر المهاجرين تقبُّلا للمثل الأميريكية ، وأكثرهم تخلياً عن ثقافتهم القديمة الأوروبية ، بمعدّلات تفوق المهاجرين الآخرين . وهذا يعود إلى عدم تجذُّر اليهود في الثقافة الأوربية في شرق أوربا ، ولذا كان من الواضح أن المهاجرين اليهود على عكس كثير من المهاجرين من الجماعات الإثنية الأخرى لم يأتوا إلى الولايات المتحدة ليجربوا حظّهم وإنما ليستقروا ويقيموا فيها . ولذا ، فقد كانت نسبة العائدين إلى أوربا من بين المهاجرين اليهود هي أقل نسبة بين مختلف جماعات المهاجرين (ربما باستثناء الأيرلنديين) . وبعد أن استقرّ يهود شرق أوربا ، وضعوا أنفسهم داخل الإطار الأمريكي وأصبحوا أمريكيين بشرطة (أمريكيين / يهوداً) بحيث أصبحت إسرائيل بالنسبة إليهم مثل أيرلندا بالنسبة للأمريكيين من أصل أيرلندي . ويجب ملاحظة أنّ إسرائيل ، بذلك أصبحت البلد الأصلي أي البلد الذي يهاجر منه الإنسان لا إليه – لكن فكرة أنّ إسرائيل هي البلد الأصلي هي فكرة مناقضة للفكرة الصهيونية .

وفي الوقت الحاضر ، يلاحظ أنّ أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، على عكس ما هو شائع ، من أكثر الأقليات اندماجاً وتأمركاً حيث يتبدى هذا في تزايد معدلات العلمنة في وقت لايزيد فيه عدد اليهود الذين يمارسون شعائر عقيدتهم على ٥٠٪ ،

وفى معدّلات الزواج المختلط الذى يصل فى بعض الولايات إلى ما يزيد على ٥٠٪ .لذا ، فنحن نسميهم اليهود الجدد ، فهم مختلفون بشكل جوهرى عن يهود أوربا ويهود عصر ما قبل الاستنارة فى أواخر القرن الثامن عشر .ولفهم سلوكهم الانتخابى والسياسى الحقيقى ، لابد من أن نضعهم داخل سياقهم الأمريكى خارج الأساطير الصهيونية التى يردّدها بعض العرب .

الجمهوريون والصوت اليهودي

على سبيل المثال ، يلاحظ أنّ العلاقة بين الدولة الصهيونية والولايات المتحدة ازدادت عمقاً فى أثناء حكم الرئيسين الجمهوريين نيكسون وريجان ، خصوصاً الأخير . ويلاحظ كذلك أنّ سياسات الحزب الجمهورى ، التى تتبنى سياسة المواجهة مع الاتحاد السوفييتى وتصعيد الحرب الباردة ، تلقى صدى فى صفوف الصهاينة والدولة الصهيونية المستفيدة من حالة التوتر الدولى والاستقطاب . ويلاحظ كذلك أنّ برنامج الحزب الجمهورى عام ١٩٨٨ يتّسم بالتحيّز الشديد لإسرائيل من مطالبة بتقوية الأواصر الاستراتيجية معها وتعميق العلاقة الخاصة بها والوقوف ضد إنشاء دولة فلسطين وتأييد إلغاء قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية . كما أنّ الحزب الجمهورى لايضم فى صفوفه شخصية مثل جيسى جاكسون الذى نجح هو وأتباعه ، ولأول مرة فى تاريخ مؤتمرات الأحزاب الأمريكية ، فى وضع فكرة الدولة الفسطينية موضع

المناقشة . فإن صدقت مقولة «الصوت اليهودى» كأداة ضغط فى يد الصهاينة ، فإنه من المتوقع أن يصوت اليهود لصالح الجمهوريين بأعداد متزايدة . ومع هذا ، فقد أدلى معظم اليهود بأصواتهم لصالح الحزب الديمقراطى ، بنسبة ٧٠-٨٠٪ من مجمل الأصوات كما حدد بعض المحلِّلين . وفى محاولة تفسير هذا الوضع نجد أنَّ المحللين يسقطون «الولاء الصهيونى» كعنصر محرِّك ويتوجهون لعلاقة هؤلاء الأمريكيين اليهود بمجتمعهم الأمريكى . فيلاحظ أنَّ الحزب الديمقراطى كان دائماً هو حزب المهاجرين والأقليات وسكان المدن وهو أيضاً الحزب الذى يمثل مصالحهم ويحاول التعبير عنها . وفي عام ١٩٣٢ ، حصل مختلف الرؤساء الأمريكيين من الحزب الديمقراطى على ما يزيد على ٧٠٪ من الأصوات اليهودية . وبحسب كثير من المحلِّلين لا تزال هذه النسبة هى النسبة القائمة ، ففى انتخابات عام ١٩٨٤ لم يحصل ريجان إلا على ٣٠-٤٠٪ من الصوت اليهودى وهى نفس النسبة تقريباً التى حصل عليها بوش . فالحزب الجمهورى هو حزب البيض (الواسب) بالدرجة الأولى (من بين المندوبين لمؤتمر الحزب الجمهورى لاختيار مرشح الرئاسة عام ١٩٨٨ ، كان هناك ٢٪ من اليهود في مقابل ٦٪ فى مؤتمر الحزب الديمقراطى ، وكان هناك ٣٪ من السود فى مقابل ٢٠٪ فى مؤتمر الحزب الديمقراطى) . وعلى الرغم من أنَّ برنامج الحزب الجمهورى مؤيد للصهيونية وإسرائيل ، فإن نفس البرنامج يقف ضد إباحة

الإجهاض ويطالب بإدخال الصلوات في المدارس ويؤكد على ضرورة ترديد يمين الولاء في المدارس . كما أنَّ البرنامج يطالب بإعطاء خصم في الضرائب لأولياء الأمور الذين يلحقون أولادهم بمدارس خاصة حتى لو كانت دينية . وهى سيسات محافظة لا تروق للناخبين اليهود واستجابتهم لها هى التى تحدد سلوكهم الانتخابى .

وقد تبدو كل هذه الأمور بالنسبة إلى المراقب الخارجى وكأنها أمور تافهة ، وهى حقاً كذلك من منظور السياسة الخارجية ، ولكنها ليست كذلك من منظور الحركيات الداخلية للمجتمع الأمريكى ونمط التصويت الذى يتبَّعه أعضاء الجماعة . فمنذ بداية الستينيات والمعركة مستمرة بين دعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة بشكل كامل ومطلق ، بقيادة الجماعة اليهودية من جهة ، وبعض الجماعات الأخرى ذات التوجه الدينى من جهة أخرى . ويرى معظم أعضاء الجماعة اليهودية أنَّ مصلحتهم تكمن فى تزايد معدَّلات العلمنة ، وأنَّ هذا هو الضمان الوحيد لحريتهم بل ووجودهم . وقد اكتسح هذا التيار المجتمع الأمريكى فى الستينيات . ووصلت عملية الفصل بين الدين والدولة مراحل هستيرية حتى أنه منع ذكر كلمة «الإله» فى الكتب المدرسية ، ومنعت الصلوات كما منعت نشاطات الجمعيات الدينية فى المدارس حتى لو أرادت تسجيل نفسها على أنها من جماعات الهوايات مثل جمعية كرة القدم !

ولكن مع بداية السبعينيات ، بدأ ردّ فعل ضد هذا الاتجاه ، وبدأت حركة بعث ديني ذات طابع أصولي والطريف أنّ هذه الحركة ذات توجه صهيوني بمعنى أنّ أتباع هذا الاتجاه يرون عدم إمكان أن يتم الخلاص المسيحي إلا بعد عودة اليهود إلى صهيون (فلسطين) [1]

وقد استفادت الدولة الصهيونية من هذا الوضع ، وهي تعتبر هذه الجمعات جماعات ضغط لصالحها بل إنّ بعض المعلّقين السياسيين الإسرائيليين يرون أنها أكثر أهمية من جماعة اليهود (كجمعة ضغط) بعتبار أنّ اليهود أقلية توجد خارج المجتمع الأمريكي (المسيحي) حتى ولو كنت مندمجة فيه . أما الجماعات المسيحية الأصولية ، فهي ليست مندمجة فيه وإنما هي جزء عضوي منه تعمل من داخله ولكّ رؤية الأمريكيين اليهود لهذا الموضوع مختلفة عن رؤية الدولة الصهيونية له فهذه الجماعات الأصولية ، برغم صهيونتها ، تهدّد حرية أعضاء الجماعة وكل ما حققته من مكانة اجتماعية وحراك اجتماعي ويقال إن كثيراً من اليهود صوتوا لصالح مونديل عام ١٩٨٤ بسبب اجتماع الإفطار الذي أقيمت فيه الصلاة المسيحية وحضره ريجان إبان انعقاد مؤتمر الحزب الجمهوري في دالاس وقد حاول الجمهوريون تصحيح خطئهم هذه المرة (عام ١٩٨٨) ، فعقدوا اجتماع إفطار

صلاة تعددياً حضره بروتستانت وكاثوليك ويهود . ولكن دونالد هودل وزير الداخلية أمريكي (وهو مسيحي أصولي) ألقى موعظة في هذا الاجتماع طلب فيها من مستمعيه ، بما في ذلك اليهود ، أن يدخلوا المسيح في حياتهم الشخصية ، فزاد الطين بلة ! ويحاول بوش أن يخفف من حدة برنامج الحزب الخاص بإدخال الصلوات ويدعو إلى أن تأخذ الصلاة شكل «لحظة صمت» يمكن للطلبة فيها أن يصلوا أو أن يجلسوا في أثنائها في صمت دون صلاة إن شاءوا . ولكن ، مهما حاول الحزب الجمهوري فسوف يظل موقفه باهتاً بالقياس إلى موقف الحزب الديمقراطي حيث طالب دوكاكيس بكل حدة بفصل الدين عن الدولة . وربما كان أكبر دليل على ليبراليته وعلمانيته أنّ زوجته يهودية . ونضيف إلى هذا أنّ السياسات الداخلية للحزب الجمهوري بشأن الإنفاق على مشاريع الرخاء الاجتماعي والتعليم هي سياسات محافظة في حين أنّ سياسة الحزب الديمقراطي في هذا المضمار ليبرالية . وكما أسلفنا ، يتبنّى معظم اليهود المواقف الليبرالية للحزب الديمقراطي.

الديمقراطيون والصوت اليهودي

لكل هذا ، يصوّت معظم يهود أمريكا للحزب الديمقراطي وليس للحزب الجمهوري ، تعبيراً عن وضعهم كمواطنين أمريكيين لهم حركياتهم الأمريكية الخاصة وليس بوصفهم أعضاء في الحركة

الصهيونية أو متعاطفين معها . وقد لوحظ أخيراً أن ثمة انفصال حاد بين القيادات الصهيونية وأعضاء الجماعة اليهودية . وقد أجرى استطلاع للرأى بين أعضاء الجماعة عن مدى معرفتهم بالقيادات الصهيونية التى يفترض فيها أنها تجندهم وتوجههم وكانت النتيجة أن غالبيتهم لا يعرفون اسماء هؤلاء القادة . وحينما عرضت عليهم الأسماء ظن بعضهم أنها أسماء بعض الممثلين أو المغنيين . وقد كان تعليق أحد اليهود على القيادة الصهيونية تعليقا أمريكيا إذ قال : هنا (أى فى الحركة الصهيونية) لا يوجد سوى رؤساء قبائل ولا يوجد هنود jts' all chiefs, no Indians ومع هذا ، يجب الإشارة إلى بعض العناصر المهمة التى قد تغير من سلوك الناخبين اليهود فى المستقبل :

١- يلاحظ، فى الآونة الأخيرة ، تزايد تحوُّل اليهود عن الليبرالية واليسار وتبنيهم مواقف محافظة . وربما يعود هذا إلى تزايد اندماجهم وحراكهم الاجتماعى حتى أصبحوا من أعضاء الطبقات الثرية الأمريكية بعد أن فقدوا ميراثهم الاقتصادى والحضارى المتميز . ويلاحظ هذا فى مجلة مثل كومنتارى التابعة للجنة اليهودية الأمريكية ، فهى كانت من أكثر المجلات ليبرالية ولكنها أصبحت مجلة محافظة تدافع عن التسلح والحرب الباردة . وهناك بالفعل جماعة تسمى «المحافظون الجدد» من بينهم إرفنج

كريستول ، ونورمان بودورتز (رئيس تحرير كومنتارى) ينادون بتحالف سياسى جديد وربما يعبر هذا التغيير فى الوضع الطبقى والتحول فى التوجه السياسى العام ، عن مزيد من تعاطف اليهود مع الفلسفة الاجتماعية للحزب الجمهورى واستعدادهم لتصويت لصالحه

٢- يلاحظ أن الحزب الديمقراطى هو حزب السود فظهور شخصية جيسى جاكسون هو تعبير عن تزايد نفوذهم والعلاقات بين اليهود والسود تتسم بالتوتر ابتداء من منتصف الستينيات ومع تزايد نفوذ السود داخل الحزب الديمقراطى ، يمكن أن نتوقع تزايداً فى انكماش عدد اليهود وفى انصرافهم عن الحزب ليبحثوا عن بدائل أخرى - أى الحزب الجمهورى .

٣- يلاحظ أن البعث الدينى فى الولايات المتحدة يجد صداه أيضاً فى صفوف اليهود الأرثوذكس والمحافظين ولذا ، لا يساير هؤلاء المحاولات التى يقوم بها اليهود الليبراليون لزيادة معدلات العلمنة داخل المجتمع الأمريكى ، بل ويطالبون بأن تقوم الدولة بتمويل التعليم الدينى ، وربما يكون لهذا أثره أيضاً على السلوك السياسى والانتخابى لهذه القطاعات من الصوت اليهودى وهذا الفريق يرى أن زوجة دوكاكيس اليهودية نقطة سلبية محسوبة عليه لا له ، وذلك باعتبار أنها تعبير عن تزايد العلمنة بزواجها المختلط من مسيحى، وباعتبار أنها ستكون قدوة ومثلاً أعلى للمرأة اليهودية

كل هذه الاتجاهات داخل الجماعة اليهودية قد تجعل الناخبين اليهود يصوّتون للحزب الجمهوري بأعداد متزايدة . ويلاحظ مثل هذا الاتجاه بالفعل ، ففي انتخابات ١٩٦٨ صوّت نحو ٨٣٪ لصالح الديمقراطي هيوبرت همفري ، أي أنّ ١٧٪ وحسب صوّتوا لنيكسون في حين صوت ٣٥٪ لصالحه في انتخابات ١٩٧٢. وفي انتخابات ١٩٧٦ ، صوّت لكارتر ٥٤٪ من اليهود وصوت ٤٥٪ منهم لصالح فورد . لكن هناك إحصائية أخرى ترى أنّ العدد كان ٣٣٪ لفورد والباقي لكارتر ، مما يبيّن أنّ الإحصائيات غير دقيقة بسبب طبيعة الموضوع ، وإن كانت كل الدلائل تشير إلى أنّ النمط القديم (المتمثّل في أنّ اليهود أقلية ليبرالية تقطن في المدن وتصوّت للحزب الديمقراطي) آخذ في التغير .

ويمكن القول أنّ هذا الاتجاه سيؤدي إلى تزايد اقتراب أعضاء الجماعة اليهودية من المثل الصهيونية . ولكن يمكننا أن نضيف عناصر أخرى لها تأثير مغاير ستزيد من الفجوة بين الصهيونية والصوت اليهودي من بينها أنّ الصورة الإعلامية لإسرائيل آخذة في التدهور بعد حرب لبنان ، ثم جاءت الانتفاضة لتربط في العقل الأمريكي بين الجيش الإسرائيلي والإرهاب .. ووجد يهود أمريكا ، الذين يعيشون في مجتمع ليبرالي يدعي الدفاع عن حقوق الإنسان ، أنه ليس من صالحهم أن يوحد فيما بينهم وبين

الكيان الصهيونى ، فاتخذت قيادات الأمريكيين اليهود موقفاً مستقلاً عن الدولة الصهيونية وناقداً له . ويلاحظ كذلك أنَّ سقوط الإجماع القومى فى إسرائيل حول المستوطنات انعكس على الأمريكيين اليهود ، إذ أنَّ ذلك أعطاهم حرية حركة لم تكن متاحة لهم من قبل . فنجد أنَّ حركة السلام الآن لها فروع فى الولايات المتحدة بل ولها صندوق جباية مستقل عن الصندوق القومى اليهودى . كما أنَّ الصراع بين الدينيين الأرثوذكس واللادينيين يجد صداه بين الأمريكيين اليهود ويقلّل من التفاهم حول الدولة الصهيونية التى تتحكم فيها المؤسسة الأرثوذكسية التى لاتعترف بهم كيهود .

إذن ثمة عناصر ، داخل المجتمع الأمريكى ، بعضها يزيد من اقتراب الأمريكيين اليهود من الفكرة الصهيونية ، والبعض الآخر يبعدهم عنها . ولكن مهما كانت الصورة مركبة ، فإنَّ العنصر الأساسى فى تحديد السلوك السياسى لليهود ، سلباً أم إيجاباً ، إقتراباً أم ابتعاداً عن الصهيونية ، هو كونهم مواطنين أمريكيين لهم مصالحهم الخاصة والمباشرة التى تفوق ولاءهم العقائدى للصهيونية . بل إن تأييد الأمريكيين اليهود لسياسة بلادهم فى الشرق الأوسط لا تختلف كثيرا عن تأييد الأمريكيين البروتستانت لها لا فى النسبة ولا فى الحدة . ولعل يهودية الأمريكى اليهودى

تفسر علو النبرة فقط . ومما يجدر ذكره أن بعض المحللين السياسيين يرون أن التظاهر السياسي لصالح إسرائيل ، وارتفاع النبرة هو شكل من أشكال التملص اليهودى من الصهيونية . فالأمريكى اليهودى يدفع الأموال للدولة الصهيونية ويمارس الضغط السياسى من أجلها خوفا منها وليس حبا فيها و(حتى يرضى ضميره) فهو يرفض الهجرة الاستيطانية تماماً .

كما أن هناك من المحللين من يذهب إلى أن نفوذ الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة يستند إلى قوة إسرائيل وليس العكس فاعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل فى كثير من الأمور الأمنية وحاجتها إليها كقاعدة عسكرية وحاملة طائرات ، يجعلها توسع رقعة حركة المنظمات الصهيونية حتى تقوم بعملية تعبئة الرأى العام الأمريكى (بما فى ذلك الرأى العام الأمريكى اليهودى) ليساند الولايات المتحدة فى دعمها الدائم والمستمر للكيان الصهيونى بما يتضمنه ذلك من دعم مالى قد يبدو باهظا من منظور الإنسان العادى ولكنه استثمار استراتيجى جيد من منظور المؤسسة الحاكمة ، الأمر الذى يتطلب عملية قومية سياسية تقوم بها المنظمات الصهيونية على أكمل وجه . كما أن المنظمات الصهيونية تساهم ، عن طريق عمليات جمع التبرعات ، فى دفع الفاتورة . والواقع أن النفوذ الصهيونى ، من هذا المنظور ، ليس سببا

لسياسات الولايات المتحدة وإنما هو نتيجة له ، ولاستيعاب هذه النقطة ، يمكن مقارنة النفوذ الصهيوني ومدى نجاحه بفشل الجماعات الأيرلندية في جمع الدعم والأسلحة لجيش التحرير الأيرلندي!

لكن هذا لا يعني أن الصوت اليهودي غير قادر على التأثير، غير أنه تأثير يتم داخل إطار المصالح الأمريكية لا خارجها أو ضدها . ولذا ، فإن الصوت اليهودي قد يؤثر في صانع القرار الأمريكي بخصوص الشرق الأوسط ، ولكنه لا يمكنه أن يغير من اتجاهه . يحدد أولوياته . وقد لوحظ أخيراً انصراف الشباب اليهودي في الولايات المتحدة عن الإدلاء بأصواتهم . وقد بينت إحدى الاحصائيات أن عدد الممتنعين عن الاشتراك في الانتخابات قد وصل إلى ما يزيد على مليون عام ١٩٩١ مما يضعف من قوة الصوت اليهودي ، خصوصا مع زيادة عدد أعضاء الأقليات الأخرى وتزايد إقبالهم على الانتخابات .

أوربا الغربية

ولا يشذ الصوت اليهودي في دول أوربا الغربية عن هذه القاعدة العامة فهي دول تؤيد إسرائيل من الناحية الاستراتيجية وتضم جماعات يهودية تدين بالولاء لأوطانها ومن ثم تؤيد الدولة

الصهيونية وتضغط لصالحها ، ولا يمكن تفسير سياسات الحكومة من منظور مدى تزايد أو تناقص النفوذ الصهيوني أو الصوت اليهودي ، ففرنسا على سبيل المثال ، حين اتخذت موقفا معاديا نوعاً ما تجاه إسرائيل أيام الجنرال ديجول وفرضت حظرا على تصدير السلاح لها، لم يكن هذا بسبب ضعف نفوذ اليهود وإنما بسبب سياسة ديجول التي كانت ترمي إلى إيجاد شخصية مستقلة لأوربا بين الدولتين العظميين وحينما رفعت فرنسا هذا الحظر ، فإنه لا يمكن تفسير ذلك بتعاظم الصوت أو النفوذ اليهودي . وعلى كل يلاحظ أن أعضاء الجماعة اليهودية في فرنسا يشكلون أقل من ١٪ من مجموع السكان فهم يمثلون ٥٢٠ ألفاً من نحو ٥٤ مليوناً . كما أن أعداداً لا بأس بها من هؤلاء ليس لها حق التصويت لأنهم مهاجرون جدد . كما أن الجماعة اليهودية لا تتسم بالتماسك الشديد إذ أنها مقسمة إلى يهود سفارد شرقيين من جهة ويهود غربيين من جهة أخرى . كما أن يهود فرنسا متمركزون أساسا في باريس وبضع مدن أخرى ، مما يجعلهم قريبين من مؤسسات صنع القرار، ولكنهم غائبون في الوقت ذاته عن معظم فرنسا ، وهذا لا يعني أن الفرنسيين اليهود غير مؤثرين على الإطلاق ، فهم ولا شك ذوو أثر عميق ، خصوصاً في الإعلام ، ولكن أثرهم ينبع من كونهم فرنسيين . ويمكن أن نضرب مثلاً آخر بسياسة انجلترا التي تلتزم

بتأييد اسرائيل ، وتؤيد المواقف الأمريكية بشكل شبه كامل ، ولو نظرنا إلى الصوت اليهودى لوجدنا أن اليهود لا يشكلون كتلة بشرية كبيرة ، فعددهم لا يتجاوز ٦ ٪ من مجموع السكان ، وهم ليسوا أقوياء من ناحية النفوذ الاقتصادى ، كما أن أصواتهم موزعة بين عدة دوائر (ولذا لا يمكن الحديث عن دوائر يهودية) ، ومع هذا ، بلغ عدد الأعضاء اليهود فى البرلمان الانجليزى عام ١٩٨٣ ثمانية وعشرين عضواً من أصل ستمائة وخمسين ، وهى نسبة تفوق نسبة اليهود إلى عدد السكان ، ولكن هؤلاء النواب يمثلون دوائر لا يلاحظ فيها وجود يهودى غير عادى ، أى أنهم انتخبوا باعتبارهم بريطانيين وأعضاء فى أحزاب بريطانية . وكان عدد النواب اليهود ستة وأربعين عضواً عام ١٩٧٤ ، أى أنه حدث انخفاض كبير فى عددهم . ولكن لا يمكن تفسير هذا الانخفاض فى إطار حركيات يهودية ، وإنما لابد من العودة إلى حركيات المجتمع البريطانى والجماعة اليهودية فيه . ولذا ، فإن هذا الانخفاض لا يصلح مؤشرا على تراجع النفوذ الصهيونى ، تماماً كما لا يصلح الحكم على وجود خمسة وزراء يهود فى إحدى وزارات تاتشر فى عام ١٩٨٦ (وهو أكبر عدد شهدته أية حكومة بريطانية) على أساس تزايد هذا النفوذ ، فالموقف البريطانى من إسرائيل هو موقف استراتيجى مبدئى لن يتغير بتراجع النفوذ اليهودى ، بل ولن يتغير باختفائهم الكامل (وهو الأمر الذى يتوقعه بعض المراقبين).

أما في جنوب أفريقيا ، فإن أعضاء الجماعة اليهودية قد صنفوا باعتبارهم بيضاً مما يعني أنهم يشاركون في صنع القرار داخل النظام الديمقراطي الاستيطاني ، ولكن اليهود يشكلون أقلية عددية آخذة في التناقص . ولذا ، نجد أن اليهود الذين ينتخبون في منصب ما يعتمدون على دعم غير اليهود إلى درجة كبيرة . وحينما يلعب أعضاء الجماعة دوراً مهما كان في انتخاب مرشح ما وإيصاله إلى مجالس المقاطعات أو المدن ، فإن هذا يتم داخل إطار السياسة السائدة ومطلقاته ومنطلقاته . ومن ثم فإن السلوك الانتخابي لليهود و سلوك مستوطنين بيض بالدرجة الأولى

يبقى بعد ذلك الصوت اليهودي في أمريكا اللاتينية ويجب أن نشير ابتداء إلى أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية ضئيل للغاية في كل دول أمريكا اللاتينية وربما يكون الاستثناء الوحيد هي الأرجنتين حيث يوجد معظم يهود أمريكا اللاتينية فيها ، وهم مركزون أساسا في بوينس أيرس . ومن الملاحظ عدم وجود دور فعال لهم في تحديد السياسة الخارجية للأرجنتين . فالحكومة العسكرية كانت تؤيد إسرائيل وتشتري منها السلاح وتضطهد أعضاء الجماعة . كما أنه تم انتخاب رئيس جمهورية من أصل عربي ! هذا إلى جانب أن الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تتسم بعدم التجانس ، ومن ثم بعدم التماسك وتوزع الصوت اليهودي ، كما يلاحظ أن النظام السياسي في أمريكا اللاتينية

تسوده الرموز الكاثوليكية واللاتينية مما يضعف فعالية النفوذ اليهودى . ولكن ضعف العملية الديمقراطية ذاتها فى أمريكا اللاتينية قد يجعل الانتخابات السياسية أمراً لا يتمتع بنفس الأهمية التى يتمتع بها فى الولايات المتحدة ، وعلى كل تتكفل الانقلابات المتكررة بجعل الانتخابات مسألة محدودة الأهمية .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٩٢٧٠
I . S . B . N
977 - 07 - 0277 - 9

روايات الهلال تقدم

أوراق ١٩٥٤

بقلم
جميل عطية إبراهيم

تصدر: ١٥ نوفمبر ١٩٩٣

كتاب الهلال يقدم

شخصيات من مصر

بقلم

د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

يصدر: ٥ ديسمبر ١٩٩٢

المؤلف

الدكتور عبدالوهاب المسيرى مؤلف عربى معنى بالحضارة الغربية الحديثة ويشئون أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم وبالفكر الإسلامى.

ولد فى دمنهور (البحيرة) عام ١٩٣٨ ، ويعمل أستاذا غير متفرغ للأدب الانجليزى والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات) .

له عدة دراسات فى الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبى من أهمها :

- **نهاية التاريخ** (القاهرة ، ١٩٧١)
- **الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** (الكويت ، ١٩٨٨) .
- **الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة فى الإدراك والكرامة** (القاهرة، ١٩٩٠) .
- **هجرة اليهود السوفييت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات** (كتاب الهلال ، ديسمبر ١٩٩٠) .
- **العرس الفلسطيني : مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية** (واشنطن ، ١٩٨٨) .
- **الفردوس الأرضى : دراسات وانطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة** (بيروت ، ١٩٧٩) .
- **الشعر الرومانتيكي الإنجليزى : النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية** (بيروت ، ١٩٧٩) .

وله عشرات المقالات فى الشعر الإنجليزى والأمريكى والحضارة الغربية الحديثة والصراع العربى الإسرائيلي ، وسيصدر له في غضون شهرين (فبراير ١٩٩٤) العمل الذى عكف على إنجازه منذ خمسة عشر عاما : **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري وتصنيفي جديد** ، كما سيصدر له دراسة في النماذج المعرفية (المعهد العالمى للفكر الإسلامى) .

يحاول هذا الكتاب الإجابة على بعض الأسئلة التي شغلت كثيراً من الناس : ما علاقة اليهود بالبهائية والماسونية ؟ وما المخطط اليهودي للسيطرة على العالم كما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون ؟ ما حقيقة العبقرية اليهودية والإجرام اليهودي ؟ ولِمَ آثر المحاربون اليهود المحاصرون في قلعة ماساده الانتحار على الاستسلام للرومان ؟ وهل كان اليهودي الفريد دريفوس جاسوساً أم بطلا وطنيا ؟ وهل كان اليهودي ليو فرانك ذئبا بشرياً أم ضحية العنصرية ؟ وهل يعجن اليهود خبز عيد الفصح بدماء طفل مسيحي ؟ وما مدى سيطرة اليهود على الإعلام وما مدى هيمنة اللوبي الصهيوني على الولايات المتحدة وغيرها من الدول؟ وهل الصوت اليهودي عنصر حاسم وفعال في توجيه سياسات هذه الدول ؟

والإجابة التي يقدمها هذا الكتاب ليست تقليدية بأية حال ، فهو يحوّل هذه القضايا إلى مجرد حالات يستخدمها لدراسة قضية أعمق وأوسع ، وهي قضية إدراك الإنسان لواقعه من خلال نماذج تفسيرية تتفاوت في درجة سطحيتها وعمقها . فهي قد تكون نماذج بسيطة تختزل الواقع إلى عنصر واحد أو عنصرين وتستبعد قدرا هائلاً من المعلومات والحقائق والمعطيات . وقد تكون نماذج مركبة فتوصل للمدرك صورة ثرية مركبة تضم كثيرا من عناصر الواقع وأبعاده والتي كان قد تم استبعادها من جراء استخدام النماذج البسيطة الاختزالية .

هذا الكتاب إذن ليس عن اليهود وحسب ، وإنما عن بعض القضايا المنهجية الخاصة بأنواع النماذج ، وكيفية صياغتها ، والفرق بين النماذج الاختزالية البسيطة والنماذج المركبة ، وعملية رصد الواقع وجمع المعلومات ومراكمتها من خلال هذه النماذج .

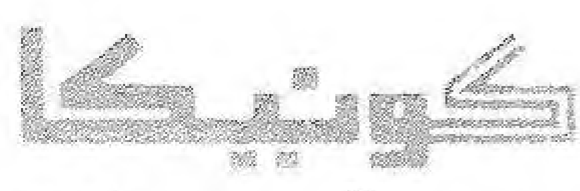
وهو لهذا السبب لا يهم الدارسين في حقل الدراسات اليهودية والصهيونية وحسب ، وإنما يهم ، وربما بالدرجة الأولى ، المهتمين بقضايا المعلومات ودراسة الإدراك الانساني .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول . الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N


كونيكا


Konica


Konica
XG100
24


Bibliotheca Alexandrina
0215290


Konica
extra mini